الفصل الثالث

مِن أثر الإسلام

obeikandl.com

obeikandl.com

آثار الثقافة الإسلامية

لقد كان من آثار هذه الثقافة الأصيلة المتفتحة على الكون أنها قدمت للفكر الإنساني جديداً في كل جانب من جوانب نشاطه ، ففي مجال المثل والقيم دعت الثقافة الاسلامية الى مثل جديدة تعتمد على الإيمان والحق والعدالة والحرية والمساواة والإخاء ، وتنبثق هذه المثل من نظرة الإسلام الى الإنسان وتكريمه وإعلان خلافته على الأرض ، كما أنها قدمت نظرة شاملة متوازنة منسجمة الى الكون وما فيه من سنن مطردة ودلالة ذلك على الله ، والى الانسان وصلته بالله بالعبادة والمسؤولية والعمل ، فالعبادة بمفهومها الواسع ليست قاصرة على العبادات المدونة المنصوص عليها ولكنها تتسع لتشمل كل عمل يأتيه الإنسان ، أما المسؤولية فلا تكون إلا على العمل ، ولا يكون الجزاء إلا بمقدار ما يقدم الإنسان من عمل صالح أو خبيث .

أما في مجالات العلاقات الاجتماعية فقد قدمت هذه الثقافة فلسفة جديدة للروابط بين الفرد والأسرة والمجتمع ، فلسفة تقوم على تكافل هذه الحلقات جميعاً وتوجيهها للعمل من أجل صالح الإنسانية ، والتكافل الذي يعرفه الفكر الاسلامي شامل كامل لأنه لا يقتصر على الجانب المادي وانما يعنى بالتكافل الروحي والأخلاقي ، كما أنه ليس التكافل الذي نعرفه حديثاً بين الفرد والدولة ، ولكنه تكافل هذه الحلقات على مستوياتها المختلفة .

وفي مفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة وعلاقة الدول مع غيرها ، كان الفكر الاسلامي سابقاً الى تحديد هدف بعيد للدولة يعمل كل من الشعب والحكومة على تحقيقه وهو ايجاد المدينة أو الدولة الفاضلة التي تُحَكّمُ أمر الله في كل شؤونها والتي تعمل لإعلاء كلمة الله قبل كل شيء وتحرير الفرد من كل عبودية لغير الله والقضاء على حكم الطواغيت بشراً كانوا أم تقاليد أم حجارة .

وكان من آثار هذه الثقافة أنها أعطت للعرب وللمسلمين عموماً شخصية فكرية متميزة لم تكن لهم من قبل ، صحيح أن العرب كانوا يملكون الفطرة السليمة البسيطة ، وأن لديهم أصولاً طيبة لمكارم الأخلاق ، وبداهة رائعة في الشعر والخطابة ، إلا أنهم كانوا يفتقدون أهم ما يكوّن الأمة ويكمل شخصيتها وشعورها بذاتها ويمنحها الثقة بنفسها ، الا وهو الرسالة والعقيدة والفكر الموحد ، أو ما يطلق عليه اسم (المفهومية) التي تلتقي حولها الطاقات وتتوحد الآراء فتسير بقوة وايجابية محددة أهدافها عارفة حقيقة وجودها ، وهكذا أمكن لهذه الطاقات الفطرية أن تنطلق وتبدع ، لذا نجد حياة العرب في الجاهلية ضحلة سبخة بينما نجدها مع الاسلام والثقافة التي انبثقت عنه غنية وارفة ، لقد وضع العرب أيديهم على سر وجودهم فاستطاعوا أن يحققوا الكثير .. استطاعوا أن يغنوا الانسانية بالمبدأ والحضارة والتاريخ المشرق ، وظهرت بظهور الاسلام ثقافات جديدة وعلوم مبدعة وفنون ومعارف في جميع مناحي الحياة .

وكان من آثار هذه الثقافة في مجال الفكر والتقدم العلمي أنه كما يقول الدكتور حتي «خلال القسم الأول من القرون الوسطى لم يساهم أي شعب من شعوب الأرض بقدر ما ساهم به المسلمون في التقدم البشري ، وظلت اللغة العربية لغة العلوم والآداب والتقدم الفكري لمدة قرون في جميع أنحاء العالم المتمدن آنذاك ، وكان من آثارها أيضاً أنه فيما بين القرن التاسع والثاني عشر الميلادي (الثالث والسادس الهجري) فاق ما كتب بالعربية عن الفلسفة والطب والتاريخ والالهيات والفلك والجغرافية كل ما كتب بأي لسان آخر».

لقد نشأت الحاجة عند المسلمين الى تجديد التعرف على القرآن وسيرة الرسول

وتمتين أصول هذه المعرفة فظهرت علوم التفسير والسيرة وعلوم الرجال ، ونشأت الحاجة الى التشريع والتقنين فظهرت علوم الفقه والأصول ، وطمح المسلمون الى مزيد من التعرف على أحوال الكون لتسخيره وإعماره فظهرت العناية بالعلوم التجريبية والمجردة كالرياضيات والفلك والحياة ، وأرادوا الاستفادة مما عند الأمم الأخرى فاستنجدت دراسة علوم الفلسفة والأديان والعقائد والمقارنة ، وشعروا بأن لغة العرب رابطة متينة بينهم لأنها لغة القرآن فأبدعوا علوم اللغة العربية بشتى فروعها وأقسامها ، وهكذا لم يكتمل القرن الرابع الهجري حتى كانت الشعوب الإسلامية أغنى الشعوب علماً وفكراً وثقافة وكفاية وأقواها عدة وشخصية ، وقدمت ثقافتهم للانسانية أضخم تراث علمي وأدبي ، وكان رجال الفكر الذين جمعهم درب هذه الثقافة الوارف من الكثرة بحيث ضاقت بهم المؤلفات العامة فظهرت كتب طبقات الرجال ، واختص كل نوع من هذه الكتب بفئات خاصة من المفكرين ، فهذه معاجم رجال الحديث ، وهذه معاجم رجال الأدب ، وهذه كتب طبقات الأطباء والحكماء ، وهكذا مما لم يجتمع لأية أمة من الأمم لا في ماضيها ولا في حاضرها . وقد خلف آلاف المفكرين والعلماء المسلمين ، آلاف الآلاف من الذخائر والنفائس ، التي زخرت بها آلاف المكتبات التي كانت تغطي العالم الاسلامي من مشارف الصين الى الاطلسي ومن تركستان الى عدن ودلهي في أضخم نهضة ثقافية عرفها العالم حتى ذلك الحين . ولقد دامت هذه الثقافة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي(الثاني عشر الهجري) وكانت بداية النهضة والتقدم في أوروبا والعالم الغربي كله .

ولئن كان دور العرب في هذه الثقافة عظيماً إذ لَيس بوسع أحد أن ينكر عليهم فضلهم في وضع أسس هذه الثقافة ثم تطويرها نحو المستوى الرائع الذي بلغته ، الا انه يجب أن لا نغمط حق الشعوب الأخرى التي اعتنقت الإسلام وساهمت مساهمة مدهشة في هذه الثقافة ، كشعوب أواسط آسيا وايران وتركيا وامبراطورية المغول في الهند .

وليس بالامكان في هذه العجالة تفصيل ما استطاعت الثقافة الاسلامية أن

تسهم به في تنمية الفكر الانساني ، ولكننا نذكر بايجاز بعض المنجزات العلمية في ميدان العلوم الطبيعية والرياضية ، التي ندين بها لعبقرية البحث الاسلامي المنفتحة على الكون وما فيه ، مسجلين اعجابنا بالبحوث الهامة التي قدمها الاستاذ حيدر بامات عن دور الثقافة الاسلامية في تكوين الفكر الانساني وفي بناء المدنية الغربية بصورة خاصة ، في كتابيه «مجالي الاسلام» و «دور الإسلام في بناء المدنية الغربية» [1] .

ويعد المنهج العلمي التجريبي الذي تدين له الحضارة الحديثة بما وصلت اليه من كشف واختراع بعد ان تبنته واعتمدته طريقاً للوصول إلى حقائق العلوم — نقول — يعد هذا المنهج أحد منجزات هذه الثقافة ، فقد كانت الثقافة القديمة وخاصة اليونانية التي احتك بها المسلمون اكثر من غيرها من الثقافات تجهل الطريقة التجريبية وتحتقرها ولا تعنى إلا بالدراسات النظرية المجردة ، يقول سيديو في «تاريخ العرب» : «ان ما يميز مدرسة بغداد عن سواها الروح العلمية التي سادت أعمالها وذلك المضي من المعلوم الى المجهول ، وملاحظة الظواهر بدقة لاستخلاص الاسباب من النتائج ، وكذلك عدم قبول الأشياء إلا ما كان منها ثابتاً بالتجربة ، وكان العرب في القرن التاسع قد أصبحوا يملكون ذلك المنهج العلمي الخصيب الذي كتب له بعد ذلك بزمن طويل أن يكون ذا فعالية في احداث اكتشافاتهم العظيمة ، ويؤكد المستشرق جيب هذه الشهادة بقوله : «استطاع العلماء المسلمون بتركيز أفكارهم على الحوادث الفردية أن يطوروا المنهج العلمي إلى أبعد مما ذهب اليه أسلافهم في الاسكندرية أو اليونان ، واليهم يرجع الفضل في استخدام أو اعادة المنهج العلمي الى اوروبا».

وبسبب من فطرة العرب العلمية واتجاه الثقافة الاسلامية الى الاهتمام بالعلوم الدقيقة قبل غيرها ، كان الفلك والرياضيات أول العلوم التي لفتت انظار العلماء المسلمين ، حتى لقد تعدى الاهتمام بالفلك العلماء أنفسهم الى الخلفاء والأمراء

---

١ — اعتمدنا على هذين الكتابين في معظم ما أثبتناه حول التقدم الحضاري الإسلامي .

والسلاطين . وفي خلافة هارون الرشيد والمأمون استطاعت مدرسة الفلك في بغداد أن تحقق الكثير ، فقد نقلت النظريات الكثيرة ، وأصلحت الكثير من أخطاء بطليموس وعرفت مقدار تقوس مدار الشمس البيضوي الشكل وانتقاصها المتوالي ، ودرست طول السنة بدقة وتفصيل ، ولاحظت أن أعلى خط عرض للقمر غير منتظم ، واكتشفت اختلافا ثالثاً للقمر يدعى التحول ، وقالت بوجود بقع شمسية ، ودرست الخسوف وظهور النيازك وظواهر سماوية أخرى .

ويعد من مشاهير المشرق الاسلامي في الفلك ، البتاني ، الذي يعتبره لالاند صاحب القاموس الفلسفي المعروف من أشهر عشرين فلكيا عالمياً ، وأبو الوفا الذي يقرن اسمه باحدى قواعد علم الفلك ، وهي قاعدة الانحراف القمري الثالث الذي عزي خطأ بعد عشرة قرون الى أحد العلماء الدانمركيين وابن يونس مخترع الرقاص والمزولة ومؤسس المدرسة الفلكية في القاهرة ، وقد نشر ابن يونس جداوله الفلكية التي فاقت في دقتها كل الجداول السابقة ، واستعيض بها عن الجداول اليونانية جميعاً ، ولا بد أن نضيف الى هؤلاء المشاهير الحسن ابن الهيثم الذي تعد مقالته في البصريات أساساً لبحوث بيكون وكبلر فيما بعد ، ونذكر بهذه المناسبة أنه كان أول من لفت النظر إلى إنشاء سد في أسوان لرفع مستوى جريان الماء في النيل .

أما البيروني وهو أحد مشاهير العلماء المسلمين في بلاط محمود الغزنوي فقد استطاع أن يكون حلقة متينة بين تراث بغداد وعلماء الهنود ، ومن أعماله العديدة التي نشرت ، لوائح الطول والعرض لأشهر مدن العالم ، ويعود الى عبد الرحمن الخازني وعمر الخيام بتشجيع من السلطان السلجوقي ملك شاه الفضل في تعديل التقويم وجعله اكثر دقة من التعديل الذي قام به غريغوريوس بعد ذلك بعشرة قرون . أما نصير الدين الطوسي فقد استطاع بتأييد من هولاكو الذي عرف في التاريخ بوحشيته أن يشرف على أضخم مرصد نموذجي وان يخترع أدوات جديدة استخدمت في ذلك المركز الجديد الذي شقت به علوم بغداد والقاهرة الفلكية طريقها الى الصين واوروبا .

وفي المغرب الاسلامي – في الاندلس – كانت الدراسات الفلكية على نفس المستوى من التقدم وإن لم يصل لنا منها الا النذر اليسير بسبب فترة الاضطهاد الديني والدمار الذي خلفته الحروب الأهلية في اسبانيا ، ومن مشاهير علماء المغرب مسلمة المرحيطي وابن خلدون وابن رشد، ويستطيع المرء أن يحكم على جودة انتاج هؤلاء العلماء بالاطلاع على مؤلفات المسلمين الذين عاشوا في نفس الفترة واقتبسوا عنهم ، وكان بناء المراصد وتعميمها من أهم ما عني به علماء الفلك في الاندلس .

أما في الرياضيات فقد اكتشف العلماء المسلمون الكثير من المبادىء الأساسية للحساب والجبر والهندسة ، ان الجبر على أغلب الأقوال من اختراع المسلمين ، وان الاعداد وطريقة العد التي تستعمل فيه حتى الآن من اختراع إسلامي ، ولما كان المسلمون يستعملون المثلثات «فرع من الرياضيات» في علم الفلك ، فقد وجهوا اليه عناية فائقة ، ويعزى الى البتاني استبدال اوتار الاقواس «الخطوط المقابلة في الهندسة» بجيب القوس المشار اليه ، واستعمال جيب الزاوية وجيب تمام الزاوية في حساب التفاضل والتكامل وقد أسماه الظل المطول ، وهو ما يسمى في علم المثلثات الحديث بالظل ، وكان هذا أمراً بارز الأهمية حتى ان مؤلف كتاب المجمل التاريخي في مناهج علم الهندسة «م. تشارلس» يسجل هذه الحقيقة بقوله «ان علماء الرياضيات لم يتوصلوا الى اكتشاف الظل الا بعد البتاني بخمسمائة عام».

أما اختراع الصفر فقد كان ثورة في علم الرياضيات وان لم يدرج استعماله في الغرب حتى بداية القرن الثامن عشر . وحين نذكر مساهمة المسلمين في الرياضيات والصفر بصورة خاصة لا نستطيع أن ننسى رئيس بيت الحكمة محمود الخوارزمي وما ساهم به في علم الجبر ، فقد اشتق اسم هذا العلم في اللغات الاجنبية من اسمه «اللوغاريتم» حتى ان فيليب حتي يرى «ان الخوارزمي كان يمتلك أفضل عقلية عند العرب وانه بلا شك الرجل الذي مارس اكبر قسط من التأثير على الفكر الرياضي خلال العصور الوسطى بأسرها »وقد كتب لأحد

المسلمين وهو ثابت بن الجراح أن يكمل ما بدأ به الخوارزمي فيحقق تطبيق الجبر في مجال الهندسة .

وإذا كان غير المسلمين قد سبقوا الى دراسة الفلك والرياضيات فإننا يجب ان نعتبر المسلمين الموجدين الحقيقيين لعلم الفيزياء ، ولا شك ان كتاب البصريات لابن الهيثم يعد من أهم منجزات علماء المسلمين في هذا الفرع من العلوم ، فقد كان بداية علم الضوء والمرئيات الحديث ، تناول فيه المؤلف الصور المنعكسة في المرآة وانكسار الضوء والصور واستعمال الغرفة المظامة ، ولا نشك في أن أبحاث ابن الهيثم في العدسات الكبيرة كانت أساساً لبحوث الغرب في المجهر والمرقب ، يضاف الى هذا ان الخوارزمي كان أول من قدم وصفاً مضبوطاً للعين وللعدسات والإبصار المزدوج .

وفي هذا الميدان نجد ان المسلمين كان لهم الأثر الأكبر في اختراع الأدوات الدقيقة واستعمالها ، وكانوا بذلك السابقين الى علم الميكانيك ، وقد اكتشفوا استعمال البندول في الساعة كما أنهم أكملوا صناعة البوصلة وأدخلوها الى الحياة العملية باستعمالهم الإبرة المغنطيسية في الملاحة .

ومن العلوم التي ابدعها العرب علم الكيمياء ، وكانت المعلومات اليونانية في هذا المجال ضحلة لا تتعدى القول بالعناصر الأربعة : التراب والهواء والماء والنار ، فجاء المسلمون ليكشفوا عن كثير من المواد والعناصر الكيميائية ، كما انهم اول من اخترع طريقة التقطير والتصعيد والبلورة والتخثير وفحص المعادن بالرصاص لاستخراج المواد وتركيبها ، وتعد هذه العمليات أساسية في علم الكيمياء حتى الآن .

ويدل على أثر المسلمين في هذا العلم أن كثيراً من المصطلحات المستعملة فيه حتى الآن من أصل عربي . ومن الاختراعات التي كانت ذات فائدة كبيرة في الصناعة : ملح البارود ، وصناعة الورق من القطن والكتان والخرق ، وتعد صناعة الورق من أهم الاختراعات الحضارية في تاريخ البشرية لأنه استبدل

استعمال الرق القديم وورق الحرير والبردى بالورق العادي الذي نستعمله الآن ، ومن أهم ما فعله العرب والمسلمون بفضل من روحهم العملية أنهم طبقوا الكيمياء على الصيدلة فانتقل هذا العلم من حيز البحث النظري الى مجال التطبيق العملي .

ومن مشاهير علماء المسلمين في الكيمياء أبو موسى جعفر الكوفي الذي كانت مؤلفاته موسوعة علمية حقيقية ترجم معظمها الى اللغة التركية ، وأبو بكر الرازي صاحب كتاب الحاوي الذي كان أول من وصف كيفية صنع حامض الكبريتيك.

أما الطب فقد كان مجال عناية فائقة ، ولعل ذلك أحد الدلائل على عناية ثقافتنا البالغة بالانسان وجميع متطلباته ، ولقد كان للأطباء المسلمين أثرهم البالغ على الدراسات الطبية وطريقة المعالجة في الغرب ، فقد ظلت مؤلفات الرازي وابن سينا وابن زهر أساس الدراسات الطبية في الجامعات الأوروبية لقرون عديدة ، كما أن مؤلفات الرازي وخاصة كتاب الحاوي نالت أوسع شهرة في أوروبا ، حتى ان كتابه هذا كان أحد تسعة مجلدات تشكل مكتبة الهيئة الطبية في باريس ، وقد بين الرازي علاج بعض الحميات الطفحية كالجدري والحصبة ، واستحدث استعمال المسهلات الخفيفة والحجامة في حالات الشلل ، والماء البارد في حالات الحمى المستعصية . أما ابن سينا فلا شك انه كان أعظم طبيب عرفه المسلمون ، وقد استعمل كتابه القانون في الطب كأساس لتدريس الطب في الجامعات الفرنسية والايطالية طيلة ستة قرون كاملة أي من القرن الثاني عشر إلى القرن الثامن عشر ، ومما استحدثه في هذا الفن طريقته في علاج أمراض القلب ، ويعد من أهم ما أبدعه ايجاد طريقة العلاج النفسي بعد أن لاحظ أن كثيراً من الأمراض تعود أسبابها الى أوهام أو عقد نفسية فلفت النظر الى علاجها بطريقة خاصة .

وكان للمسلمين القدح المعلى في حقل الجراحة فقد عرفوا التخدير ، اخترعه ابو القاسم خلف بن عباس القرطبي ، واستعملوا المواد الكاوية ووضع الفتائل لإخراج الصديد ، والكي ، وعالجوا امراض البلورية في العين باسقاط او استئصال العدسة البلورية ، وابتدعوا قطعاً لتفتيت الحصاة في المثانة ووقف النزيف الدموي .

ومما قدمه المسلمون في هذا الخصوص ادخال قوانين الملاحظة العلمية الى الطب ، فعل ذلك ابن زهر الأنداسي الأشبيلي الذي كشف عن موضوع هام في الطب وهو قدرة الجسم البشري الطبيعية على اشفاء نفسه بنفسه من أمراض معينة ، بالاضافة الى ما قدمه هذا العالم من طرق مبتدعة في جراحة القصبة الهوائية ، ومعالجة الفك وكسر العظام .

أما ابن رشد فإننا ندين له بالكثير في هذا المجال ، فقد كتب مقالات عن الترياق والسموم والحميات ، ولا يزال كتابه (الكليات) يطبع في اوروبا حتى الآن .

وقد كشف ابن النفيس السوري عن الدورة الدموية ووصفها بدقة ، قبل أن يكتشفها البرتغاليون الذين يعزى اليهم خطأ هذا الاكتشاف الهام .

وأخيراً فلا بد من الاشارة الى علم الصحة ، فنحن نعرف أن الدين الإسلامي يحوي قواعد صحية هامة كالاكثار من الاغتسال ، وتحريم الخمر ولحم الخنزير ، فكان المسلمون يعلقون أهمية كبيرة على مراعاة القواعد الصحية أثناء معالجة المرض ، وهذا ما يعتمد عليه الطب الحديث الآن . يقول غوستاف لوبون «إن المستشفيات العربية كانت مكيفة من الناحية الصحية بشكل ارقى بكثير من مستشفيات اليوم ، وكانت ضخمة وكان الماء والهواء يوزعان على أقسام المستشفيات بسهولة ، وتدل الحكم المأثورة في جامعة سالرنو على تعليمات قيمة تتعلق بموضوع الصحة ، ومن المعلوم ان هذه المدرسة التي كانت تعتبر أفضل معهد في أوروبا تدين بسمعتها الطبية للعرب».

هذا قليل من كثير مما استطاعت الثقافة الاسلامية ان تغني به الانسانية في ميدان الفكر والتقدم العلمي ، ولا شك ان لمبادىء الإسلام في الإيجابية والعمل أثرها في اصطباغ هذه المعارف بالصبغة العملية ، ونستطيع أن نتصور كم تكون عليه حال العلوم والمعارف من النماء لو أن المفكرين المسلمين حافظوا على أصالة التوجيه الإسلامي ولم ينحرفوا عن النهج الصحيح الى الاستغراق في جدل ونقاش

فلسفي وعقائدي ، كان من نتيجته ضياع الطاقات الذهنية في غير ما جدوى

أما في ميدان الدراسات الجغرافية فقد برّز المسلمون بروزاً واضحاً ، إذ أنهم بعد أن نقلوا عن اليونان وغيرهم ما عندهم من معلومات جغرافية توسعوا في مباحثها وزادوا عليها ما شاهدوه في رحلاتهم الواسعة ، فقد كان العرب مولعين بالرحلات ويقال إنهم وصلوا إلى أمريكا ، وقد صحّحوا كثيراً من أخطاء بطليموس وتعرّفوا على مناطق واسعة لم يعرفها الرومان واليونان من قبل .

وفي زمن المأمون رسم الخوارزمي ومساعدوه خريطة للسماء والأرض ، وقاموا بمحاولة ناجحة لقياس محيط الكرة الأرضية ، ثم صنع الإدريسي كرة سماوية وخريطة للعالم ، وكان من أبرع ما وصل إليه انه رسم خريطة للنيل أبرز عليها منابع النيل الأصلية التي اكتشفها الأوروبيون بعد ذلك .

وقد قام المقدسي قبل ذلك برحلات طويلة استغرقت عشرين عاماً زار خلالها أماكن مختلفة من العالم ودون دائرة معارف جغرافية وصف فيها الأماكن التي زارها بكلّ دقة وقد سجل البيروني في كتابه عن جغرافية روسيا وشمال أوروبا ، كما استطاع أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الزرقالي أن يقرّر أن طول البحر الأبيض المتوسط هو ٣٢ درجة وهو تقدير قريب جداً من تقديرات العلماء الحالية ، ولا ننس كتاب الاصطخري المسالك والممالك الذي ألحق به عدداً من الخرائط الملوّنة لكل قطر من الأقطار الإسلامية ، ولكن أعظم الجغرافيين العرب هو ياقوت الحموي الذي استطاع أن يخرج دائرة معارف جغرافية ضخمة في ستة مجلدات كبيرة بعنوان معجم البلدان [1] ، وقد كانت معلومات المسلمين الجغرافية وما أضافوه إلى الثقافة العلمية فيها معبراً انتقلت بواسطته أفكار اليونان الجغرافية والفكرة الهندية عن صورة الأرض وعقيدة استدارة الكرة الأرضية والنظرية الصائبة عن أسباب المد والجزر وكثير من المسائل الأخرى ، وقد كان للمسلمين فضل كبير

---

١ – الفكر الاسلامي ، م . شريف ، ترجمة أحمد شلبي ، ص ٦٤ .

في استخدام الخرائط البحرية حتى ان فاسكودي جاما أعظم بحار غربي استعمل هذه الخرائط سنة ١٤٩٧ م.

وفي مجال التاريخ وعلم الاجتماع كان للمسلمين أثر كبير في تطوير طريقة البحث وإغناء موضوع الدراسة ، وقد أفادوا من علم مصطلح الحديث الذي دربهم على أساليب النقد ومعرفة الصحيح من الزائف في نقد الروايات التاريخية . وقد احتمل عدد من المؤرخين عناء الرحلات الطويلة لجمع المادة التاريخية أو لتحقيقها .

ومن المؤرخين المسلمين في العصور المبكرة ، وقد حوى تاريخه تاريخ الشرق قبل الإسلام وبعده . ومع ضخامة ما وصل إلينا من كتابه إلاّ أنه يقال أنه لا يعادل عشر ما كان كتبه . ومن هؤلاء المسعودي الذي زار عدداً كبيراً من أقطار العالم بما في ذلك الصين ومدغشقر وخلّف لنا عملاً علمياً ضخماً يقع في ثلاثين مجلداً ، كتبه عن تاريخ العالم من قبل الإسلام حتى القرن الخامس الهجري ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء المؤرخين الرحالة المشهور ابن بطوطة الذي طاف معظم بقاع الأرض ، وكان كتابه سجلاً حافلاً ما يزال الباحثون يلجأون إليه للدراسة الاجتماعية المقارنة .

ومن الذين كتبوا في التاريخ وانتقلوا من دراساتهم التاريخية إلى علم الاجتماع ، المؤرخ وعالم الاجتماع المعروف ابن خلدون . فقد استطاع هذا المفكر الكبير أن يقوم الدراسات التاريخية السابقة عليه ويضع طريقة ومنهجاً للبحث التاريخي ، ثم انتقل ليفتح آفاقاً واسعة في السياسة والفلسفة وعلم الاجتماع ، فكشف عن قوانين التطور الطبيعي والتدهور الطبيعي للأمم . ، حتى أجمع النقاد على أنه أعظم مؤرخ فيلسوف ظهر في الإسلام . وليس هذا فحسب بل إن ابن خلدون يعتبر المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع .

أما عن الفكر التأملي الفلسفي فقد بدأ قبل الترجمات اليونانية عن طريق موضوعات وجود الله وعدله ورحمته والقضاء والقدر والخلافة الزمنية والروحية ،

وظهر نتيجة لذلك الخوارج والمرجئة والقدريون ، ثمّ ظهرت مدرسة المعتزلة وتلتها مدرستا الأشاعرة والماتريدية ، وكان للدراسات الكلامية الإسلامية تأثير خاص على علم الكلام المسيحي .

ومن الاتجاهات الفلسفية التي ظهرت وتتمتع بالاصالة ، المحاولات التوفيقية بين الدين والفلسفة اليونانية . التي قام بها الفارابي وابن رشد بصورة خاصة ، ومهما يكن حكمنا على النتائج التي انتهى إليها الفكر الفلسفي في الإسلام ، فإن جميع نواحي التأمل الفلسفي ظهرت عند المسلمين من التأمل الفلسفي الإيجابي إلى الصوفية الفرقة . ويمكن أن نذكر في هذا المجال أسماء كثيرة . كالفارابي الذي يعد تصنيف العلوم من أهم أعماله ، وابن سينا الذي قدّم تصنيفاً للعلوم كذلك ، وكان نداً في تفكيره وأثره لأفلاطون وأرسطو ، وابن رشد أكبر شارح لأرسطو والذي عن طريقه عرف هذا الفيلسوف اليوناني في أوروبا وكان له أثره على أعظم لاهوتي كاثوليكي : توما الأكويني وغيرهم كثير .

موقف الإسلام
من العلم وانفتاحه للحياة العلمية

كان لموقف الإسلام بالإشادة بالعقل والدعوة إلى التأمل والنظر والتفكير أثره الكبير في إغناء حياة العرب ، ومن ثم في دفع المسلمين إلى عوالم الكون ، يكشفون مجاهله ويتعرّفون على حقائقه ، ويقدمون حصيلة فكرهم وتجربتهم لخدمة الإنسان والوصول إلى حياة أفضل .

وقد حفلت آيات القرآن الكريم بالآيات التي تدعو إلى التفكير واستعمال العقل ، وتعدّدت الآيات التي تنتهي بكلمة : يتدبرون أو يتفكرون أو يعقلون ، وكانت الدعوة إلى النظر دعوة شاملة لا تقتصر على جانب من جوانب الكون أو ناحية من نواحي الحياة ، فكلّ ما خلق الله يمكن أن يكون موضوعاً للتأمل والتفكير المنظم ، ونؤكد على التفكير المنظم ، لأن التفكير العادي الذي يعتمد على الحس المجرد العفوي ، مع أنه مفيد في تأكيد تعرف الإنسان على مكانه في الكون خاصة ، إلاّ أنه لا يؤدي إلى معرفة حقائق هذا الكون على صورة يتوفر للإنسان عن طريقها إيمان أكثر عمقاً ، وتسخير للكائنات لمنفعة الإنسان ، وهو أمر مطلوب من المرء شرعاً أن يفعله .

ففي منطق الإسلام لا يستوي عالم وجاهل ، «قل هل يستوي الذين يعلمون

والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولو الألباب» [1] «وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات والنور» [2] ، فقد رفع الله الذين أوتوا العلم وقدّمهم على غيرهم «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» [3] ، ولعلّ السبب الرئيسي في ذلك أن الإيمان الحقيقي لا يكون إلاّ مع العلم «إنما يخشى الله من عباده العلماء» [4] .

ومن هنا كانت حملة القرآن شديدة على الذين لا يستعملون عقولهم ومداركهم وما وهب الله لهم من طاقات وقدرات ذهنية ، بل يعطلون عقولهم ، ضاربين في بيداء الضلال ، منقادين وراء سراب التقليد . فالذين لا يستفيدون من عقولهم أقرب إلى الحيوانات منهم إلى الإنسان « إن شر الدواب عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون »[5] . وهم أشبه بالذين حرموا حاسة البصر فلا يرون شيئاً « أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون » [6] . ولكن ماذا تفعل هذه الطاقات إذا قرروا إهدارها وإهمالها « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » [7] .

والذين يغمضون أبصارهم وبصائرهم ويسلمون قيادهم لغيرهم أو للتقاليد لا يرتقون كثيراً عن مستوى البهائم التي لا تعلم ماذا تفعل « وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون » [8] « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون .

---

١ – الزمر : ٩ .
٢ – فاطر : ١٩ و ٢٠ .
٣ – المجادلة : ١١ .
٤ – فاطر : ٢٨ .
٥ – الأنفال ٢٢ .
٦ – يونس : ٤٣ .
٧ – محمد : ٢٤ .
٨ – المائدة : ١٠٤ .

ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلاّ دعاء ونداء ، صم بكم عمي فهم لا يعقلون »[1] .

والاعتماد على الحجة والبرهان يجب أن يكون أساس كلّ دعوى أو نظرية وقالوا : لن يدخل الجنة الاّ من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيّهم ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[2] . « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون »[3] . « أمّن يبدأ الخلق ثمّ يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله ، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »[4] .

فالإسلام يريد من الناس أن يعتمدوا اليقين لا الظن طريقاً إلى المعرفة ، لأن الظن لا يغني شيئاً « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلاّ الظن وإن هم إلاّ يخرصون »[5] « وما يتبع أكثرهم إلاّ ظنّاً ، إن الظن لا يغني من الحق شيئاً »[6] « وقالوا ما هي إلاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر ، وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون »[7] .

والاعتماد على الهوى غير مجد كذلك ، لأن منطق الهوى لا يتفق مع العلم والحقيقة « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم »[8] « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم »[9] .

---

١ – البقرة : ١٧٠ – ١٧١ .
٢ – البقرة : ١١١ .
٣ – المؤمنون : ١١٧ .
٤ – النمل : ٦٤
٥ – الأنعام : ١١٦ .
٦ – يونس : ٣٦ .
٧ – الجاثية : ٢٤ .
٨ – الروم : ٢٩ .
٩ – الأنعام : ١١٩ .

أما طريق العلم الصحيح فقد حدّده الإسلام بالوحي فيما يتعلّق بالقضايا الأصلية والأساسية والاعتقادية في حياة الإنسان ، أما ما سوى ذلك فإن طريقه الحواس والتجربة والعقل الذي يزِن كلّ معطيات الحواس والفكر ليصل إلى الحق في المعرفة والصواب في الأحكام ، وقد عبّر القرآن الكريم عن هذا الطريق الثاني بأصدق تعبير وأسهله ، قال تعالى : « ولا تقْفُ ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد ، كلّ أولئك كان عنه مسؤولاً » [1] ، فالسمع والبصر يشيران إلى الحواس ومعطياته ، والفؤاد يشير إلى عمل العقل والتفهم والتأمل والوعي الصحيح .

ولم تكن السنة الكريمة بأقلّ إثارة للعقل الإنساني وإلحاحاً عليه للقيام بوظيفته وأداء مهمته ، فطلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، ومن سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة ، والعلماء ورثة الأنبياء ، ومن طلب العلم لله فهو كالصائم نهاره القائم ليله ، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها تواضعاً لطالب العلم . وأكثر من ذلك أنه « يوزن مداد العلماء ودم الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر » .

وعن أنس بن مالك قال : أثني على رجل عند رسول الله بخير ، فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يا رسول الله إن من عبادته ، إن من خلقته ، إن من فضله ، إن من أدبه ، فقال عليه السلام : كيف عقله ؟ قالوا : يا رسول الله نثني عليه بالعبادة وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسول الله : إن الأحمق العابد يصيب بجهله أعظم من فجور الفاجر ، وإنما يتقرب الناس من ربهم بالزلف على قدر عقولهم » .

أما الدعوة إلى النظر والتفكير فقد كانت شاملة واسعة سعة السموات والأرض وإليك بعض الآيات التي تشير إلى هذا المعنى :

---

١ – الإسراء : ٣٦ .

« إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون » [١] .

« وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كلّ الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ، يغشي الليل والنهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » [٢] .

« قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » [٣] .

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم انه الحق » [٤] .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه . انا صببنا الماء صباً . ثمّ شققنا الأرض شقّاً . فأنبتنا فيها حبّاً . وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلاً . وحدائق غلباً . وفاكهة وأبّا . متاعاً لكم ولأنعامكم » [٥] .

« ألم نجعل الأرض مهاداً . والجبال أوتاداً . وخلقناكم أزواجاً . وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . وبنينا فوقكم سبعاً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً . لنخرج به حبّاً ونباتاً . وجنات ألفافاً » [٦] .

---

١ – البقرة : ١٦٤ .
٢ – الرعد : ٣ – ٤ .
٣ – يونس : ١٠١ .
٤ – فصلت : ٥٣ .
٥ – عبس : ٢٤ وما بعدها .
٦ – النبأ : ٦ وما بعدها .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذي خلق الأزواج كلّها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون » [1] .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » [2] .

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » [3] .

• • •

إن هذه الدعوة إلى التفكير دعوة غير محدودة فكل معرفة صحيحة نافعة يتوجه إليها خطاب القرآن ، ومع ذلك فإن الإنسان مهما بلغ من العلم فإنه لن يصل إلاّ إلى القليل من مخلوقات الله في هذا الكون « وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلاً » [4] « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً » [5] .

وهنا قد يتساءل البعض عن العلاقة بين العقل والوحي ، وقد رفع البعض من شأن العقل حتى جعله مساوياً للوحي أو يزيد ، كما غض البعض من شأنه

---

١ – يس : ٣٣ – ٤٠ .
٢ – الغاشية : ١٧–٢٠
٣ – الحج : ٤٦ .
٤ – الإسراء : ٨٥ .
٥ – الكهف : ١٠٩ .

حتّى أنكروا عليه أن يصل إلى شيء من الحق . وكلا الرأيين لا يتفقان مع وجهة نظر الإسلام . فمن الخطأ الكبير أن نجعل العقل البشري نداً للوحي ، لأنه جهاز من أجهزة الكائن الإنساني يتلقى به الوحي ، وهو يدرك ما يدركه ويسلم بما هو فوق إدراكه ، وسبب ذلك كما يقول الأستاذ سيد قطب [1] : « انه والكينونة الإنسانية بجملتها غير كلي ولا مطلق ، ومحدود بحدود الزمان والمكان بينما البعض يتناول حقائق مطلقة في بعض الأحيان ، كحقيقة الألوهية وكيفية تعلّق الإرادة الأهلية بخلق الحوادث ، وليس على العقل السليم إلاّ التسليم بهذه الكليات المطلقة التي لا سبيل إلى إدراكها » .

فالوحي أوسع وأشمل . وهو الأصل في المعرفة ، والعقل يعود إليه ، وهو الميزان الذي يحتكم إليه العقل وخاصة فيما يتعلّق بجوهريات الحياة والوجود. ومن الخطر أن يقال بوجوب تأويل النص ليوافق مفهوم العقل ، لأن العقل مختلف عند الأفراد ومتطوّر حسب الأزمان والبيئات ، وما دام النص محكماً فالمدلول الصريح للنص من غير تأويل وهو الحكم الأول والأخير .

فقد يحصل أن يظن أن هناك تعارضاً بين الوحي ونظرية علمية أو حقيقية توصل إليها العلم ... إن المسلم يؤمن بما في القرآن إذا كان النص صريحاً لا يحتمل تأويلاً ولو تعارض هذا النص حتماً مع النظرية العلمية ، فالنظريات والحقائق التي يتوصل إليها العقل في تغير دائم وتطوّر مستمر ، ولا معنى للتقدّم العلمي في كثير من الأحيان إلاّ أنه ينقض ما كان يظهر أنه حقائق بحقائق أخرى جديدة ، أما ما جاء به الوحي فهو ثابت لا يتغير وبه نزن كل ما يأتينا عن طريق العقل والنظريات العلمية .

---

١ – خصائص التصور الإسلامي : ١٩ ، وأنظر لموضوع العقل ، كتاب مقام العقل عند العرب للأستاذ طوقان ، والتفكير فريضة إسلامية للأستاذ العقاد .

obeikandl.com

مِنْ أعلام الثقافة الإسلاميّة

خلفت الثقافة الاسلامية أعلاماً في كل ميدان من ميادين الفكر ، وكان لنا حظ تقديم بعض هؤلاء الأعلام من إذاعة المملكة العربية السعودية مع واحد من كتبهم الهامة، وقد رأينا أن نضم إلى هذا الكتاب تعريفاً موجزاً بهم، لا يغني القارىء الذي يريد التفصيل عن البحث والتنقيب ولكنه يعطي لمحات ويلقي الضوء على جوانب هامة من تفكيرهم .

obeikandl.com

- ١ -

شاعر الرسول : حسان بن ثابت
(٥٤ هـ.)

• وخير من نفتتح بهم المقال حسان بن ثابت شاعر الرسول عليه السلام ، وُلد سنة ثلاث وستين وخمسمائة ميلادية ، وهو حسان بن ثابت بن المنذر بن خزام بن زيد الخزرجي ، كان ابوه ثابت من سادة قومه وأشرافهم ، وكان جدّه الحاكم بين الأوس والخزرج في يوم « سميمة » ، حيث أهدر دماء قومه الخزرج ، واحتمل دماء الأوس ، فذكره حسان في قصيدته حيث يقول :

وأبي في سميمة القائلُ الفا
صلُ يوم التقت عليه الخصومُ

• وكان حسان من الشعراء المخضرمين الذين حضروا الجاهلية والإسلام ، وقد اتصل قبل إسلامه بملوك غسان بالشام ومدحهم وسجل ذلك في شعره فقال :

لله درّ عصابة نادمتهم
يوماً بجلّق في الزمان

ثمّ اتصل باللخميين بالحيرة ، ولكن أكثر صلته كانت بالغساسنة في الشام .

• أسلم شاعرنا على أرجح الأقوال مع السابقين من الخزرجيين الذين سمعوا من قومهم عقب عودتهم من بيعة العقبة الأولى ، فقد كان شاعرهم السبّاق إلى كلّ ما يسبقون إليه ، وإنما كان قعوده عن العقبتين لشيخوخة بدأت تدب في

جسمه عند رأس الستين أو لعلّة أصابته ، ومنذ شرح الله صدر شاعرنا للإسلام ، وهو شاعر العقيدة الذي يسجل أحداث المسلمين ، ويتغنى بغزوات الرسول ، ويرد على شعراء المشركين بجزالة وفحولة لم تفارق شعره ، كما لم تفارقه فخامته أو عذوبته .

* وكان لأول شعر قاله في الإسلام قصة ، ففي أعقاب بيعة العقبة الثانية ، خرجت قريش تطلب من بايعوا الرسول وهم في طريقهم إلى المدينة ، فلم يدركوا غير سعد بن عبادة والمنذر ابن عمرو ، فأما المنذر فقد أعجزهم ، وأما سعد فقد آذوه ولم يخلصه منهم غير قرشيين كان يجير لهما .

* وكان لهذا الحادث شهرة وذيوع لأنه فاتحة التقاء أهل المدينة بالإسلام في شعاب مكة مما دعا ضرار بن الخطاب شاعر مكة إلى ترديده في أوّل شعر قيل في الهجرة ، قال ضرار ولم يكن أسلم بعد :

تداركتُ سعداً عنوةً فأخذتُـــه
وكان شفاء لو تداركتُ منذراً
ولو نلتُه طُلّت هناك جراحُـــهُ
وكان حرياً أن يهـــان ويهدرا

وقد أجابه حسان بقصيدة كانت أوّل شعر له في الإسلام نجتزىء منها الأبيات التالية :

لستَ إلى سعدٍ ولا المرء منـــذر
إذا ما مطايا القوم أصبحن حُسّراً
ولولا أبو وهبٍ لمرّت قصائـــد
على شرف البرقاء يهوين حسّـــرا
فإنّا ومن يهوي القصائد نحونا
كمستبضع تمراً إلى أهـــلِ خيبرا
فلا تكُ كالوسنان يحلمُ أنّه
بقرية كسرى أو بقريـــة قيصرا

وحين أمر الرسول عليه السلام بالهجرة من مكة إلى المدينة فتوجه إليها مع صاحبه أبي بكر رضي الله عنه ، سجل شاعر الرسول هذا الحدث العظيم بقوله :

لقد خاب قومٌ غابَ عنهم نبيّهم
وقد سُرّ مَنْ يَسري إليهم ويغتدي

ترحّل عن قومٍ فضلّت عقولهم
وحلّ على قومٍ بنورٍ مجدّد

هداهم به بعد الضلالة ربّهم
وأرشدهم ، من يتبعِ الحقّ يرشد

وهل يَستوي ضلالُ قومٍ تَسَفّهوا
عميٌ وهداةٌ يهتدونَ بمُهتَدِ

لقد نزلت منه على أهلِ يَثْرِبٍ
ركابُ هُدىً حلّت عليهم بأسعد

نبيٌ يرى ما لا يرَى النّاس حَوْلَه
ويَتلو كتابَ الله في كلّ مَسجد

وإن قال في يومٍ مَقالةَ غائبٍ
فتصديقُها في اليومِ أو في ضُحى الغدِ

ليَهْنِ أبا بكرٍ سعادةَ جَدّه
بصُحبتِه ، مَنْ يُسعِدِ اللهُ يسعَدِ

* ويوم بدر وكانت أوّل وقعة كبرى بين المسلمين والمشركين أمر الرسول بجثث القتلى من المشركين فطرحت في القليب ثمّ وقف يناديهم : « بئسَ عشيرة النبيّ كنتم لنبيّكم ، كذبتموني وصدقني الناس ، وأخرجتموني وآواني الناس ، وقاتلتموني ونصرني الناس » ثمّ قال : « هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقّاً ، فإني وجدت ما وعدني ربي حقّاً » فقال له أصحابه : يا رسول الله ، أتكلّم قوماً موتى ؟ فقال لهم : لقد علموا أن ما وعدهم ربهم حقّ » .

• وقد هزّت حسان نشوة الظفر فأنشد أبياتاً قالها على الارتجال منها :

وخبّر بالــذي لا عيــبَ فيــه
بصــدقٍ غــير إخبــار الكــذوبِ
بمــا صنــع المليــك غداة بــدرٍ
لنــا في المشركين مــنَ النصيــبِ
غــداة كــأن جمعهــمُ حــراء
بــدّت أركانــه جنــح الغــروبِ
فــلاقيناهــمُ منّــا بجمــعٍ
كــأسدِ الغــاب مــردان وشيــب
أمــامَ محمّــدٍ قــد آزَروهُ
عــلى الأعــداء في لفــح الحروبِ
بــأيديهــم صــوارم مرهفــات
وكــلّ مجــرّبٍ خاظــي الكعــوبِ
يُنــاديهــم رسولُ اللهِ لمّــا
قذفناهــم كباكــب فــي القليــبِ
ألــم تجــدوا حديــثي كــان حقّاً
وأمــرُ الله يــأخــذ بالقلــوبِ
فما نَطَقوا ولــو نَطَقوا لَقالــوا
صدقــتَ وكنــتَ ذا رأيٍ مُصيــب

• وبعد غزوة أُحُد تشجّع شعراء المشركين للنكسة التي أصابت المسلمين وأكثروا بالفخر بنصر قومهم في زعمهم فردّ عليهم حسان وأبطل فخرهم وعلّل الابتلاء تعايلاً حسناً مدعماً بأسانين الفخر فكان مما قاله :

ولقــد نلــتم وانلنــا منكُــمُ
وكــذاك الحــربُ أحيــاناً دولْ

إذ شدّدنا شدّةً صادقةً
فاجأناكم إلى سفح الجبلْ
إذ تولّونَ على أعقابكم
هرَباً في الشعب أشباه الرّسَلْ
نضع الخطيّ في أكتافكم
حيثُ نهوَى علَلاً بعد نهَلْ
فسدّحنا في مَقامٍ واحدٍ
منكمُ سبعين غير المنتحَلْ

• وحين منع المشركون المسلمين من أداء العمرة سجل شاعر الإسلام هذا الموقف وتنبأ بفتح مكّة فقال :

عدِمنا خَيلَنا إن لم ترَوها
تُثيرُ النّقع موعدُها كداءُ
يبارين الأعنّة مُصعدات
على أُكتافها الأسل الظماءُ
تَظَلّ جيادنا متمطّراتٍ
تلطمهنّ بالخمُرُ النّساءُ
فإمّا تعرضوا عنّا اعتمرنا
وكان الفتح وانكشف الغطاءُ
وإلاّ فاصبروا لجِلادِ يَوْمٍ
يُعزّ الله فيهِ مَنْ يَشاءُ

• وقد حزن شاعر الرسول لوفاة الرسول فما فتىء يبكيه ، وأقلقته الفتنة الكبرى التي أودت بابن عفان رضي الله عنه ، وفقد بصره في آخر حياته وكان قد عمّر حتى وافاه الأجل سنة أربع وخمسين من هجرة الرسول وكان عمره مائة وعشرين عاماً ، رحمه الله وأجزل مثوبته مع العاملين الصادقين .

- ٢ -

امام الرأي : أبو حنيفة النعمان

هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي إمام من أئمة الفقه الإسلامي ، ورجل من رجاله العظام .

وُلد إمامنا الجليل بالكوفة سنة ٨٠ للهجرة من أبوين فارسيين على أرجح الأقوال ، وهذا من دلائل عظمة هذا الإسلام الذي استظلّت بظلّه الوارف شعوب الأرض جميعاً فعاملها على قدر واحد وسوّى بينها في كلّ شيء ، إلاّ بالتقوى ، حتّى كانت نسبة الإسلام مقدمة على كلّ نسبة أخرى ، فقد قال الرسول الكريم في هذا المعنى : « سلمان منا آل البيت » وخاطب القرآن نوحاً يصف ولداً له بالدم « إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح » .

• نشأ أبو حنيفة النعمان بالكوفة وعاش فيها أكثر حياته متعلماً ومعلّماً وتاجراً ، فقد احترف التجارة ولم يتركها طيلة حياته ، وكل ما في الأمر أنه كلما زاد انصرافه إلى العلم وانشغاله بالدراسة والتدريس كان يزداد اعتماداً على شريكه في تجارته .

• وكان في عمله التجاري مثال الاستقامة والنزاهة ، بائعاً كان أم مشترياً . من قصصه الذي يروى عنه في الشراء أن امرأة جاءته بثوب تريد أن تبيعه له بمائة درهم . فقال لها : هو خير من مائة فبكم تبيعين ؟ فزادت مائة مائة حتّى

قالت : أربعمائة ، قال : هو خير من ذلك ، قالت : تهزأ بي ؟ قال : هاتي رجلاً يقوّمه ، فجاءت برجل ، فاشتراه أبو حنيفة بخمسمائة .

• ومن قصصه في البيع أن صديقاً له جاءه يطلب ثوباً من خزّ على وصف معين ، فاستمهله أياماً ، فمرّ به الصديق بعدها فقال له : قد وقعت على حاجتك ، وأخرج له ثوباً غالي الثمن فقال : كم تريد ثمنه ؟ قال : درهماً ، قال : تهزأ بي ؟ قال : ما هزئت بك ، ولكني اشتريت ثوبين بعشرين ديناراً ودرهم ، وقد بعت الأول بعشرين ديناراً فبقي هذا بدرهم » .

• كانت الكوفة في عصر إمامنا الكبير ثاني مدن العراق ، ومركزاً ثقافياً هاماً . فهي موطن الثقافات القديمة : السريان وفلسفة اليونان ، والفرس وحكمتهم ، وعقائد النصرانية ورهبانها ، هذا بالإضافة إلى الشيعة والخوارج والمعتزلة وغيرها من الطوائف والفرق التي استجدت في العصر الإسلامي .

• وقد نشأ إمامنا في هذا الجو ، فجادل مع المتجادلين ، ونازل أصحاب الأهواء والملل والنحل ، ولعل هذه البيئة الجدلية هي التي فرضت عليه منهج الرأي في الفقه .

• وقبل ذلك نهل الإمام من جميع منابع الثقافة الإسلامية المعروفة آنذاك ، فحفظ القرآن ، وعرف قدراً كبيراً من الحديث . وقدراً مماثلاً من الأدب والنحو والشعر ، ثم انصرف إلى الفقه ، حتى أصبح أحد الأئمة الأربعة الذين يدين لهم المسلمون حتى الآن بالاحترام والتقدير .

• لزم حمّاد بن أبي سليمان الفقيه ، مدّة طويلة تقرُبُ من عشرين عاماً ، ولم يجلس للتدريس إلاّ بعد أن توفي هذا الشيخ الجليل سنة ١٢٠ من الهجرة . إلاّ أن صحبة إمامنا لشيخه حمّاد لم تمنعه من الاتصال بالعلماء الآخرين حتى قال : « تلقيت فقه عمر ، وفقه علي ، وفقه عبدالله بن مسعود ، وفقه ابن عباس عن أصحابهم » وكان كثير الرحلة إلى بيت الله الحرام حاجاً ، وفي مكة والمدينة التقى بالعديد من العلماء ، ومنهم كثيرون من التابعين فذاكرهم الفقه ودارسهم ما عندهم .

• أدرك أبو حنيفة دولتي بني أمية والعباس ، فقد عاش اثنين وخمسين سنة في العصر الأموي وثماني عشرة سنة في العصر العباسي ، وكان فيه ميل إلى العلويين لكنه لم يكن يظهر ذلك ، إلاّ أنه على ما يظهر انتقد موقف الخليفة المنصور من بعض العلويين ، فأراد أن يمتحن إخلاصه وولاءه لدولة العباسيين وفرض عليه المنصب الأوّل في القضاء للدولة العباسية كلّها ، لكن أبا حنيفة اعتذر عن قبول المنصب لأنه يرى القضاء عملاً خطيراً لا تقوى نفسه على احتماله ، ووجدها المنصور فرصة للنيل منه دون حرج أمام الناس ، وتعرض إمامنا بسبب ذلك لمحنة قاسية .

• وكان إمامنا الجليل يتصف بمجموعة من الصفات تجعله في المقام الأول بين العلماء : كان واثقاً من علمه ، مستقلاً في تفكيره ، حاضر البديهة ، متطلّعاً إلى معرفة الحقيقة ، عميق الفكرة ، بعيد الغور على المسائل ، لا يقف عند ظاهر العبارة وإنما يحاول التعرّف على مراميها البعيدة والقريبة . لا تحتبس فكرته ، ولا يُغلق عليه في نظر ، ولا يُفحم في جدال . ولعلّ هذه الصفات كلّها هي التي جعلت منه إمام المتجهين إلى الرأي بين فقهاء الإسلام .

توفي إمامنا سنة ١٥٠ للهجرة ، رضي الله عنه ، وأرضاه .

* * *

• أما الكتاب فهو « مستند الإمام أبي حنيفة » .

• وليس المسند من تأليف إمامنا بالمعنى الذي نفهمه اليوم من كلمة التأليف ، وإنما هو مجموعة من الأحاديث والآثار التي تسند إليه مرتبة على أبواب الفقه . وقد جمع عدد من أصحاب أبي حنيفة — وخاصة أبو يوسف ومحمد — طائفة كبيرة من هذه المرويات ، وأطلقوا عليها اسم الآثار .

• وقد أشار صاحب كشف الظنون إلى أن الذي روى المسند على شكله الحالي ، الحسن بن زياد اللؤلؤي ، وأن الذي رتبه على أبواب الفقه ، هو الشيخ قاسم بن قطلوبغا .

• وترجع أهمية هذا المسند إلى أن الشائع عند الكثيرين من الناس أن الإمام أبا حنيفة كان يعتمد على الرأي دون الحديث بينما يثبت هذا الكتاب أن حصيلة الإمام من الأحاديث طيبة ووافرة وأنه لا يعتمد على الرأي إلاّ حين لا يجد الحديث أو لا يصح عنده .

• ولئن كانت إضافة هذا المسند إلى أبي حنيفة ليست كإضافة الموطأ إلى الإمام مالك ، لأن مالكاً هو الذي دوّن موطأه ورواه عنه غيره مرتباً مدوّناً ، بينما ما ينسب إلى أبي حنيفة روايات جمعت عنه ورتبت بعد وفاته ، فإن ذلك لا يقلّل من أهمية المسند وجلالة قدره وعظيم الفائدة منه .

obeikandl.com

- ٣ -

صاحب الموطأ : الإمام مالك بن أنس
(٩٣ هـ - ١٧٩ هـ)

أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي الحميري ، إمام عظيم من أئمة الفقه الإسلامي ، وناقل أمين لحديث الرسول الكريم عليه السلام .

• وُلد إمامنا في « ذو المروة » من أعمال مدينة الرسول عليه السلام سنة ٩٣هـ ، وعاش في المدينة وتوفي فيها سنة ١٧٩هـ . إذ لم يعرف عنه رضي الله عنه أنه غادرها إلاّ إلى مكة في مواسم الحج ، ويعلّل المؤرّخون ذلك بسببين : أولهما أن الحجاز آنذاك والمدينة بوجه خاص ، كانت محل لقاء علماء المسلمين ومفكريهم ، يقصدونها للحج وزيارة مسجد رسول الله ، وثانيهما أن المدينة كانت ذات طابع خاص في الفقه الإسلامي يعرف باتجاه الحديث ، وكان الإمام مالك متشبعاً بهذا الاتجاه ، بل إنه كان يمثله خير تمثيل ، لذلك كان يلقب بفقيه أهل المدينة .

• وكعادة المتأدبين الدارسين في عصره ، استوعب الإمام مالك علوم اللغة ، ودرس القرآن ، وأقبل على سماع الحديث وروايته . وكان متبتلاً بالدراسة منقطعاً لها حتى انه كان يصرف يومه كلّه في التحصيل ، وقد حدث عن نفسه فقال : « كنت آتي ابن هرمز بكرة فما أخرج من بيته حتى الليل » .

• درس إمامنا العظيم على ربيعة ، الرأي ، أخذ عنه الفقه والحديث واستفاد

من عقله وتفكيره وأدبه أكثر مما يستفيد من علمه ، فقد كان معروفاً بنضج الرأي وسلامة التفكير .

* ثمّ انقطع إلى ابن هرمز أبي بكر عبدالله بن يزيد مدة طويلة تزيد على سبع سنوات ، فروى عنه الحديث ، وتعلم منه تقدير المسؤولية ، وعدم التهجم بالإجابة وكبح النفس عن العجب وحب الرئاسة إيثاراً للحقيقة ، كما أخذ عنه ميله إلى التلقي بالتوقف والنقل ، وكان يحدث عن أستاذه قوله : « ينبغي أن يورث العالم جلساءه العلم حتى يكون ذلك أصلاً فيهم » ، كما يروى أنه استفاد منه عدم الاندماج بالقياس واستخراج الأحكام .

* ومن أساتذته أيضاً ابن شهاب الزهري ، أعلم الحفاظ ، ومن فقهاء المدينة المعروفين الذين كانوا يمتازون بثقافة أدبية واسعة .

* كما أن إمامنا تلقى عن نافع بن سرجس الديلمي ، من أشهر رواة الحديث وأكثرهم تحرياً للدقة والضبط في إثبات قول الرسول .

* كان الإمام مالك ينقل العلم رواية ويدوّن ما يرويه ويفسره ، فهو راوية من ناحية ومجتهد من ناحية أخرى ، راوية للحديث النبوي الشريف وآراء من أخذ عنهم من المجتهدين وما رضي به علماء المدينة لأنفسهم مما أخذوه عن السلف الصالح . وهو مقيد نفسه بذلك كلّه لا يحيد عنه ، ولكنه مع ذلك مجتهد في اختيار الحديث ، ناقد مدقق ، يحتاط أشد الاحتياط في روايته ، حتى قال الإمام الشافعي : كان مالك إذا شك في الحديث خرجه كلّه .

* يحدّث ابن أبي أويس قال : سمعت مالكاً يقول : إن هذا العلم دين ، فانظروا عمن تأخذونه . لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله عند هذه الأساطين — وأشار إلى المسجد — فما اخذت عنهم شيئاً ، وان احدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أميناً ، إلاّ أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن .

* شهد إمامنا تحوّل الدولة الإسلامية من أموية إلى عباسية ، وعاصر الصراعات السياسية التي رافقت ذلك التحوّل ، فأبى أن يزج بنفسه في المعركة

القائمة فبقي متحفظاً ، وقد وصف بأنه كان أعظم الخلق مروءة وأكثرهم صمتاً ، قليل الكلام ، متحفظاً بلسانه من أشد الناس مداراة للناس .

• وقد اشتد الجدل العقائدي في زمنه ونشأت الفرق الكلامية ، إلا أن بيئة الحجاز لم تتأثر بذلك كثيراً ، واستطاعت المدينة أن تحافظ على تقاليدها التي ورثتها منذ عهد الرسول عليه السلام ، هذه التقاليد التي تتمثل في العزوف عن الجدل في الدين والالتزام بالحفظ والنقل ، لذا فقد بقي الناس يفضلون الأخذ برأي أهل المدينة .

• وقد وقف الإمام من هذه الفرق موقفاً شديداً ، ورفض أن يستدرج إلى معركة كلامية لا طائل تحتها إلاّ إهدار الطاقات العقلية التي أنعم الله بها على الإنسان ليصرفها في المفيد من التفكير . ومن الأمثلة على ذلك أنه عندما سئل عن استواء الله تعالى على العرش أجاب : الاستواء مفهوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة .

• وكان إذا ذكر عنده أصحاب الأهواء والجدل قال : قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : لقد سنّ رسول الله وولاة الأمر من بعده سنناً ، الأخذ بها اتباع لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوّة على دين الله ليس لأحد بعد هؤلاء تبديلها ولا النظر في شيء خالفها ، فمن اهتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها اتبع سبيل غير المؤمنين .

رحم الله إمامنا العظيم ورضي عنه وأرضاه .

* * *

• أما الكتاب فهو « كتاب الموطّأ » خير ثروة خلفها الإمام مالك لأجيال المسلمين .

• والكتاب يمثل منهج أهل المدينة في الفقه المعتمد على الحديث ، لذا فقد جاء مزيجاً من التفسير والحديث والفقه والتاريخ . وكان له تأثير كبير في حياة المسلمين ، ويعتبر أوّل تصنيف للحديث مرتب على أبواب الفقه .

• قال فيه الإمام الشافعي : ما ظهر على الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك . وقال القاضي أبو بكر بن العربي : الموطّأ هو الأصل الأوّل واللّباب ، وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا اللباب ، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي .

• ولعلّ السبب في المكانة العظيمة التي احتلها الموطأ ، دقة الإمام في إثباته لما أثبت من حديث الرسول وصرامة القواعد التي التزم بها لتحقيق ذلك . أما سنده فقد كان أصح الأسانيد ، إذ روي عن الإمام البخاري قوله : أصح الأسانيد : مالك عن نافع عن ابن عمر . وأما التزام صاحبه في إثباته ما أثبته فلعلك تدرك ذلك من حديث إمامنا عن طريقته في تأليف الكتاب وسبب تسميته بالموطّأ ، فقد قال : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة فكلهم واطأني عليه ، فسميته الموطّأ . وقد اعترف بصحة طريقته المتقدمون والمتأخرون ، فقال الجلال السيوطيّ : ما من مرسل في الموطّأ إلاّ وله عاضد أو عواضد » .

• لقي هذا الكتاب عناية كبيرة من المفكرين والعلماء ، واهتمّ به الناس اهتماماً شديداً حتى قال القاضي عياض : « لم يُعنَ بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطّأ ، لذا فقد كان من أكثر الكتب رواية وشرحاً وتعليقاً .

• ولعل من أطرف ما يذكر حول هذا الكتاب ، أنه كان من شروط تولي القضاء في الأندلس ، أن يكون المرشح لهذا المنصب حافظاً للقرآن الكريم ، وموطّأ الإمام مالك .

أيها القارىء الكريم : إنه كتاب يجب أن لا تخلو منه مكتبة أي مثقف مسلم .

- ٤ -

الامام القرشي : أبو عبد الله الشافعي
(١٥٠ - ٢٠٤ هـ)

الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي القرشي ، عملاق من عمالقة الفقه الإسلامي ، وواحد من كبار مفكري العالم وأحد الأئمة الاربعة بين فقهاء المسلمين .

* وُلد في غزة من فلسطين سنة ١٥٠ هجرية ، ونشأ في حجر أمه يتيماً فقيراً ، وحمل إلى مكة وهو ابن سنتين .

* بدأ تحصيله بدراسة اللغة والشعر وأيام العرب ، وتأدب بأدب البادية ، ثمّ أقبل على الفقه والحديث وأخذ بالقسط الأوفى من العلوم والمعارف حتّى سما عن كلّ عالم قبله .

* أفاده تمكنه باللغة العربية وآدابها إشراقاً ووضوحاً في العبارة ، فقد كان فصيح اللسان ، ناصع البيان ، في الذروة العليا من البلاغة ، حتّى قال عنه المبرّد « كان أشعر الناس وآدبهم وأعرفهم بالفقه والقراءات » .

* وكانت مؤلفاته كتب أدب ولغة وثقافة لا مجرد كتب فقه ، كما كانت مجالسه محبّبة إلى الناس لما فيها من شعر وأدب يتخلّلان فقهه ، حتّى كان رجال العربية يحضرونها ليسمعوا لغة الشافعي ، وقد قال أحدهم في ذلك : « طالت مجالستنا للشافعي فما سمعنا منه لحنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها » . وقد

اخذ عنه الأصمعي ، الراوية المشهور ، شعر الهُذليين وشعر الشنفري .

• أخذ فقه الكتاب والسنّة من الحجاز ، وحفظ موطأ الإمام مالك ، ثمّ سافر إلى المدينة فسمعه منه وأخذ فقهه . ثمّ رحل إلى العراق فأخذ عن أهل الرأي علمهم ورأيهم ، ونظر فيه وجادلهم وازداد بصراً بالفقه ونصراً للسنّة .

• وكان إمامنا ذكيّاً مفرطاً ، قويّ العارضة ، نيّر البصيرة ، مبدعاً في إقامة الحجة وإفحام المناظر ، اجتمع لديه علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث فتصرّف في ذلك حتى أصّل الأصول وقعّد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف ، واشتهر أمره .

• سمّاه أهل مكّة ناصر الحديث لأنه كان يُلزم أهل الرأي وجوب اتباع السنّة ، ويثبت لهم الحجة في خبر الواحد ، ويفصل للناس طرق فهم الكتاب ، ويدلّهم على الناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنّة ، وعلى الجمع بين ما ظاهره التعارض فيهما أو في أحدهما .

• كان الإمام أحمد بن حنبل بعد أن جلس إليه من المعجبين به حتى قال : « ما رأيت أحداً أفقه في كتاب الله من هذا الفتى » وقال : « لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث » كما ذكر عنه أنه قال : « ما أحد ممن بيده محبرة أو ورق إلاّ للشافعي في رقبته مِنّة » .

• وكان الشافعي يعترف للإمام ابن حنبل وأصحابه بالعلم بالحديث فقد روي عنه أنه قال للإمام : أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه » .

• وقد كتب الأستاذ أحمد شاكر في مقدمته لتحقيق « الرسالة » للشافعي ، : ولو جاز لعالم أن يقلّد عالماً كان أولى الناس عندي أن يقلد الشافعي . فإني أعتقد غير غال ولا مسرف أن هذا الرجل لم يظهر مثله في علماء الإسلام في فقه الكتاب والسنة وفنون النظر فيهما ودقة الاستنباط منهما .

• وضع الشافعي أساساً لمذهبه في الاجتهاد فقال : « الأصل قرآن وسنّة ، فإن لم يكن فقياس عليهما ، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد فهو سنّة ، والإجماع أكبر من الخبر المفرد ، والحديث على ظاهره ، وإذا احتمل معاني نما أشبه منها ظاهرة أولاها به ، وإذا تكافأت الأحاديث تأسحها سنداً أولاها ، وليس المنقطع شيئاً ما عدا منقطع ابن المسيب ، ولا يقاس أصل على أصل ، ولا يقال للأصل لِمَ وكيف ، وإنما يقال للفرع لِمَ ، فإذا صحّ قياسه على الأصل صح وقامت به الحجة » .

• خلف إمامنا الشافعي مذهباً ضخماً يحترمه المسلمون جميعاً ، وترك تصانيف كثيرة منها : الأم ، في سبعة مجلدات وفيه فقهه ، والمسند في الحديث ، وأحكام القرآن ، والسنن والسبق والرمي ، وفضائل قريش ، والمواريث ، والرسالة في أصول الفقه وهي موضوع حديثنا .

رضي الله عنه ، وأجزل له مثوبة الصديقين والصالحين .

• • •

• أما الكتاب فهو « الرسالة » لإمامنا الجليل .

• وقد يظن البعض أننا كنا سنتكلّم عن كتاب الأم ما دام الشافعي صاحب مذهب في الفقه ضمنه هذا الكتاب ، إلاّ أننا حين نتكلّم عن الشافعي في الرسالة فإننا نتحدّث عن مبدع علّم ، ومؤسس منهج فكري جديد . فقد كان أوّل عالم إسلامي يضع علم أصول الفقه ، ذاك العلم الذي يعدّه كثير من الباحثين المسلمين وغير المسلمين أكبر مظهر من مظاهر الأصالة في التفكير الإسلامي .

• وإذا كان البعض يأخذون على الفلسفة الإسلامية ورجالها ، كابن سينا والفارابي والكندي أنهم تأثروا بفلاسفة اليونان ونحوا نحوهم فلم يأتوا بشيء أصيل ، فإن الكل يجمعون على أن ما جاء به الشافعي في « الرسالة » لم يُسبق إليه من قبل .

* فقد كان العلماء قبل الإمام الشافعي يتكلّمون في مسائل الفقه ويستدلون ويعترضون ، إلاّ أنهم لم تكن لديهم قواعد كلية أو أصول عامة يرجعون إليها في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضاتها وترجيحاتها، فجاء الإمام الشافعي يستنبط علم الأصول، فيضع للعلماء قانوناً كلياً يرجعون إليه في معرفة مراتب أدلّة الشرع حتى كانت نسبة الشافعي إلى الشرع برأي الفخر الرازي كنسبة أرسطو إلى علوم العقل .

* شرح الشافعي في الرسالة ما يحتاج إليه المجتهد إزاء القرآن من معرفة بالعام والخاص والناسخ والمنسوخ ، وتكلّم في موقف المجتهد من الحديث وناسخه ومنسوخه وما كان منه من اختلاف وما قُبل فيه وما لا يُقبل ، ثمّ تكلّم في الاجماع وفي اتباع القياس والاجتهاد وحيث يجب وحيث لا يجب ، ومن له أن يقيس ومن ليس له .

* وفي مجال من يصح القياس منه ، بين الإمام أنه لا يصح أن يقيس إلاّ من حصل آلة القياس وهي : العلم بأحكام الله ، وحديث الرسول ، وأقوال السلف ، وإجماع الناس واختلافهم ، ولسان العرب . ولا بدّ كذلك أن يكون صحيح العقل نافذ البصيرة مفرقاً بين دقائق الأمور ، لا يعمل بالقول دون التثبت ، ولا يمتنع من الاستماع إلى من خالفه .

* إن أبواب الكتاب ومسائله التي عرض الشافعي للكلام فيها على حديث الواحد والحجة فيه ، وإلى شروط الحديث وعدالة الرواة وردّ الخبر المرسل والمنقطع إلى غير ذلك ، هذه المسائل أدق وأغنى ما كتب العلماء في أصول الحديث ، بل إن المتفقه في علوم الحديث يعلم أن كلّ ما كتب فيها إنما هو مرقوع عنه وعالة عليه .

* والكتاب بعد ذلك فتح في مناهج البحث والتفكير ، وقطعة من الأدب العربي خالد ، يقف في مصاف الكتب الفريدة في تاريخ الفكر الإنسانيّ .

- ٥ -

الرياضي المبدع : أبو عبد الله الخوارزمي
(٢٣٥ هـ.)

هو عالم الرياضيات المسلم الشهير أبو عبد الله محمد بن موسى الخُوارزمي .

* وهذا العالم الكبير مثل من الأمثلة الرائعة على الثمرات الناضجة التي أينعت في ظلّ هذه الثقافة الإسلامية المتفتحة على الكون ، الداعية إلى التأمل والتفكير ، المميزة في المراتب تمييزاً واضحاً بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

* نبغ أبو عبدالله في عصر المأمون العباسي في النصف الأول من القرن الثالث الهجري ، ونشأ في إقليم خوارزم وهو الآن من أعمال جمهوريات الاتحاد السوفييتي ، وكان من أعظم مراكز الثقافة الإسلامية ، وقد خرّج عدداً كبيراً من علماء المسلمين .

ثمّ انتقل إلى بغداد عاصمة الدولة والخلافة ، ومطمح أنظار العلماء والنابهين ، ولا يبعد أن يكون المأمون الذي كان يرعى في ذلك الحين حركة علمية واسعة — قد سمع بنبوغه وتقدمه ، فأرسل يستقدمه إلى بغداد ، فقد كان يعلم جيداً ما للعلم من أثر في الشعوب والجنس البشري .

وفي بغداد ارتفعت مكانته العلمية ، وتحققت فيه آمال المتأملين ، فقد ولاه الخليفة أحد المناصب الهامة في بيت الحكمة ، وأحاطه بالكثير من الرعاية والتكريم

والتقدير ، واستفاد منه في الصلات الثقافية التي عقدها مع البلاد الأخرى . فقد أوفده في عدد من البعثات العلمية إلى البلاد المجاورة ، وكان الهدف من هذه البعثات ، القيام بالتحقيقات العلمية والبحث والدرس وتحقيق الاتصال المباشر بعلماء تلك البلاد وزيارة مكتباتها ومراكز الثقافة فيها ، والحصول على أنفس الكتب والمخطوطات .

• ومن بغداد انتقلت شهرة عالمنا الكبير إلى سائر أرجاء العالم الإسلامي بل والعالم أجمع ، وقد أصبح معروفاً بإبداعه في علوم الرياضيات ، وبالإضافات الكثيرة التي أضافها إليها من اختراعه وتفكيره .

• وإلى هذا العالم يُنسب « علمُ الجَبْر » ، فقد ذكر ابن خلدون في مقدمته قوله : « وأول من كتب في الجبر ، أبو عبدالله الخوارزمي » . والحقيقة أن عالمنا أبدع خاصة في هذا العلم ، فقد فصله أولاً عن علم الحساب ، ثمّ ألّف فيه تأليفاً مبتكراً وبوّب مسائله تبويباً علمياً جديداً .

• وقد اعتمد العلماء في الشرق والغرب على كتاب الجبر كلّ الاعتماد ، واتخذوه مرجعاً لهم في بحوثهم الرياضية ، وظلّ هذا الكتاب مع كتاب الحساب . الأساس لكل ما ألف في أوروبا أو درس في مدارسها العالية أو جامعاتها طيلة قرون .

• خلف عالمنا النابه مؤلفات عديدة من أهمها : الجبر والمقابلة . الحساب . كتاب هيئة الأرض ، تقويم البلدان ، كتاب في الهندسة والفلك .

أجزل الله لعالمنا ثواب العاملين .

• • •

• أما الكتاب فهو « الجبر والمقابلة » ، وهو من مؤلفات الخوارزمي وأكثرها تأثيراً في الفكر الرياضي ، وقد كان الأصل في شهرته وذيوع صيته في الأقطار .

• وقد قدم عالمنا بين يدي كتابه عرضاً لطيفاً بدأه بحمد الله والصلاة والسلام

على نبيّه ، ثمّ أشار إلى الأسباب التي تحمل العلماء في مختلف العصور على تأليف الكتب فرأى أنهم يفعلون ذلك إما بقصد نفع الناس وإفادتهم أو رجاء الثواب وحسن الذكر .

• ثم قسم العلماء ثلاثة أقسام : فمنهم المخترع المبتكر لما لم يسبق إليه ، ومنهم الذي يتناول آراء العلماء قبله بالشرح والتفصيل والتوضيح ، ومنهم الذي لم يكلف نفسه أكثر من جمع المتفرق من غير أن يعرض للمسائل بالدراسة والتمحيص .

• أما عن غرضه من وضع كتابه فقد بيّن أنه كان بأمر من الخليفة المأمون الذي طلب إليه أن يؤلّف مختصراً لكتاب له كبير ، كي يسهل الانتفاع به في كل ما يحتاج إليه الناس في حساباتهم وتقديراتهم ، وحتى يساعد على قضاء مصالحهم الحيوية .

• ونحن لا نريد أن ندخل في شرح مسائل هذا الكتاب ، فهو للمختصين من الباحثين في علوم الرياضيات ، إلاّ أننا نريد أن نلفت النظر إلى واجب الهيئات العلمية والمختصين في البلاد الإسلامية في إخراج الكتب العلمية الإسلامية التي تزخر بها مكتبتنا إلى النور ، لأن في ذلك تحقيقاً لهدف علمي ، ألا وهو ربط حلقات تاريخ العلم بعضها ببعض ، فالذين يكتبون تاريخ العلم من الغربيين يقفزون هذه الفترة الهامة من حياة الإنسانية ، حتى ليظن الباحث أن العالم كان يعيش طيلة هذه القرون في فراغ هائل ، مع أنه كان ينعم بأعظم نهضة علمية شاهدها التاريخ .

• والكتاب أيها القارىء الكريم مطبوع ولا تستغني عنه مكتبة المثقف المسلم صاحب الهواية أو الاختصاص .

- ٦ -

ناصر السنّة : أحمد بن حنبل
(٢٤١ هـ)

هو إمام الأئمة ناصر السنّة وقامع البدعة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل .

• وُلد إمامنا المجاهد سنة ١٦٤هـ وتوفي سنة ٢٤١هـ عن عمر ناهز السابعة والسبعين ، قضاها في طاعة الله وخدمة السنة والجهاد في سبيل الإسلام ، فضرب في حياته المثل لأصحاب الدعوات في الثبات على دعوتهم والتمسك بالحق الذي يعتقدون .

• بدأ دراسة الحديث وهو ابن ست عشرة سنة ، وساعده على ذلك ذاكرة عجيبة وهبه الله إياها ، وصبر غريب على تتبع الحديث في منابعه وأصوله ، وجلد قوي على تحمل مشاق السفر ليسمعه من أصحابه .

• سافر في سبيل هذا الغرض إلى الكوفة والبصرة ومكّة والمدينة واليمن والشام والثغور والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف ، وكان ينتقل إلى البلد بينه وبينها مسيرة شهر ليتلقى حديثاً أو حديثين ، وهذا أغرب ما يروى في تحري الحق والرغبة في تحقيق الحديث . فقد ذهب إلى اليمن مرّة ليسمع حديثين فقط من إبراهيم بن عقيل ، وذهب إليها مرّة أخرى ليسمع من محدث آخر كان بإمكانه أن يستمع إليه في موسم الحج ولكنه أبى أن يفعل ذلك ،

واسمع إلى القصة كما أثبتها ابن الجوزي في « مناقب الإمام » .

* فقد أخبر الإمام أحد أصدقائه وهو يحيى بن معين ، بعزمه على الخروج إلى مكة للحج ثم الذهاب إلى صنعاء للسماع من عبد الرزاق المحدث المعروف . وقد علم يحيى أن الشيخ عبد الرزاق في مكّة للحج فاجتمع به وأخذ للإمام موعداً معه ثم جاء إلى الإمام فأخبره ، واسمع إلى المحاورة التي دارت بينهما : قال الإمام ليحيى ، لم أخذت على الشيخ موعداً ؟ قال : لنسمع منه . قد أربحك الله مسيرة شهر ورجوع شهر والنفقة . فقال الإمام : ما كان الله يراني وقد نويت نية لي ، أفسدها بما تقول ، نمضي فنسمع منه . فمضى حتّى سمع منه بصنعاء .

* وقد كان إمامنا يعتبر نفسه مرابطاً لطلب العلم في كلّ لحظة ، فقد شاهده أحد أصدقائه ومعه محبرة كطالبي العلم يستعد بها للتسجيل والكتابة فقال : يا أبا عبدالله ، أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين فقال : « مع المحبرة إلى المقبرة » وقال له أحدهم : إلى متى تعدو يا أبا عبدالله مع هؤلاء الطلاب ، قال : إلى الموت .

* وكان رضي الله عنه مهاباً فقيهاً ورعاً مخلصاً يقوم بالعمل الصالح ويستره عن الناس ، زاهداً لا يتحدث في أمور الدنيا ، رقيق الحال ولكنه عفيف النفس كريم اليد . قال الشافعي : ما خلفت ببغداد أفقه ولا أورع ولا أعلم من أحمد . وحدث أبو بكر المروزي قال : كنت مع أبي عبد الله نحواً من أربعة أشهر بالعسكر لا يدع قيام الليل وقراءات النهار ، فما علمت بختمة ختمها ، وكان يسر ذلك . وحدث أبو عصمة بن عصام البيهقي قال : بت ليلة عند أحمد بن حنبل فجاء بالماء فوضعه ، فلما أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان فقال : سبحان الله ، رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد من الليل » .

* على أن أهمّ ما يميّز شخصية الإمام ابن حنبل ويعطيه وصفه الخاص في التاريخ الإسلامي أوّلاً ، وفي تاريخ العقائد والأفكار عامة ، أنه إنسان اعتقد عقيدة ، وآمن بها إيماناً راسخاً ، فلما وضعت مغريات الدنيا كلّها لم تستطع تحويله عن عقيدته ، وعندما سلّط عليه عنف الدولة كلّها بجبروتها وشرطتها

وسجونها وسجّانها وأدوات تعذيبها، لم تستطع أن تحوله عن عقيدته أيضاً . فأصبح الإمام ابن حنبل مثالاً علماً على أصحاب الدعوات وقدوة يحتذى عند أهل الحق . انه الإمام الممتحن .

* وقصة ذلك ، أن الدولة شاءت في عصر المأمون أن تضع ثقلها إلى جانب عقيدة معينة هي عقيدة الاعتزال وأن تنادي بفكرة خلق القرآن . وخلافاً لما يدعيه المعتزلة من مبادىء حرية التفكير فقد أثروا على المأمون ، وهو الخليفة الذي كان يرعى نهضة علمية واسعة ، فجعلوه يتشبث بإلزام علماء الدولة القول بخلق القرآن . وقد اضطر معظم العلماء نتيجة للضغط الشديد أن يسايروا الدولة في قولها وتحايلوا على ذلك بوسائل متعدّدة .

* لكن إمامنا العظيم رفض الرضوخ لجبروت السلطة وسلطانها ، ومع أنه سجن وعذب عذاباً شديداً ، إلاّ أنه لم يلن ولم يتراجع قيد أنملة عما يعتقد أنه الحق ، وتضاءلت الدولة كلها أمام عظمة هذا الإنسان .

* وكان من نتيجة هذا الموقف أن المعتزلة اندثروا وعفّى على أفكارهم الزمن ، بعد أن زالت السلطة من يدهم ، فكان المسلمون في رد فعل عنيف ضد آرائهم واتجاهاتهم ، أما أحمد ابن حنبل ، فقد زاد مهابة في قلوب الناس ، حتى انه عندما توفي خرجت بغداد عن بكرة أبيها تودعه الوداع الأخير ، وقد حدّث أبو الحسن التميمي عن أبيه عن جدّه أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل ، فمكث طول الأسبوع رجاء أن يصل إلى قبره فلم يصل إليه من ازدحام الناس عليه .

* وهكذا أثبت موقف الإمام الممتحن العظيم ، أن السلطة مهما بذلت فإنها لا تستطيع أن تنشر فكرة أو تقيل فكرة، وأن الأفكار الحقّة مهما وضعت أمامها من عراقيل فإنها لا بد منتصرة في النهاية .

* * *

وبعد أيها القارىء الكريم ، كان في جعبتنا كلام عن مسند الإمام أحمد بن حنبل ككتاب أوّل لإمامنا الجليل ، إلاّ أن شخصية الرجل الحية صرفتنا عن كتابه ، ونرجو أن نعود إلى الحديث عنه في عدد آخر .

رضي الله عنه ، وجزاه الله عنا خير الجزاء .

- ٧ -

فيلسوف العرب : ابن اسحق الكندي
(٢٥٢ ـ ٥)

• فيلسوف العرب وحكيم الاسلام ، أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي .

• ولد في أواخر القرن الثاني للهجرة ــ أوائل القرن التاسع الميلادي ، وهو من آل كندة ، الأسرة القحطانية العريقة التي حكمت اليمن مدة من الزمن ، وكان والده اسحق والياً على الكوفة في عهد الخليفة العباسي المهديّ .

• فهو سليل مُلْك ، وربيب مجد ، ووريث تقاليد جرت في أصلاب الأسرة جيلاً بعد جيل ، وكان بعد وفاة والده يعيش في رَغَد من الحياة ، وينعم بجميع أسباب الترف والرفاهية ، لكن ذلك لم يُغرِه بترك التحصيل والانصراف عن الطلب ، فقد عقد حكيمنا الشاب العزم على أن يسلك سبيل المعرفة ، وصمّم أن يصل الى مرتبة الحكمة ، وكان له ما أراد .

• حفظ القرآن ، ودرس الحديث والفقه ، واختزن في ذاكرته الكثير من أشعار العرب ، وأحاط بأسرار البلاغة ومواطن الفصاحة في اللغة العربية ، ثم انصرف إلى دراسة التوحيد والكلام . وآثر بعد ذلك أن يتجه إلى الحكمة والطب ، فأحاط بجميع فروعهما وتتبع علوم اليونان وفنونها يقرأ ويترجم ويلخص ويفسر ، ثم وجه اهتماماً خاصاً للرياضيات ، فدرس اقليدس صاحب الهندسة ، وبطليموس صاحب المجسطي أشهر كتاب في علم الفلك آنذاك .

• وقد هيأت له معرفته الواسعة أن يرتفع إلى منزلة كبيرة في خلافة المأمون والمعتصم وابنه أحمد ، وكان مؤدباً لهذا الأخير ، وقد وجه عدداً من رسائله وبحوثه إلى هؤلاء الثلاثة ، وكانت هذه عادة سار عليها المفكرون والكتاب في ذلك العصر .

• وكان لتنوع معرفته وضخامتها أثر كبير في غزارة مؤلفاته وكثرتها وتعدد أبوابها ، فقد أورد له ابن النديم صاحب الفهرست ٢٤١ كتاباً موزعة على ١٧ نوعاً ، ومن المؤسف أن معظم هذه المؤلفات تناولتها يد الضياع فلم تبق الا على بضعة وخمسين كتاباً طبع منها أربعون ولا يزال الباقي محظوظاً .

• ويعد تصنيف العلوم من أبرز ما ساهم به حكيمنا ، فقد كان أول مفكر مسلم يخرج على التصنيف اليوناني التقليدي ، إذ وضع لمفكري الإسلام تخطيطاً عاماً جديداً تصنف العلوم على أساسه ، وقسمها إلى قسمين أساسيّين : علوم فلسفية ، وأخرى دينية فتشمل الأولى الرياضيات والمنطق والطبيعيات والميتافيزيقا والأخلاق والسياسة ، بينما تحتوي الثانية على أصول الدين والعقائد والتوحيد والردّ على المبتدعة والمخالفين ، وكان هذا التصنيف اساساً حذا حذوه من أتى بعد الكندي من المسلمين كالفارابي والخوارزمي وابن سينا مع شيء من التعديل .

• وكان الكندي مسجلاً للحضارة الإسلامية التي عاش في ظلها إبّان القرنين الثاني والثالث من هجرة الرسول عليه السلام ، كما كان راسماً طريق هذه الحضارة في مستقبلها لعدة قرون ، فقد سجل حركة الترجمة التي نقلت تراث اليونان الى جانب ما كان موجوداً عند الفرس والهند ، بل إنه شارك في هذه الترجمات مشاركة فعالة بالمراجعة والاصلاح وبالتلخيص والاقتباس ، وبذلك حدّد الطريق أمام الكثيرين ممن أرادوا أن يسلكوا هذا السبيل وهذا ما قصدناه من مساهمة في رسم المستقبل الفكري ، بالاضافة إلى ما أضافه للعلوم اليونانية ، وخاصة في الرياضيات واعتماد المنهج التجريبي الذي كان من الأصول التي قررتها الثقافة الاسلامية للوصول إلى المعرفة .

• لكن الكندي لم يسلم من الكيد والمؤامرات فهو مشهور معروف والمشهور محسود على الأغلب ، وقد تحمل بسبب هذه الشهرة الكثير من الأذى والعنت ، على أن أشدّ ما لقيه أن حسّاده وصفوه بالبخل وانجرف الجاحظ الأديب الكبير في هذا الطريق فرسم له صورة كاريكاتورية في كتاب البخلاء أصبحت مضرب الأمثال ، حقاً لا بد أن الكندي كان بخيلاً إلى حدّ ما ، غير أنه لم يبلغ من التقتير والشح هذا المبلغ الذي يصفه الجاحظ ، ولا ينبغي أن نحمل روايتنا على محمل الواقع ، لأن الغرض الذي يبغيه هو الفكاهة والفكاهة تعتمد على التهويل والتجسيم .

اختلف الباحثون في سنة وفاته وأرجح الأقوال أنه توفي في أواخر سنة ٢٥٢ هجرية في السنة التي قتل فيها الخليفة العباسي المستعين بالله أثر الفتنة المشهورة رحمه الله ، وغفر له ، وأرضاه .

- ٨ -

امام الأئمة : أبو عبد الله البخاري
(٢٥٦ هـ)

هو أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، أجل الكتب وأفضلها بعد كتاب الله .

• وُلد أبوعبد الله سنةأربع وتسعين ومائة من هجرة الرسول عليه السلام في بخارى من بلاد وراء النهر ، تلك البلاد التي خرج منها عدد من علماء المسلمين في شتى ضروب الفكر الإسلامي .

• وقد ظهر المسلمون أمام بخارى لأوّل مرة سنة أربع وخمسين هجرية ، ثمّ توطدت أقدامهم فيها نهائياً سنة إحدى وتسعين على يدي الفاتح العظيم قتيبة بن مسلم ، ومنذ ذلك الحين وهي بلد إسلامية ، حتى وقعت تحت حكم روسيا في القرن الرابع عشر (العشرين ميلادي) . وهي الآن من بلاد تركستان .

• نشأ إمامنا العظيم يتيماً رقيق الحال في أسرة متواضعة ، وكان نحيف الجسم لا بالطويل ولا بالقصير ، ميّزه الله بحافظة عجيبة كانت مضرب الأمثال ، وهي التي ساعدته على الاتجاه الذي سلكه ، وهو حفظ الحديث وروايته وتدوينه .

• ويروى أنه كان وهو في الحادية عشرة من عمره يصحح لمشايخه من ذاكرته ، ومن حافظته أن زملاءه في الطلب كانوا يصححون ما يكتبونه على ما يحفظه ، وكان العلماء كثيراً ما يجرون له اختباراً في الحفظ دون أن يعلم ، فكان يجتاز

الامتحان بكل براعة ، مثيراً دهشة الناس وإعجابهم .

* كان أوّل سماعه سنة خمس ومئتين من الهجرة ، وانتقل من أجل ذلك إلى معظم حواضر العالم الإسلامي ومراكز الثقافة آنذاك ، فكان من البلاد التي زارها : بغداد ودمشق ومكة وواسط ومصر والكوفة والبصرةوحمص وبلخ ومرو ونيسابور والسرّيّ وقيسارية وعسقلان ، وكانت المرة الأولى التي تتوسع فيها حلقة سماع الحديث على هذه الصورة .

* في هذه الرحلة الطويلة الواسعة ، سمع البخاري عن عدد ينوف على ألف من علماء الحديث وذكر هو نفسه ذلك فقال : « كتبت عن ألف وثمانين شخصاً ليس فيهم إلاّ صاحب حديث » .

* وجلس للحديث وهو شاب ما بوجهه شعرة ، فحدث بالحجاز والعراق وخراسان وما وراء النهر . وكان العلماء يثنون على حفظه وجمعه ، فقد قال عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي : قد رأيت العلماء بالحرمين والحجاز والشام والعراق ، فما رأيت منهم أجمع من محمد بن إسماعيل ، وقال : هو أعلمنا وأفقهنا وأكثرنا طلباً .

* أما إمام الأئمة أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة فكان: يقول ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل . وسجل عنه الترمذي قوله : لم أرَ أعلم بالعلل والأسانيد من محمد بن إسماعيل البخاري . وقال له مسلم صاحب الصحيح : أشهد أن ليس في الدنيا مثلك .

* وكان مع كل ذلك غاية في الخجل والحياء ، مقداماً شجاعاً ورعاً زاهداً في الدنيا ، قليل الكلام مفرطاً في الكرم ، كما كان معتزاً بالعلم الذي ينتسب إليه .

* فقد حدّثوا أنه عندما عاد إلى بخارى بعد رحلته الطويلة استقبله أهلها استقبال الفاتحين فلم يغتر بذلك ، ولما طلب إليه أمير البلد أن يقرأ له الحديث

في مجلسه الخاص رفض ذلك وطلب إليه أن يحضر درسه مع الناس في المسجد إذا شاء ، فوجد الأمير عليه من ذلك ، وسعى في إخراجه من بخارى ففضل الخروج ، على الاستجابة إلى ما يعتقد أنه إهانة للعلم الذي يحمله .

* على أثر تلك الحادثة طلبه أهل سمرقند ليكون ضيفاً على مدينتهم فتوفي في الطريق إليها سنة ست وخمسين ومئتين هجرية .

رضي الله عنه وأسكنه فسيح الجنان .

* * *

* أما الكتاب : فهو « الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ أوثق كتب السنة الصحاح مصدراً وأثبتها سنداً ، وقد اعتاد علماء الحديث أن يوثقوا ستة من كتب السنة هي : صحيح مسلم ، وسنن أبي داود وسنن الترمذي ، وسنن ابن ماجه ، وسنن النسائي مع صحيح البخاري ، وجرى بعضهم على إضافة مسند الإمام أحمد بن حنبل إلى هذه الستة ، وقد اتفقوا جميعاً على أن صحيحي البخاري ومسلم أولها مرتبة وفضل معظمهم صحيح البخاري على صحيح مسلم .

* وهو أوّل كتاب في الحديث يوضع على أساس منهجي بالنسبة لرواته ، فقد سمع البخاري كما علمنا ، من أكثر من ألف من المحدثين ، وبلغت الأحاديث التي سمعها في بعض الروايات ستمائة ألف ، إلاّ أنه لم يثبت منها إلاّ سبعة آلاف ومئتين وسبعة وتسعين حديثاً فيها مكررات وموقوفة ، فإذا حُذف المكرر واقتُصر على الأحاديث الموصولة السند لم تزد أحاديثه على ألفين وسبعمائة واثنين وستين حديثاً .

* وقد حرص إمامنا على أن لا يثبت في صحيحه إلاّ الحديث المتفق على ثقة اتصاله بالصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات في الإثبات ، وأن لا يثبت إلاّ ما كان إسناده متصلاً غير مقطوع (إلاّ نادراً) ، على أن يكون كلّ من رواته مسلماً صادقاً غير مدلّس ولا مختلط ، عدلاً ضابطاً سليم الذهن

قليل الوهم سليم الاعتقاد ... وكانت شروط البخاري أقسى شروط وضعت في قبول الحديث.

* ولما كان إمامنا فقيهاً فقد أثر هذا في ترتيبه للكتاب ، فقد قسم على أبواب الفقه ، فبدأ بالوحي وثنى بالإيمان والعلوم والطهارة والصلاة والزكاة ، ثمّ الصوم والحج ، ثم البيوع والرافعات والشهادات والصلح والوصية والوقف والجهاد، ثمّ أبواب أخرى في فضائل الصحابة والسيرة والتفسير ، ثمّ عاد إلى الفقه ، ثمّ إلى أصول الفقه والتوحيد ، وقد بلغت عدّة كتب الجامع الصحيح سبعة وتسعين ، وبلغت عدّة أبوابه ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسين .

* وبما أن الحديث الواحد قد يدلّ على معان متعدّدة فقد اضطر البخاري إلى تقطيع الأحاديث وتكرارها في الأبواب استشهاداً بالحديث في كلّ موضع يستدل به فيه .

* كان هذا الكتاب أساساً لدراسات كثيرة قامت عليه شرحاً وتعليقاً وتفصيلاً وقد اعتبر علماء الحديث عمله رائداً في هذا الميدان، ومن أهم الدراسات التي أنشئت حوله : فتح الباري لابن حجر العسقلاني ، وإرشاد الساري للقسطلاني.

* قال الحاكم أبو أحمد موضحاً أهمية هذا الكتاب لمن جاء بعده : « وكلّ من عمل بعده فإنما أخذه من كتابه » . وقال ابو الحسن الدارقطني الحافظ : « لولا البخاري لما راح مسلم ولا جاء » .

- ٩ -

الأديب المحدث : ابن قتيبة
(٢٧٦ هـ)

عالم غزير العلم واسع المعرفة متوقد الذهن منسق الفكر هو «أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري»

* ولد على أرجح الأقوال في الكوفة سنة ثلاث عشرة ومئتين من هجرة الرسول عليه السلام ، من أصل فارسيّ ، قضى معظم حياته في بغداد فأخذ عن علمائها علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب والأخبار ، وأمضى شطراً من حياته في بلدة الدينور من بلاد الجبل حيث ولي القضاء فيها ، وألّف كثيراً من كتبه لذلك فقد نسب اليها .

* وكان عالمنا طاهر النفس عميق الايمان مستقيم الجادة ليّن العريكة متواضعاً ، لا يأنف أن يأخذ العلم من أيّ كان لأن الحكمة ضالة المؤمن ، وقّافاً عند الحق لا يستنكف أن يرجع عن الرأي إذا تبدّى له الحق في غيره ، يكره الخصومة واللّدد ترفعاً عن أن ينزلق إلى مهاوي الشطط والشتيمة والسباب .

* رسم لنا قواعد السلوك وأدب الحديث فقال : «ولا ترى غبناً أن يتكلم الناس وأنت ممسك ، فإذا رأيت حالاً تشاكل ما حضر لها من القول أحضرته أو فرصة تخاف فوتها انتهزتها . وكان يقال : انتهزوا فرص القول ، فإن للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب» .

• وقد تلقى ابن قتيبة العلم عن عدد من العلماء ذوي الاختصاصات المتنوعة لذا كان متنوع الثقافة غزيرها ، من هؤلاء أبو الفضل الرياشي عالم النحو واللغة ، وعبد الرحمن الأصمعي الذي كان حجة في الرواية وحفظ اللغة والأشعار ، وابراهيم بن سفيان الزيادي النحوي اللغوي ، وأبو حاتم السجستاني امام النحو واللغة والعروض والقراءات في عصره ، واسحاق بن راهويه المروزي النيسابوري المحدث أحد أصحاب الإمام أحمد بن حنبل ، وقد أثر عليه هذا الأخير خاصة ، وإنك لتلمس ذلك في اتجاهات ابن قتيبة وكتاباته .

• وكان عالمنا مثالاً للرجل المثقف الذي يمثل ثقافة عصره ، فقد تناولت مصنفاته جميع معارف عصره ، فله مؤلفات في الأدب والنحو واللغة والتاريخ والفلك ، وله مصنفات في القراءات ، وله كتابات في الحديث والفقه ، وله مشاركة في التاريخ وغيره من العلوم والفنون .

• وكان الجميع متفقين على وصفه بسعة الثقافة وغزارة المادة ، كما كان مشتهراً بعقليته المنظمة وفكره المنسق ، قال عنه السيوطي : «كان رأساً في العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ووصفه القفطي بقوله «هو صاحب التصانيف الحسان في فنون العلم ، ثقةٌ ديّنٌ فاضل ، صادق فيما يرويه ، كثير التصنيف والتأليف »

• وكان ابن قتيبة الى جانب ذلك كله داعية كبيراً للاسلام ، حمل لواء الدفاع عن الاتجاه الإسلاميّ الصحيح ، ووقف يصدّ عنه سهام المتكلمين والفلاسفة وغيرهم ممن كانوا يعتبرون في نظره خطراً على العقيدة ، فكان سياجاً منيعاً يحمي الدين من ضلال العقول التي ظنت أن حرية الفكر تعني التخلي عن جميع مقومات الشخصية الأصيلة في الأمة .

• هذا ولا بدّ من أن نذكّر ونحن نتحدث عن هذا العالم الجليل بخطأ كبير وقع فيه عدد من الكتاب قديماً وحاضراً وهو أنهم نسبوا من جملة ما نسبوا له من تصانيف كتاب الامامة والسياسة وفيه أغاليط كثيرة وبعد عن جادة الحق والصواب ، وقد اثبت التحقيق العلمي بما لا يدع مجالاً للشك أن نسبة هذا الكتاب اليه كان

خطأ شنيعاً لا يجوز الوقوع فيه ويجب أن ينبه إليه ويشار الى خطره .

• خلّف ابن قتيبة الدينوري عدداً من المؤلفات من أهمها : الأنواء ، المعاني الكبير ، شكل القرآن ، غريب القرآن ، تأويل مختلف الحديث ، فضل العرب ، الشعر والشعراء ، عيون الأخبار ، المعارف ، الرّد على الجهمية والمشبهة .

• توفي رحمه الله سنة ست وسبعين ومئتين هجرية بعد حياة حافلة بالتأليف والدفاع عن العربية والاسلام .

* * *

أما الكتاب ، فهو عيون الأخبار الذي يعدّ من أشهر مؤلفات ابن قتيبة ، فهو يقدم للقارىء مادة طيبة تصقل ذهنه وتؤدب نفسه وتزيد من معرفته ، وضعه مؤلفه الكبير ليستفيد منه الخاصة والعامة على السواء .

• والكتاب مقسم إلى أربعة مجلدات كبار ، اختص المجلد الأول بالحديث عن السلطان والحرب والمفاخر والسؤدد ، وعرض المجلد الثاني للطبائع والأخلاق والعلم والبيان وأورد مجموعة من الخطب الشهيرة في التاريخ الإسلامي وعرّج بعدها على الزهد والزهاد والمواعظ المؤثرة المعروفة ، أما المجلد الثالث فقد تناول موضوعات الاخوان والعلاقات التي تقوم فيما بينهم وبعض الآداب الاجتماعية ، واختص المجلد الرابع بالحديث عن النساء وأخلاقهن المحمودة والمذمومة .

- ١٠ -

مؤرخ فتوح البلدان : البلاذري
(٢٧٩ هـ.)

• عندما يذكر أصحاب السير والمغازي والفتوح ، فإن احمد بن يحيى بن جابر البلاذري يحتل مكان الصدارة بينهم . وحينما تصنف كتب المعارك الاسلامية في فترة المدّ الاسلاميّ فإن كتاب «فتوح البلدان» يأتي في الطليعة بينها جميعاً .

• ولد البلاذريّ في أواخر القرن الثاني للهجرة وفي بغداد عاصمة الدولة الإسلامية آنذاك ، ونشأ في عصر من أخصب عصور الفكر الاسلامي ، فقد كان المسلمون يفتحون النوافذ على العالم المعروف ، ينقلون علمه وأدبه وفنه ، يترجمون ثقافة فارس والهند واليونان ، ويغنون حضارتهم بالمفيد الطريف ، وقد يغالون فيأخذون من هذه الثقافات دون حساب أو تقويم سليم ، يدفعهم إلى ذلك شوق إلى المعرفة عظيم ورغبة في الاحاطة بكل ما عند الأقوام الأخرى من أسباب الحضارة والعمران .

• وكان صاحبنا من هؤلاء الذين ساهموا في نقل ثقافة الفرس والروم عدا عن احاطته بعلوم هاتين الأمتين ، وقد نُشّيء تنشئة علمية جيدة ، فدرس على علماء بغداد ، وحضر حلقاتهم في الحديث والأدب والسير ، ثم انتقل إلى الشام فسمع من علماء دمشق وحمص وحلب ، ثم زار منبج والرقة وانطاكية والثغور والجزيرة

فاكتسب من هذه الرحلة ثقافة جديدة ، وأخذ من أهل هذه البلاد أخبار فتوحهم واثبتها في كتابه العظيم «فتوح البلدان»

• اتصل البلاذري بعدد من خلفاء بني العباس ودرّس عدداً من أبنائهم ، ومنهم من تولى الخلافة بعد ذلك ، وكان أول اتصاله ــ وكان شابّا ــ بالخليفة المأمون ، ثم أصبح صاحب حظوة عند الخليفة المتوكل ، يجالسه ، فينادمه ويحادثه ، وعلت مرتبته عند الخليفة المستعين بالله ، لكنه بعد أن قتل هذا الأخير ، قرر اعتزال مجالس الخلفاء والكبراء والانصراف الى الكتابة والتأليف ، فقدم لنا كتباً جيدة بقي لنا منها كتابان جليـــلان هما : انساب الاشراف ، وفتوح البلدان .

• ولم يكن مؤرخنا في كتبه وخاصة «الفتوح» مجرد ناقـــل عن الآخرين وإنما كان ينتقي من المواد الخصبة التي يجمعها ، ويهتم بأمور عديدة أهملها كثير من المؤرخين فقد كان يُعنى بماله علاقة بتاريخ الحضارة والنظم الاجتماعية ، كحديثه عن الدواوين ونقلها إلى العربية ، وتنظيمات الخطوط والنقود ، كما كان يهتم ببيان وضع ملكية الأرض في البلاد المفتوحة وتسجيل احكام الخراج والعشر في مختلف مصادرها ،

• وتظهر شخصية البلاذري بملاحظاته النقدية القيمة ، مع تقويم الأخبار وترجيح بعضها على بعض مما لا تجده عنه الآخرين .

• وعلى الرغم من صلته بعدد من الخلفاء العباسيين إلا أنه لم يكن يُغرق كتابه «الفتوح» بمديحهم ، ولا يُعرف مؤلّفٌ في الفتوح بعده يُعتمد عليه ، حتى قال المسعودي عنه في مقدمة مروج الذهب«لا نعلم في فتوح البلدان أحسن منه ، وقد نقل عنه ياقوت في معجم البلدان نقولاً كثيرة واعتمد عليه وجعله من مصادره .

• أما «أنساب الاشراف» فقد بدأه البلاذري بسيرة النبيّ وسيرة الصحابة ، ثم أورد العباسيين بعد العلويين ، وبني عبد شمس بعد بني هاشم ، وذكر

الامويين في بني عبد شمس لكنه لم يفرد لهم مكاناً خاصاً ، ثم تحدث عن بقية قريش وبطون أخرى من مضر وشغل الجزء الأخير من كتابه عن قيس ، وخص بالذكر منهم ثقيفاً واستفاض في سيرة الحجّاج .

* توفي البلاذري في آخر خلافة المعتمد سنة تسع وسبعين ومئتين من هجرة الرسول عليه السلام وقد تجاوز الثمانين من عمره

رحمه الله وجزاه عن المسلمين خير الجزاء .

obeikandl.com

- ١١ -

شيخ المفسرين والمؤرخين
أبو جعفر بن جرير الطبري
(٢١٠ هـ.)

هو المفسر الشهير والمؤرخ الكبير والفقيه المتمكّن أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .

* وُلد عالمنا في أواخر عام مئتين وأربع وعشرين من هجرة الرسول عليه السلام ، في مدينة آمل عاصمة إقليم طبرستان، وكانت مركزاً كبيراً من مراكز الثقافة الإسلامية آنذاك ، فقد خرجت كثيراً من العلماء والمفكرين .

* وكان العصر الذي عاش فيه أعظم العصور الإسلامية ثراء بالعلم والعلماء فقد استقرت المذاهب الفقهية الأربعة ، واكتملت اتجاهات التفسير بالمأثور والرأي ، ووضعت كتب المغازي والسير ، وجمعت معظم كتب السنّة ، ونضجت علوم اللغة ، وترجمت كتب اليونان وفارس والهند ، وزخرت المكتبات العامة والخاصة بالمؤلفات في كلّ علم وفن ، وافتتحت المدارس والمعاهد على مختلف المستويات في جميع أرجاء العالم الإسلامي ، الذي كان يشكل معظم العالم المعروف آنذاك .

* وقد عاش أبو جعفر الطبري حياة مديدة عاصر فيها عدداً من الخلفاء ورافق ظهور عدد من الدول ، وكان معاصروه من الخلفاء ، المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمكتفي والمقتدر ، أما الدول

التي نشأت في حياته فهي الدولة الطولونية والدولة السامانية والدولة الحمدانية .

• طوّف أبو جعفر في أرجاء العالم الإسلامي كعادة العلماء في عصره، يستقي من ينابيع الثقافة في جميع الحواضر الإسلامية ، فقد درس علومه الأولى في مدينة آمل ، ثمّ تنقل بين مدن طبرستان يدرس التاريخ والفقه ، ثم يعزم على السفر إلى بغداد ليسمع من الإمام أحمد بن حنبل ، ويتوجه إليها ، لكنه يعلم بوفاته قبل أن يصل إليها ، فيتجه إلى البصرة ، ثمّ إلى الكوفة ، فيتلقى الحديث على أيدي كبار علمائه ، ويكشف الجميع فيه حافظة قوية ونبوغاً نادراً .

• وإذا كان قد أحجم عن دخول بغداد بعد سماعه نبأ وفاة الإمام ابن حنبل ، فإنه يشعر أن من الواجب عليه أن يقصدها لأن فيها جلّة العلماء والفقهاء ، وهكذا اتجه نحوها وأقام فيها مدة درس فيها علوم القراءات وتلقى الفقه الشافعي ، لكن شوق الطبري إلى المعرفة ، دفعه إلى السفر إلى الشام ليتعرّف على اتجاهات التفكير فيها ، ثمّ يمم وجهه شطر مصر ، وكان فيها عدد من كبار فقهاء الشافعية كالربيع بن سليمان المرادي ، وإسماعيل بن إبراهيم المزني ، فتلقى عليهم وناقشهم في بعض آرائهم ، وفي مصر تهيأ له أن يلتقى بمحمد ابن إسحاق بن خزيمة ، صاحب السيرة المشهورة ، وقد اعتمد الطبري عليها في تاريخه فيما بعد اعتماداً كبيراً .

• وقد غادر ابن جرير مصر متوجّهاً إلى بغداد ثمّ إلى مسقط رأسه في طبرستان ، لكن بغداد اجتذبته إليها ، فعاد إليها وأقام بها ، منقطعاً للتدريس والتأليف طيلة حياته .

• وكان عالمنا نزيهاً ورعاً حسن القراءة للقرآن الكريم ، كريم النفس أبيّاً ، لا يقبل الهدية إلاّ إذا كان قادراً على المجازاة بمثلها، شجاعاً، جريئاً في إعلان ما يعتقد أنه الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم . وكان مع ذلك متواضعاً دمث الخلق ، لا يباهي بعلم ولا يفاخر بظفره في مناقشة أو مناظرة ، مع لطف في المعشر ومضاء في العزيمة .

• جمع عالمنا أطراف الثقافة كلّها ، فقد كان شديد الكلف بالمعرفة ، دائب التطلّع للاستزادة منها ، لذلك نجد أنه يؤلف في علوم الدين من قراءات وتفسير وحديث وفقه وأصول وتوحيد ، وفي العلوم الأدبية ، من لغة ونحو وصرف وعروض وبلاغة ، وفي التاريخ والمنطق والجدل والحساب والجبر والطب ، على أن أعظم شهرة الإمام الطبري تعود إلى علوم ثلاثة :

التفسير : فقد كان صاحب اتجاه خاص فيه ، يدل على ذلك تفسيره الذي ما يزال من أهم مصادر معرفة كتاب الله حتى الآن .

والتاريخ : فقد كان مؤرخاً شهيراً ، وما يزال تاريخ الطبري أوّل كتب التاريخ الإسلامي شهرة ورواجاً .

والفقه : فقد كانت له فيه آراء كثيرة تدل على اجتهاد وقدم راسخة ثابتة .

• ترك لنا ابن جرير مؤلفات كثيرة من أهمها : جامع البيان في تفسير القرآن ، وتاريخ الأمم والملوك ، واختلاف الفقهاء ، وأدب النفوس ، وكتاب القراءات وتنزيل القرآن .

• وكانت وفاته ببغداد سنة عشر وثلاثمائة من هجرة الرسول عليه السلام ، عن عمر قارب التسعين عاماً ، قضاها بالدراسة والتدريس والتأليف ، تغمده الله برحمته ورضوانه .

• • •

• أما الكتاب : فهو تاريخ الأمم والملوك لإمامنا الطبري ، وهو اوّل كتاب في التاريخ العام ، أكمل به ما ابتدأه السابقون ، وقد ضاع أكثر ما دوّنه هؤلاء وبقي ما سجله الطبري فحفظ لنا تراثاً نفيساً باقياً على الزمان ، حتى أصبح مصدراً للباحثين إلى اليوم ، وخاصة في أخبار العرب في الجاهلية .

• كذلك فقد سجل هذا التاريخ كثيراً من الحقائق الإسلامية الموثقة بالإسناد إلى أصحابها ، ولولاه لضاعت في موجات الزمان ، أما عن تاريخ الفرس فقد

حوى الكتاب حقائق لا توجد في غيره ، ولا يستطيع إغفالها من يريد الوقوف على تاريخ هذه الأمة الضاربة في القدم ، وكذلك ما كتبه عن تاريخ الرومان ، فقد جاء دقيقاً كلّ الدقة ، لأنه نقل ذلك عن وثائق صحيحة ثابتة .

• ينقسم كتاب تاريخ الأمم والملوك إلى قسمين كبيرين : **يتناول أوّلهما ما قبل الإسلام ويتناول ثانيهما تاريخ الإسلام حتّى زمنه .**

• ابتداء القسم الأوّل ببدء الخليفة على عهد آدم عليه السلام ، ثمّ عرض للأنبياء من نوح إلى عيسى عليهم السلام ، وأرّخ للفرس والروم والعرب واليهود متقصياً تاريخ هذه الأمم منذ القدم ، حتّى انتهى هذا القسم بذكر أجداد النبي عليه السلام وطرفاً من أخباره قبل البعثة .

• أما القسم الثاني فيبدأ بحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وأخباره وغزواته ، ثمّ تاريخ الخلفاء الراشدين وفتوحهم ، والدولة الأموية ، والدولة العباسية حتّى سنة اثنتين وثلاثمائة للهجرة .

• وكان حريصاً ، وخاصة في التاريخ الإسلامي ، على ذكر الروايات المتعدّدة لكل حادثة ، وذكر سند كل رواية موصولاً إلى صاحبه على طريقة علماء الحديث ، وإذا أخذ من كتاب أشار إليه ، كلّ ذلك زيادة في الدقة وتحري الصحة في كتابته .

• وقد سلك في كتابته للتاريخ الإسلامي طريقة الحوليات المعتمدة على توقيت الأحداث بالسنين والشهور والأيام فذكر في كلّ سنة ما وقع فيها من أحداث تستحق الذكر ، فإذا كانت الحادثة تستغرق سنوات جزّأها أو أشار إليها ثمّ عاد إليها بالتفصيل في موضعها الملائم ، أما الأخبار التي لا ترتبط بزمن معين فقد كان يختم بها الحديث عن كلّ خليفة .

• كان كتاب تاريخ الملوك أساساً لكثير من كتب المؤرّخين أمثال مسكويه وابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون . وأشار إلى ذلك ابن الأثير في مقدمة كتابه الكامل بقوله :

« فابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري إذا هو الكتاب المعول عليه عند الكافة ، والرجوع إليه عند الاختلاف» .

• ترجم الكتاب إلى اللغة الفارسية منذ القرن الرابع عشر الميلادي ، ثم ترجم إلى الفرنسية وبعض اللغات اللاتينية وعدد من اللغات الأخرى ، جزى الله مؤلفه عنا وعن الإسلام خير الجزاء .

obeikandl.com

- ١٢ -

عالم العقائد : عبد الجبار الهمذاني

(٤١٥ هـ.)

* مفكر كبير في شئون العقيدة الاسلامية ، وقاض عظيم من قضاة دولة الاسلام ، هو قاضي القضاة (ابو الحسن) عبد الجبار بن أحمد الهمذاني .

* ولد ابو الحسن في مدينة أسد أباد في حوالي سنة عشرين وثلاثمائة من هجرة الرسول عليه السلام ، وتلقى دروسه الأولى في اسد أباد وقزوين على أيدي علماء معروفين منهم الزبير بن عبد الواحد الحافظ الثقة وابو الحسن بن سلمة القطان ، ثم انتقل إلى همذان سنة اربعين وثلاثمائة وسمع بها الحديث ، وشد الرّحال بعدها إلى اصفهان فقرأ على جماعة من العلماء ، إلى أن حطّ به المقام أخيراً في البصرة وهي حينئذ مركز كبير من مراكز الدراسات الاسلامية والاعتقادية منها بوجه خاص .

* ثم انتقل منها إلى بغداد يدرس ويدرّس وعندما شعر بحاجة إلى العزلة ليبدأ سلسلة تآليفه لجأ إلى بلدة رامهرمز حيث انقطع إلى الكتابة وبدأ فيها عدداً من كتبه الكبيرة .

* وفي السنة السابعة والستين وثلاثمائة استدعاه الصاحب بن عباد الوزير المشهور ليكون قاضياً للقضاة في مدينة الريّ وهي حينذاك من أكبر مراكز الحضارة الاسلامية فبقي فيها حتى سنة خمس وثمانين وثلاثمائة هجرية ، وهي

مدة طويلة استقر فيها القاضي عبد الجبار في تلك المدينة العظيمة ولم يغادرها إلا إلى الحج أو إلى البلدان المجاورة كاصفهان والعسكر في زيارات قصيرة .

* وكان من أهم ما يتصف به أبو الحسن تلك الشخصية الجادة الهادفة ، فلم يعرف عنه انه شارك فيما كان ينغمس فيه بعض رجال الدولة آنذاك من ترف ومجون ، وكان باستطاعة القاضي لو أراد أن يحضر كثيراً من مجالس اللهو التي كان يدعو ويدعى اليها الكبراء من أركان الدولة ، ولكن كان يترفع عن ذلك حتى عرف الجميع عنه هذا الخلق ، فكان الصاحب بن عباد يقول : « ان الناس تشرف بالعلم ، والعلم يشرف بقاضي القضاة » .

* ومما كان يتصف به أيضاً ، اعتداده الكبير بنفسه ، واعتزازه بعلمه وشخصيته ، ومن أجل ذلك كان الوزراء وكبار رجال الدولة البويهية وعلى رأسهم الصاحب يعاملونه بكل احترام وإجلال ويقدمونه في مجالسهم ، وروي عنه أنه كان يتواضع مع اصحابه ويتكبر عند العوام واصحاب السلطان ، وقد حدث مرة ان الصاحب حضر من سفر فخرج الجميع لاستقباله وترجلوا عند وصوله الا القاضي فأنه لم يفعل ما فعلوه وإنما قال : أريد أن اترجل ولكن العلم يأبى ذلك » .

* وكانت ثقافة عالمنا واسعة ومتنوعة ، ابتدأت بدراسة القرآن والحديث واللغة والفقه واصوله ، وانتهت إلى دراسة العقائد والمذاهب ، لذا فقد كثرت تصانيفه وتضخمت وتنوعت ، ويعتبر من أجود ما خلفه لنا كتاب تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد » عليه افضل الصلاة والسلام .

* ولأهمية هذا الكتاب وخرافة الموضوعات التي عرض لها والأسلوب الذي تناولها فيه ، كان موضع ثناء العلماء والكتاب متقدميهم ومُحَدثيهم ، فقد اثنى عليه ابن العماد وابن شهبة وابن تيمية ، وكتب عنه الشيخ الكوثري في مقدمة « تبين كذب المفتري » يقول « ولم نر ما يقارب كتاب تثبيت دلائل النبوة للقاضي عبد الجبار في قوة الحجاج وحسن الصياغة في دفع شكوك المتشككين » .

* والحقّ أننا نستطيع ان نعدّ هذا الكتاب الاول من نوعه في موضوعه ، ولا نعلم بين ما وقع في أيدينا ما يفوقه او يصل إلى مرتبته .

* توفي قاضي القاضي ستة خمس عشرة واربعمائة من الهجرة بعد حياة طويلة مديدة قضاها منذ الصبا في الدراسة والتدريس والتأليف .

رحمه الله رحمة واسعة وغفر له وأرضاه .

obeikandl.com

- ١٣ -

فلكي شهير : أبو الريحان محمد البيروني

(٤٤١ هـ.)

أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، هو الرياضي والفلكي الشهير ، قال عنه العالم الألماني المعروف : (إنه أعظم عقاية عرفها التاريخ) وذلك بعد اطلاعه على مؤلفاته .

* وُلد عالمنا عام اثنين وستين وثلاثمائة من هجرة الرسول عليه السلام في ضاحية من ضواحي خوارزم وهي الآن مدينة صغيرة في جمهورية أوزبكستان السوفياتية وقد أطلق عليها اسم مدينة البيروني ، تخليداً لذكرى هذا العالم الكبير .

* تلقى علومه في موطنه خوارزم وكان محباً للمعرفة دائم الاطلاع واسع الخبرة باللغات حتى انه كان يتقن إلى جانب اللغة العربية ، الفارسية واليونانية والسريانية والسنسكريتية ، وكان هذا خير مساعد له في اتجاهه العلمي إذ استطاع أن يطلع على مصادر الثقافات المختلفة من مراجعها الأولى دون أن يعتمد كلية على الترجمات التي قد تمتلىء بالأخطاء في بعض الأحيان .

* أظهر أبو الريحان في تلك المرحلة اهتماماً خاصاً بدراسة الرياضة والفلك والجغرافية والنحو ، كما كتب في مواضيع علمية أخرى كالاقتصاد والنبات ، واتصل بعدد من كبار مفكري عصره وعلى رأسهم الشيخ الرئيس ابن سينا ، ونشر عدداً من مؤلفاته حتى أصبح من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان وهو بعد شاب لم

يتعدّ الثلاثين من عمره .

* ثمّ انتقل إلى دراسة الفلك والأجرام السماوية والتدرّب العملي على رصدها ، وكان من نتيجة هذا الاتجاه الجديد مؤلفات عديدة ونظرية جديدة لأستخراج محيط الأرض ، واستخدم من أجل ذلك معادلة لحساب نصف قطر الأرض سميت بعد ذلك في أوروبا « قاعدة البيروني » وقد أخرج البيروني بعد تأليف كتاب الاسطرلاب تلك المعادلة من القوّة إلى الفعل ، مما جعل نللينو ، المستشرق الإيطالي المعروف ، الذي اهتمّ خاصة بمساهمات المسلمين بعلم الفلك ، يعترف بأن قياس المأمون وقياس البيروني لمحيط الأرض ، من الأعمال العلمية المجيدة والمأثورة للعرب » .

* وكان منهم عالمنا في الدراسة العلمية يعتمد البحث والتجربة وسيلتين لتحصيل المعارف ، وكان يؤكد على سلوك المسلك الحسي القائم على القياس والاستقراء في طلب المعرفة ، ويحذر من الاعتماد على التقليد ، ويلحّ على التواضع والتجرّد والبعد عن الأفكار السابقة التي قد تضر بسير البحث ، ويرى أن من الواجب العودة إلى المراجع الأصيلة فيما يستعين به المرء أو ينقل عنه ، ومن أجل ذلك دعا إلى إتقان اللغات الأخرى ، كيما تتهيأ للباحث فرصة الرجوع إلى علوم الغير والاستفادة منها .

* وقد بيّن أبو الريحان أن التعصب عند الكتاب هو الذي يحول دون تقديرهم للحق ، فقد دعا إلى « تنزيه النفس عن العوارض المردية لأكثر الخلق ، والأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرياسة وأشباه ذلك » . وهكذا فإن الروح العلمية التي كان يتصف بها أبو الريحان ، وجرأته في الرأي هي التي جعلت المستشرق الالماني الدكتور شاخت يقول عنه : « إن شجاعة البيروني الفكرية وحبّه للاطلاع العلمي وبعده عن التوهم وحبه للحقيقة وتسامحه وإخلاصه — كلّ هذه الخصال — كانت عديمة النظر في القرون الوسطى فقد كان البيروني في الواقع عبقرياً

مبدعاً ذا بصيرة شاملة نفاذة ، وكان عالماً إلى جانب ذلك كلّه مؤمناً بإنسانية العلم والوحدة الشاملة التي يؤدي إليها ، والتفاهم العميق الذي يقيمه على أساس المنطق والحقيقة .

* صحب البيروني السلطان محمود الغزنوي إلى الهند وتنقل في حواضرها وبقي هناك مدّة تزيد على أربعين عاماً ، نشر فيها الثقافة الإسلامية وبعض علوم الحضارة الإفريقية ، وجمع عنها وعن أخلاقها وأديانها وطبيعتها معلومات صحيحة لم يتوصل إليها باحث قبله ، وأصبح بذلك من أوسع علماء المسلمين اطلاعاً على الهند ومعارفها .

* يقول سيديو في توضيح هذه الناحية « إن أبا الريحان اكتسب معلوماته المدرسية البغدادية ، ثمّ نزل بين الهنود حين أحضره « الغزنوي » يستفيد منهم الروايات الهندية المحفوظة لديهم ، قديمة أو حديثة ، ويفيدهم استكشافات أبناء وطنه ، وينقلها إلى كلّ جهة مرّ فيها ، وألّف لهم ملخصات من كتب هندية وعربية » .

* خلف البيروني عدداً كبيراً من المؤلفات يصل إلى مائة وثمانين كتاباً ، وقد ضاع الكثير من هذه المؤلفات ، وما بقي منها موزع في مكتبات العالم ، وتبذل دائرة المعارف العثمانية في الهند مجهودات ضخمة لإحياء هذا التراث العظيم ، كما بدأ بعض علماء العرب في العصر الحديث في تحقيق ما يحتويه هذا التراث من نظريات وآراء بعد أن كان الأمر قاصراً على المستشرقين الأجانب .

* ومن مؤلفاته مجموعة من الرسائل في علم الفلك والهندسة ، أثبت فيها تفوّقه في علوم الرياضيات على سائر علماء عصره ، ومنها كتاب تحديد نهايات الأماكن ، الذي يشتمل على عدد من القواعد والتعليمات في مسائل علم الفلك التطبيقي ، وكتاب القانون المسعودي نسبة إلى السلطان مسعود الغزنوي الذي أهدي الكتاب إليه ويعتبر أهم مؤلفات البيروني في الفلك وحساب المثلثات ، ومنها كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة » الذي سنتحدّث عنه بعد حين .

* لم ينقطع عالمنا عن الدراسة والبحث والتنقيب حتى لقي وجه ربه سنة إحدى وأربعين وأربعمائة هجرية ، ويروي ياقوت الحموي عنه وهو على فراش الموت القصة التالية : دخل قاض من أصحاب البيروني عليه وهو في حالة النزع وقد حشرج نفسه بـــه وضاق صدره ، قال القاضي : فسألني : كيف قلت لي يوماً حساب الجدّار الفاسدة ، فقلت له إشفاقاً عليه : أفي تلك الحالة ؟ قال لي : يا هذا أودع الدنيا وأنا عالم بهذه المسألة الا يكون خيراً من أن أخليها وأنا جاهل بها » .

رحمه الله وأوسع له في الخلد مع العاملين الصالحين .

* * *

أما الكتاب : فهو « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ، ويُعدّ هذا الكتاب من أكثر الكتب التي ألّفت عن الهند شمولاً وإحاطة ، وكان أبو الريحان البيروني دخل الهند مع السلطان محمود الغزنوي الذي استعان في حروبه ضد قوات الهند بالعلماء والأدباء وكان منهم عالمنا الذي صاحبه ثلاث عشر مرة في فتوحاته في تلك الغارة المترامية الأطراف .

* وكان قصد السلطان من استصحاب البيروني « أن يدرس أحوال الهنود ويجادل فلاسفتهم ويحذق لغتهم ويقرأ أشعارهم ، ويدرس تقاليدهم وثقافاتهم ، ويصل إلى أعماق مناهجهم في البحث والتفكير ، وهكذا تهيأ له ما لم يتهيأ لغيره من الباحثين ، من الظروف المواتية للدراسة والتنقيب ، وقد توّج هذه الدراسة بكتابنا هذا الذي يصف فيه حضارة الهند وأصولها العقائدية والعلمية ومعالمها الجغرافية ومبادئها الفلسفية .

ومع أن هذا الكتاب الذي ذاع بعد ذلك باسم تاريخ الهند لم يكن الأوّل الذي يتناول الهند وشعوبها بالدراسة ، إلاّ أن كلّ ما تقدمه من دراسات يبدو هزيلاً ضعيفاً إذا قورن بهذا العمل الجليل .

* ويبدو أن كتابنا لم يكتب دفعة واحدة ولعل عناوين بحوثه تدلّ على ذلك ، إلاّ أن صورته الأخيرة اكتملت ببلدة غزنة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة هجرية وكان عالمنا قد بلغ الثامنة والخمسين من عمره ، أي أنه كان في أوج نضوجه العقلي والعلمي .

* وقد قسم الكتاب إلى ثمانين باباً تتحدّث عن الكثير من الموضوعات الهامة مثل : معتقدات الهنود وشرائعهم ، وأحكام العبادات عندهم ، ونظام الطبقات في المجتمع الهندي ، وأنواع الخط ، وطرق الكتابة ، والنحو والشعر ، وتراث الهند الأدبي والعلمي ، ومعالمها الجغرافية، وعلم الفلك عند الهنود ، وأنواع السنين ، والشهور والأيام ، وأحكام التنجيم .

* وكان من أهداف البيروني في هذا الكتاب تقديم الحقيقة التي لمسها بنفسه وسمعها بأذنه ، وقد أشار إلى هذا الهدف في مقدمة كتابه بقوله : « إنما صدق قول القائل : ليس الخبر كالعيان ، لأن العيان إدراك عين الناظر عين المنظور إليه في زمان وجوده ، وفي مكان حصوله ، ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر ، لقصورها على الوجود الذي لا تتعدّاه آفات الزمان » .

* أما عن أهداف الكتاب عامة فيمكن أن نتبينها من قول البيروني « وليس الكتاب حجاجاً وجدلاً حتى أستعمل فيه بإبراز حجج الخصوم ومناقشة الزائغ منهم عن الحق ، وإنما هو كتاب حكاية ، فأورد كلام الهند على وجهه ، وأضيف إليه ما لليونانيين من مثله ، لتعريف المقارنة بينهم ، فإن فلاسفتهم وإن تحروا التحقيق فإنهم لم يخرجوا فيما اتصل بعوامهم من رموز نحلتهم ومواصفات ناموسهم ، ولا أذكر مع كلامهم كلام غيرهم إلاّ أن يكون للصوفية أو لأحد أصناف النصارى لتقارب الأمر بين جميعهم في الحلول والاتحاد » .

* وعن اعتقادات أهل الهند عموماً وفلسفتهم الدينية كتب البيروني يقول : « ويعتقدون في الأرض أنها أرضهم ، وفي الناس أنهم جنسهم ، وفي الملوك

أنهم رؤساؤهم ، وفي الدين انه نحلتهم ، وفي العلم أنه معهم ، فيترفعون ولا يظنون أن في الأرض غير بلدانهم ، وفي الناس غير سكانها ، وأن للخلق غيرهم علماً غير علمهم ، حتى أنهم إن حدثوا بعلم أو عالم في خراسان وفارس استجهلوا الخبر ولم يصدقوه .

* وعلى الرغم من أن البيروني كان قد قرّر حين حدّد منهج الكتاب أنه لا يناقش معتقدات الهنود لأنه يكتب للخاصة الذين لا يعوزهم تقييد تلك المعتقدات أو نقدها ، إلاّ أنه كان يخرج أحياناً على هذا المبدأ الذي التزم به محاولاً المقارنة بين ما عند الهنود وما عند غيرهم من الشعوب ، ويفيض عن ذلك ويسترسل شأن العلماء المتمكنين .

* ومن ذلك أنه انتقد المنهج الذي أتبعه الهنود ، لأنه في رأيه غير علمي فلم يبعدهم علمهم عن الأوهام ، واستطاع بأسلوبه أن يبين بوضوح ، وجوه التوافق بين الفلسفة الفيثاغورية والأفلاطونية والحكمة الهندية والكثير من مبادىء الصوفية .

* وقد ذكر البيروني عن الترقيم في الهند « إن صور الحروف وأرقام الحساب تختلف باختلاف الأماكن ، وإن العرب أخذوا ما عند الهنود من أشكال الأرقام فهذّبوها وكوّنوا منها سلسلتين ، عرفت إحداهما بالأرقام الهندية ، وهي التي استعملها أكثر الأقطار العربية والإسلامية ، وعرفت الثانية باسم الأرقام الغبارية ، وقد انتشر استعمالها في بلاد المغرب والاندلس وعن طريقها دخلت هذه الأرقام إلى أوربا وعرفت عندهم باسم الأرقام العربية .

وفي عام ١٨٨٧ نشر العالم الألماني (ادوارد سخاو) تاريخ الهند لأول مرة وكتب في مقدمته : « إن هذا السفر القيم تضمن فيما تضمنه الوفير من المعلومات الهامة ، التي كان يجهلها الكثيرون في عصر البيروني ، والأوربيون حتى العصور الحديثة » .

- ١٤ -

العالم الجريء : أبو محمد بن حزم
(٤٥٦ هـ.)

هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، عالم الأندلس الشهير ، والمفكر الإسلامي العظيم الذي ندر أن يجتمع لمثله ما اجتمع له من سعة الثقافة وقوّة الحجة وسلامة التفكير .

* وُلد ابن حزم في قرطبة سنة ٣٨٣ من هجرة الرسول عليه السلام ، من أسرة غنية عريقة في العلم والسياسة ، وكان أبوه أحمدُ سعيد كبيرَ وزراء الحاجب المنصور ثم ابنه المظفّر من بعده .

* وكان العصر عصر اضطراب سياسي ، فقد رافق عالمنا بداية تفكك الدولة الإسلامية في الأندلس ، وشاهد بعينه استقلال كلّ وال بولايته ، او ظهور ما يسمى بملوك الطوائف . وقد عاصر من هؤلاء بني جَهْوَر في قرطبة وبني عباد في إشبيلية ، وشارك في السياسة من أوسع أبوابها ، فولي الوزارة مرّتين ، لكنه عن طريق الوزارة عرف الطريق إلى السجن ، فطلق المناصب الوزارية واعتزل السياسة إلى غير ما رجعة .

* ولئن ترك شيخنا أبو محمد العمل السياسي إلاّ أنه لم يترك الاهتمام بشؤون المسلمين ، وانتقاد الحكام الذين كان بعضهم يسلّم الحصون إلى الروم دون قتال ، واستهجان مسلك من يتساهل بشؤون المسلمين ويهتم بمصالحه الخاصة .

* تلقى العلم عن عدد من العلماء المعروفين كأبي علي الحسين ابن علي الغامي ، وأبي القاسم عبد الرحمن بن يزيد الأزدي ـ وقد تلقى عنه الحديث والنحو واللغة ـ وأحمد بن محمد الجسور أحد مشايخه في الحديث ، وأبي عبدالله ابن دحون الفقيه ، مفتي قرطبة ، وعبدالله الأزدي بن الفرضي الفقيه ، قاضي بلنسية ، ومحمد بن الحسن المذحجي أستاذه في الفلسفة وعلوم الأوائل .

* على أن شيخه أبا الخيار سعد بن سليمان بن مفلت كان أبلغ هؤلاء أثراً عليه لأنه لقّنه أصول الفقه الظاهري حتى أصبح أكبر المدافعين عنه والداعين إليه ، وحتى دفعه حماسه لمذهبه للدخول في مناقشات عنيفة مع أصحاب الآراء والمذاهب الأخرى ، وللانتقال بين بلاد الأندلس وشمالي إفريقيا حاملاً راية المذهب وأصوله .

* وقد عرف عن ابن حزم أنه يملك ذاكرة قوية ، وبديهة حاضرة ، وقدرة عجيبة على الاستدلال ، كما عرف عنه أنه لم يحصر نفسه في دائرة من دوائر الفكر ، فقد كان مفكراً موسوعياً وافر الثقافة ، كتب في كلّ علم وفنّ وأجاد في كلّ ما كتب .

* وكان شيخنا شجاعاً في الحق ، عنيفاً في الخصومة ، صلب الرأي ، لا يخشى لومة لائم ، ولا يحسن المجاملة أو المصانعة أو الرياء ، ولعل حملة العلماء عليه اشتدّت بسبب قسوته في الجدال ، فقد كان كما تحدّث عنه أحد معاصريه : « لا يلطف صدعه بما عنده بتعريض ولا يزفه بتدريج ، بل يصكّ به معارضه صك الجندل وينشقه متلقيه انتشاق الخردل » .

* لكنه كان منصفاً لخصومه ، لا يستكبر أن يشهد لأصحاب الفضل منهم بالفضل ، ولا يتوخى في نقاشه تحقيق انتصار شخصي له ، وإنما يقصد الوصول إلى الحق ، وما أكثر ما كان ينتصر على خصومه في المناقشة ثمّ يذهب إلى بيته فتحضر له فكرة فيتتبعها فيكشف أن الحق إلى جانب خصمه ، فيعود إلى المجلس الذي شهد انتصاره ليعلن عودته إلى الحق .

من أجل ذلك قسم عالمنا الجايل الجدل إلى نوعين : ممدوح ومذموم ، فأما الممدوح من الجدل فشعاره قوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن ، إلاّ الذين ظلموا منهم » ، وأما المذموم من الجدل فهو الذي يكون بغير علم ، ويتوخى مناصرة الباطل والشغب والتمويه بعد ظهور الحق .

* كتب ابن حزم في المنطق والجدل والكلام والفقه والأصول وعلم النفس والأخلاق والتاريخ والأنساب ، وكان شاعراً أديباً . ومن أشهر مؤلفاته : الفصل في الملل والأهواء والنحل ، المحلّى في الفقه ، الإحكام لأصول الأحكام ، جمهرة الأنساب ، جوامع السيرة ، المفاضلة بين الصحابة ، الأخلاق والسير في مداواة النفوس ، طوق الحمامة .

* من أقواله : « أزهدُ الناس في عالمٍ أهلُه » ، « الحق لا يصير حقّاً بكثرة معتقديه ، ولا يستحيل باطلاً بقلّة منتحليه » ، « إن لم يكن بدّ من إغضاب الناس أو إغضاب الله ، ولم يكن مندوحة عن منافرة الخلق أو منافرة الخالق ، فأغضب الناس ونافرهم ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق » ، « المخلص من إذا عمل خيراً لا يهمه أن يحمده الناس » .

رحم الله أبا محمد وأوسع له مع الخالدين .

* أما الكتاب الذي نعرضه لابن حزم دون سائر كتبه فهو « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، وذلك لأنه من أجمع البحوث المستقصية في الديانات والنبوات ، وآراء الفلاسفة والخلاف بينهم وبين أصحاب الملل ، والردّ على منكري الألوهية ومعتنقي الأديان المخالفة للإسلام .

* سبق عالمنا بكتابة هذا أوروبا ببضعة قرون ، لأن تأريخ الأديان في أوروبا لم يعرف إلاّ في منتصف القرن التاسع عشر ، ويعد الكتاب مثلاً رائعاً على مقدة ابن حزم الهائلة على الجدل ، وطول باعه في المناقشة ، وصلابة عوده في مضمار التحدي الفكري .

* وقد عرض فيه لجميع الاتجاهات الفكرية التي عرفها تاريخ الإنسانية

حتى عصره ، سواء منها ما كان دينياً أم فلسفياً ، وهاجم الأفكار المخالفة هجوماً شديداً ، وكان للسوفسطائيين والنسبيين واللاأدريين النصيب الأوفى من هذا الهجوم .

• أما في عرضه للفرق الإسلامية فإن ابن حزم لم يكتف بدراسة آرائها ، ومعرفة أدلّتها ، وإنما كان يدرس إلى جانب ذلك مختلف البواعث النفسية والاجتماعية التي ساعدت على كثرة هذه الفرق وتشعبها مع اهتمامه في الوقت نفسه بالكشف عن الأسباب التي جعلتها تختار هذه الآراء .

• اعتمد شيخنا في نقاشه للأديان والملل والفرق على أساسين : أوّلهما : المبادىء العقلية المقرّرة في أوائل الحس وبدائه العقل ، وثانيهما : النصوص ، وهو يرفض في نقاشه بوحي من مذهبه الظاهري نظريات التأويل والباطن لأن دين الله ظاهر لا سرّ تحته ، ولأن الرسول لم يكن عنده سرّ ولا رمز ولا باطن إلا ما دعا الناس جميعهم إليه .

• أيها القارىء الكريم ، لقد جاءت بحوث عالمنا في « الفصل » في مستوى من الفهم والإحاطة والشمول بحيث أصبحت أساساً لمعظم الدراسات العقائدية ، وسيظل هذا الكتاب مثالاً يحتذى في الدراسة العميقة الجادة الهادفة .

- ١٥ -

أعجاز القرآن : عبد القاهر الجرجاني
(٤٧١ هـ)

أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ، رجل من رجال العربية والاسلام ، وإذا قلنـــا ذلك، فلأن القرآن عربي ، ولغة الحديث والبحوث والدراسات التي كان للإسلام فضل بعثها في العالم هي العربية ، فالمحافظة على اللغة العربية والنهوض بها والدفاع عنها أمور لا تنفصل عن العمل الإسلامي لذلك رأينا جهود كثير من متعصبي المستشرقين والدعوات المنحرفة ، تنصب على تهديم كيان هذه اللغة ، والقضاء على أركانها ، لأنها لغة القرآن ولأنها من أهم عوامل حفظ الإسلام في هذا المعترك الدولي .

* وقد ظهرت الحملة على العربية في عصرنا الحاضر على أشكال متعدّدة : فمرة تبدو بمظهر الإشفاق عليها والدعوة إلى تبسيطها ، ومرّة تظهر بالدعوة إلى كتابتها بالحروف اللاتينية ، وأخرى بالدعوة إلى اللغة العامية ، وغيرها بأن يكون التدريس العالي باللغة الأجنبية وهكذا .

* وقد كان للجرجاني جهود موفقة تركت أثرها الكبير على اللغة العربية وبيان جمالها وتميزها ، كما كان موفقاً في عرضه لدلائل الاعجاز القرآني البلاغي ، لذلك استحق منا أن نقف عنده وقفة متأنية ، وأن نصنفه في أعلام الفكر الإسلامي .

* وُلد الجرجاني في أوائل القرن الخامس الهجري من أسرة فارسية رقيقة الحال ، ولا مجال لأن تعجب إذا علمت أنه فارسي ، فقد كان الكثير من علماء العربية والإسلام من أهل فارس فقد وحّد الإسلام بين هذه الشعوب وجمعها على عقيدة واحدة فكانت مصادر تفكيرها واحدة وكان ما يصدر عنها من نتاج الفكر واحداً .

* وكان العصر الذي عاش فيه عصر حروب ومغامرات بين طلاب الملك والسلطان ولكنه من جانب آخر عصر يرث جهود أربعة قرون بذلها العلماء في الدرس والتحصيل والإنتاج ، لذا فقد تعدّدت ينابيع الثقافة فيه ، وتنوّعت المذاهب الاعتقادية والاجتهادية ، وكان على عالمنا أن يتبين طريقه خشية التيه والضلال .

* درس على عدد من الأساتذة المشهورين في جرجان ، ثمّ عكف الجرجاني بعد ذلك على الكتب يقرؤها بفكر مستنير وعقلية منظمة ، فتعرف عن طريق القراءة إلى سيبويه والجاحظ ، وابن قتيبة ، وأبي علي الفارسي ، والقاضي الجرجاني ، وأبي هلال العسكري ، وقرأ كتاب الألفاظ للهمذاني ، والشعر والشعراء للمرزباني ، والإيضاح للزجاجي .

* ومع أنه كانت له مساهمة في العلوم الفقهية والاعتقادية إلاّ أن شهرته كانت في علوم العربية ، فكان إنتاجه موزعاً بين النحو والأدب . وقد ذاع صيته في البلاد وقصده طلاب العلم من كل مكان يقرأون عليه كتبه ويأخذونها عنه .

* وقد عرف عالمنا بالورع والتديّن الشديد حتى انهم حدثوا بأن لصاً دخل عليه وهو في الصلاة فأخذ ما وجد ولم يقطع صلاته ، كما كان قنوعاً كريم النفس لا يتملق العظماء ليغدق عليه المال ، وقد قال في ذلك شعراً وهو شاعر كبير :

خلع الناس إهاباً وتبدّوا في إهاب
وأرى نفسيَ تأبى غير ما كان ثيابيَ
ليس بالإقبال ما نيـ ـل بتقبيل الكلابِ

إن باغـــــي الربح والحسـ ـران في بـــابٍ وبـــابِ
تـــاجـــر غـــير بصـــير بمَقـــاديـــر الحســابِ

• أعجب مؤرخوه بعلمه وخلقه ، وكتب عنه أحد معاصريه يقول : «اتفقت على إمامته الألسنة ، وأثنى عليه طيب العناصر ، فهو فرد في علمه الغزير ، لا بل هو العلم الفرد في الأئمة المشاهير .

• ترك لنا عبد القاهر آثاراً كثيرة في النحو والصرف والبلاغة وتفسير القرآن والعروض ، ثمّ مختارات من الشعر ، ومن أهم هذه الكتب شرح المبسوط ومختصره ، الإيجاز ، الجُمَل في النحو ، العمدة في التصريف ، شرح الفاتحة ، أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز .

• ووافته المنية في جرجان بلده التي لم يغادرها طيلة حياته سنة ٤٧١هـ على أرجح الأقوال ، تغمده الله بفضله ورضوانه .

• • •

أما الكتاب : فهو «دلائل الإعجاز» ، من أشهر كتب الجرجاني ، وكان أبو بكر ألّف في هذا الموضوع كتاباً آخر سمّاه الرسالة الشافعية في الاعجاز بيّن فيه جُمَلاً «من القول في بيان عجز العرب حين تحدوا إلى معارضة القرآن وإذعانهم وعلمهم أن الذي سمعوه فائت للقوى البشرية ومتجاوز للذي يتسع له ذرع المخلوقين» .

• وفي دلائل الاعجاز يتابع توضيح هذا الموضوع الهام واقفاً وقفة خاصة عند قول بعض المفكرين المسلمين بالصرفة ، أي إن الله صرف العرب بقدرته عن معارضة القرآن .

والجرجاني يرفض هذا القول لأن القرآن معجز بنفسه لبلاغته وفصاحته ، فالله جلّ وعزّ جعل معجزة كلّ نبيّ فيما كان أغلب على الذين بعث فيهم وفيما كانوا يتباهون به ، ولم يكن ذلك في عهد رسول الله إلاّ البلاغة والبيان .

• وقد كتب في ردّ مذهب أصحاب الصرفة قائلاً: «إنه لو لم يكن عجزهم عن معارضة القرآن وعن أن يأتوا بمثله لأنه معجز بنفسه، لكن لأن أدخل عليهم العجز عنه وصرفت هممهم وخواطرهم عن تأليف كلام مثله، لكان ينبغي ألاّ يتعاظمهم ولا يكون منهم ما يدل على إكبارهم أمره وتعجبهم منه وعلى أنه قد بهرهم وعظم كل العِظَم عندهم» نتيجة لذلك فقد عدّ عبد القاهر مثل هذا المذهب لا اعتداد به وقرر أن العقلاء قد اتفقوا على أن الوصف الذي تناهى بالقرآن إلى حدّ عجز عنه المخلوقون هو الفصاحة والبلاغة .

• وقد اقتضى ذلك من أديبنا وعالمنا أن يبين معنى الفصاحة والبلاغة ، فمضى يوضح معناهما فيما بقي من الكتاب ، مستشهداً بأمثلة وافية من القرآن والشعر وأقوال العرب.

• ولما كان الجرجاني يؤمن بأن الشعر من مظاهر البلاغة التي لا تنكر يجد من واجبه أن يقف وقفة خاصة عند ما ورد في القرآن الكريم من منع الرسول عليه السلام من تعلم الشعر ، ومن ذمّ الشعراء . فيرى أن المنع ليس منع تنزيه وكراهية وإنما سببه أن الرسول عليه السلام كان معدّاً لأداء رسالة، وسبيله في هذا السبيل منع من الخط حين جعل الرسول لا يقرأ، فلم يكن ذلك لكراهة في الخط ، بل لأن الحجة تكون أبهر وأقهر ، والدلالة أقوى وأظهر .

• ومع مضي الزمن وتوالي السنين يكتسب كتاب دلائل الاعجاز كل يوم تقديراً جديداً مما يجعله ضرورياً لمكتبة كل مثقف مسلم .

- ١٦ -

امام الحرمين : أبو المعالي عبد الملك الجويني
(٤٧٨ هـ)

إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبدالله الجويني ،أحد كبار رجال الفكر الإسلامي في القرن الخامس الهجري ، وعلم من أعلام الدراسات الأصولية والعقائدية .

وُلد في جوين نيسابور من أعمال خراسان ، واختلف في موعد مولده ، والأرجح أنه كان في المحرّم من عام ٤١٩هـ ، وقد نسب إلى جوين كما نسب إلى نيسابور ، وجوين بلد من خراسان ولد فيها والده وعاش فيها معظم حياته .

* وقد لقّب بأبي المعالي لأنه قضى حياته في تحصيل ونشر العلوم الإلهية ، ولم يألُ جهداً في الله على إعلاء شأن الدين حيث جمع بين سلامة المنطق وقوّة الحجة ، ولقب بإمام الحرمين لأنه جاور في الحجاز متنقلاً بين مكة والمدينة مدة أربع سنوات كان خلالها يناظر ويلقي الدروس في المسجد النبوي في المدينة والمسجد الحرام بمكة المكرمه، ولقبه البعض كابن العماد وابن خلكان بضياء الدين لما كان عليه من القدرة على إنارة الطريق للمدافعين عن العقيدة ، فقد كان له الفضل الكبير في الردّ على الفرق الضالة المنحرفة .

* ونشأ إمام الحرمين في كنف والده العالم الجليل عبد الله ابن يوسف الجويني ، الذي كان له نعم المربي والموجه والمرشد ، فأخذ عنه الفقه ، ودرس المذهب الشافعي

في مدرسة أبيه التي كانت تتميّز بطابع ديني خالص ، ثمّ درس الخلاف والأصول وعلوم العربية ، حتى برز على من كانوا يتلقون العلم في مدرسة أبيه، وتوج هذه الثقافة الواسعة بحفظ القرآن الكريم وما كادت تنتهي هذه المرحلة من حياة إمامنا الكبير حتى كان قد أتقن العلوم الإسلامية جميعها ، وأقرّ له العلماء بالتفوّق فيها ، مما جعل الناس يعدّونه إماماً من الأئمة وهو ما يزال في سن مبكرة . ويضاف إلى ذلك أنه وهب عقلاً راجحاً وذهناً لمّاحاً وميلاً إلى البحث والتمحيص ، وكان لا يتقبل من آراء العلماء إلاّ ما اتفق مع عقله حتى انه كثيراً ما كان يرفض آراء والده ، فكان يزداد إعجاباً به وتقديراً لتفوّقه ونبوغه .

* وحتى لا يبقى جانب من جوانب المعرفة محجوباً عنه فقد خاض في العلوم على اختلافها ، ودرس الفلسفة اليونانية وغيرها ، وبعد أن حصّل منها ما حصّل اقتنع بما فيها من نقص وضعف وعدم قدرة على إيصال المرء إلى الحق كلّه ، لذلك فقد هجرها وأعرض عنها ، وقد قال في ذلك : « والآن قد رجعت عن الكل إلى كلمة الحق ، عليكم بدين العجائز ، فإن لم يدركني الحق بلطف برّه فأموت على دين العجائز وتختم عاقبة أمري عند الرحيل على مذهب أهل الحق وكلمة الإخلاص ، فويل لابن الجويني — يريد نفسه — » .

وحين توفي والده ، وكان في سن العشرين ، لم يجد صعوبة في القعود للتدريس مكان ذلك الوالد، يشفع له كلّ ما ذكرناه عن تحصيله ونبوغه ورجاحة فكره، لكن عمله في التدريس لم يمنعه من استكمال علمه على أيدي مشايخ العصر وعلمائه ، فقد درس الفقه والتوحيد والأصول بتوسع وتفصيل على الإمام أبي القاسم الاسفرائيني ، وقد أخذ عنه كثيراً من أساليبه في المناظرة والتدريس والفتوى ، كما أخذ الحديث عن البيهقي ، وتردّد على شيخ القراء أبي عبد الله محمد بن علي النيسابوري فتلقى عنه علوم القرآن .

ثم ترك إمام الحرمين بلده نيسابور إلى العسكر ، ومنها إلى بغداد حيث ذاع صيته واشتهر أمره ، ثم رحل إلى الحجاز فأقام فيها أربع سنوات ، وعاد بعدها إلى

نيسابور حيث درس في المدرسة النظامية ، إحدى المدارس التي بناها الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك ، لتكون مركزاً للثقافة الإسلامية الأصيلة ، وحشد لها كبار العلماء من كل انحاء العالم الإسلامي .

وقد عاصر الجويني في نيسابور عدد كبير من العلماء المعروفين ، كعبد السلام القزويني ، وأبي بكر البيهقي ، وأبي القاسم القشيري ، ولا عجب في ذلك فإن العصر كان يفيض بالإنتاج العلمي الوفير في مختلف ميادين المعارف ، من كلامية وفلسفية وصوفية وفقهية .

استمرّ أبو المعالي في حياته الجديدة بين التدريس والتثقيف ، وكان إنتاجه غزيراً لم يطبع منه حتى الآن إلاّ أربعة كتب ومناظرتان ، ومن أهم مصنفاته في أصول الفقه : البرهان في أصول الفقه ، والإرشاد في الأصول ، وكتاب المجتهدين ، ومن مصنفاته في أصول الدين : الإرشاد إلى قواطع الأدلة ، والشامل ، وشفاء الغليل ، والعقيدة النظامية ، ولمع الأدلة ، ومن مصنفاته في الفقه : نهاية المطلب في دراية المذهب ، في أكثر من عشرين جزءا ، ورسالة في الفقه ، ورسالة في التقليد والاجتهاد ... ويضيق بنا المجال عن استعراض جميع مؤلفاته وأبحاثه .

وفي ليلة الاربعاء الخامس والعشرين من شهر ربيع الآخر من سنة ثمان وسبعين وأربعمائة أسلم إمام الحرمين الروح حيث توفاه الله بعد صلاة فجر ذلك اليوم ، رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء .

* * *

أما الكتاب : فهو : الإرشاد إلى قواطع الأدلّة في أصول الاعتقاد ، أشهر كتب الجويني في أصول الدين .

خصّص المؤلّف كتابه هذا لبحث اهم مسائل أصول الدين بحثاً متوسطاً لا تطويل فيه يملّ ولا إيجاز يخلّ بأهمية هذه الأبحاث . وقد قدّم له بان بيّن الأسباب التي دفعته إلى تصنيفه ، وتتلخص في رأيه بأن أصول الاعتقاد تحتاج إلى حجج وبراهين عقلية تثبتها .

وقد وضح الجويني معنى كلامه ، فهو لا ينتقص من قيمة المصنفات السابقة في أصول الدين ، ولكنه يعتقد أن أهل كلّ عصر لهم مطالب عقلية تخصهم ، وذلك لتطوّر الذهن الإنساني واختلاف التيارات الفكرية التي تسود كلّ عصر عن تلك التي تهيمن على العصر السابق له . ثمّ بدأ إمام الحرمين بشرح المسائل الأساسية في الأصول ، كإثبات حدوث العالم ، ومسألتي الجوهر والعرض ، لينتقل بعدها إلى بيان احتياج المحدَث أو المخلوق إلى محدث أو خالق وهو الله ، ثم تكلّم في الله وصفاته : ما يجب لله من الصفات ، وما يستحيل عليه ، وما يجوز من أحكام .

ومن جملة ما حرص عليه المؤلّف ، بيانه ان الله تعالى لا يريد الإيمان من عباده إجباراً وإنما اختياراً ، فالله سبحانه يريد أن يعطي عباده فرصة الاجتهاد وإعمال الفكر فيما يجب عليهم وما لا يجب من الأعمال ، هذه هي إرادة الله ، والحاصل ما أراده الله .

وقد تعرّض الإمام فيما تعرّض له إلى مسائل الرسالة والنبوة والمعجزة ، فهو يبحث في جواز النبوات ، ثمّ في المعجزات وشرائطها ، ثمّ في إيضاح وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول وينتقل بعد ذلك إلى نبوّة محمد عليه الصلاة والسلام .

وفي رأيه ، أن دليل نبوة محمد هو القرآن ، ووجه الاعجاز في القرآن ما اختص به من الجزالة والنظم الذي فاق جميع أساليب العرب ، كما ان من وجوه إعجازه أضواؤه على قصص الأوّلين والنبي صلوات الله عليه وسلامه كان أميّاً ، يضاف إلى هذه الوجوه اشتماله على تنبؤات تتعلّق بالمستقبل صدقت كلّها دون أن تتخلّف واحدة . ثمّ يذكر معجزات النبي الأخرى كانفلاق القمر وتسبيح الحصى ونبع المياه من بين الأصابع ونحوها . لقد جذب هذا المؤلف أنظار الباحثين المعاصرين ، فكتب له أن يشاهد نور الطبع مع الكتب القليلة التي طبعت من مؤلفات الجويني حتى الآن ، فقد نشر لأوّل مرّة في باريس سنة ١٩٣٨ مع ترجمة فرنسية له ، ثمّ حقق ونشر في القاهرة سنة ألف وتسعمائة وخمسين ميلادية .

- ١٧ -

حجة الاسلام : الامام الغزالي
(٥٠٥ هـ.)

هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي

نادرة من نوادر الفكر الإسلامي والإنساني ، كتب عنه الشيخ مصطفى المراغي فقال : « **أما إذا ذكر الغزالي فقد تشعبت النواحي ، ولم يخطر في البال رجل واحد ، بل خطر في البال رجال متعدّدون لكل واحد قدرته وقيمته ، يخطر في البال ، الغزالي الأصوليّ الحاذق الماهر ، والغزالي الفقيه الحر ، والغزالي إمام السنّة وحاميها ، والغزالي الاجتماعي الخبير بأحوال العالم وخفيات الأمور ، والغزالي الفيلسوف الذي ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالي المربي ، والغزالي الزاهد ، وإن شئت فقل يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره ، رجل متعطش إلى معرفة كلّ شيء ، نهم إلى جميع فروع المعرفـــة** » .

• والحقيقة أن من النادر أن تجد في تاريخ الفكر البشري من يماثل الغزالي في نهمه للمعرفة ، وجاده على البحث ورغبته في الوصول إلى الحقيقة . وقد كان طموحه إلى معرفة الحقيقة دافعاً له إلى تحصيل أكثر أنواع المعارف في عصره ، وتستطيع أن تلمس هذا من سجله الحافل عن حياته العقلية . والذي أودعه كتابه « المنقذ من الضلال » ، حتى انك إذا أردت أن تصف الغزالي بوصف يلخص لك حياة هذا الرجل العظيم وأمانيه لقلت إنه « **الباحث عن اليقين** » .

* عمد إلى الفلسفة فقتلها بحثاً وتنقيباً ، وخرج من دراستها بتآليف عدّة ، ويعدّ كتابه « **مقاصد الفلاسفة** » أحسن كتاب يلخص الفلسفة اليونانية والإسلامية ، أما كتابه « **تهافت الفلاسفة** » — موضوع حديثنا — فقد كان حدثاً فكرياً فاصلاً في تاريخ الفلسفة .

* ولم يكن شغفه بمعرفة مذاهب التعليمية — الباطنية — أقل قوّة ، خاصة وان الباطنية كانت قد استشرت في زمنه وباتت تهدّد العالم الإسلامي وتفرض عليه إرهاباً أسود ، فجاء كتابه « **فضائح الباطنية** » ، الذي يعدّ حتى الآن أفضل كتاب في موضوعه — ليوضح حقيقة هذه الفرقة الحاقدة على الإسلام المتآمرة عليه ، العاملة على تهديمه وتخريب كيانه .

أما في الفقه فقد كان شافعياً ، وقد خلّف لنا عدّة مؤلفات في الفقه الشافعي كالوجيز والوسيط وغيرهما ، وتعدّ كتبه من أفضل ما كتب في هذا المذهب ، وكان له فيها اجتهادات وآراء خاصة تنم عن فكر حرّ مستنير واسع المعرفة جيّد الاطلاع .

* أما في الأصول ، فقد وضع كتاب « **المستصفى** » الذي ما يزال يدرس في كثير من المعاهد الإسلامية العالية كأفضل كتاب في موضوعه عبارة وفكرة ومنهجاً ودراسة .

* هذا ولا يغيب عن أذهاننا أن الغزالي كان أوّلاً وقبل كلّ شيء كاتباً أخلاقياً وانه نال شهرته في العالم الإسلامي عن طريق ما كتب في هذا الموضوع ، ويعدّ كتابه « **الإحياء في علوم الدين** » أوسع كتب الأخلاق الإسلامية انتشاراً في العالم حتى الآن .

* وقد كان لهذا الرجل العظيم تجربة عقلية رائعة ورائدة في طريقه إلى الحقيقة ، ولعلّها أوّل تجربة مسجلة في تاريخ الفكر الإنساني كلّه ، وجاء تسجيله لها في كتابه الرائع « **المنقذ من الضلال** » .

* خلّف الغزالي مكتبة ضخمة ، وقد زعموا أن مؤلفاته لو قسمت على

أيام حياته لخصّ كلّ يوم أربعة كراريس ، أي ما يعادل ثمانين صفحة مما نكتب اليوم .

• وإليك حياة أبي حامد في سطور :

وُلد في طوس من بلاد فارس سنة ٤٥٠هـ ، وبدأ فيها دراساته الأولى في القراءة والكتابة وحفظ القرآن والنحو واللغة العربية والفقه ، ثمّ انتقل سنة ٤٧٣هـ إلى نيسابور وكانت حاضرة اسلامية كبيرة ، فدرس على أبي المعالي الجويني وتفوق في مجلسه حتّى حدثوا أنه كان يغار منه ، وهو شيء شبيه بما كان بين أرسطو وأستاذه أفلاطون إن صحّت رواية القدماء .

• ثمّ انتقل سنة ٤٧٨هـ إلى العسكر حيث اتصل بنظام الملك وزير السلاجقة المشهور صاحب المدارس المعروفة باسمه ، فعينه سنة ٤٨٤ مدرّساً في نظامية بغداد حتّى أصبح من علمائها المشهورين ، وحتّى باتت حلقته أوسع حلقة علمية فيها ، فكان يحضرها ما لا يقلّ عن ثلاثمائة من العلماء المعروفين في مختلف العلوم الإسلامية والعربية والفلسفية .

• وفي سنة ٤٨٨هـ ترك التدريس بعد أزمة نفسية تحدث عنها في المنقذ من الضلال ، فحج ثمّ تنقل بين دمشق وبيت المقدس ، وفي دمشق وفي الجامع الأموي الكبير ألّف أعظم كتبه وأبعدها أثراً في الفكر الإسلامي **«كتاب الإحياء»**

• وفي سنة ٤٩٣هـ عاد إلى طوس فأقام فيها مشتغلاً بالتدريس والتأليف حتّى سنة ٤٩٩هـ حيث عاد لمواصلة التدريس العام في نظامية نيسابور بعد أن ألحّ عليه العلماء والكبراء، إلاّ أنه لم يستمر هذه المرّة طويلاً فقد ترك نيسابور مرّة أخرى سنة ٥٠٣هـ عائداً إلى مسقط رأسه طوس فبقي فيها معتكفاً على دراسة الحديث حتّى لقي وجه ربه سنة ٥٠٥هـ .

رحمه الله رحمة واسعة وأوسع له فسيح الجنان مع الخالدين ...

• **أما الكتاب فهو « تهافت الفلاسفة »** ، ولاختياره من بين كتب الغزالي

قصة ، فقد ترجم المسلمون بتأثير من روح إسلامهم العظيم ، معظم ما خلفه رجال الفلسفة اليونانية وخاصة المشهورين منهم ، كأفلاطون وأرسطو وأفلوطين وغيرهم ، وتداول المسلمون كتب هؤلاء وأعجب كثير منهم بها ، وتأثروا بما فيها أبعد تأثير ، وأصبحت دراسة الفلسفة اليونانية بدعة المثقفين في ذلك العصر . ولا شك أن الفلسفة اليونانية تختلف في نظرتها إلى الحياة والكون والوجود عن نظرة الإسلام ، فهي فلسفة لا تعتمد على أساس من الإيمان بالله والرسالات الإلهية ، والذين يسمون بالإلهيين منهم لا يؤمنون بالله كما يؤمن به المسلمون ربّاً خالقاً مدبراً لشؤون العالم متميزاً عنه ، وإنما يعتقد معظمهم بالله على أنه مثال من المثل ، وإن كان أرقى منها شأناً ، والله جلّ جلاله عندهم ليس خالقـاً مدبراً لشؤون الكون والإنسان كما يعتقد المسلمون ، وهم بالتالي لا يؤمنون بالحساب أو الثواب أو العقاب ، وإنما يؤمنون بما يشبه تناسخ الأرواح الذي يوجد مثله في الديانات الشرقية القديمة . ثم إن نظرة الفلسفة اليونانية إلى الأشياء نظرة حسية مادية ، والسعادةعند معظمهم سعادة هذه الدنيا ، ولا تتجاوز هذه الحياة .

• لذا فقد كان أمراً خطيراً أن تحتلّ هذه الفلسفة مكان الصدارة في الفكر الإسلامي بل وأن تعتبر ممثلة له معبرة عن قضاياه ، ولقد بلغ الاستهتار بكثير ممن يسمونهم بفسلاسفة الإسلام كابن سينا والفارابي ، انهم نقلوا هذه الفلسفة كما هي وتبنوها على صورتها اليونانية ، حتى جاء عدد من مؤلفاتهم نسخاً طبق الأصل عنها ... وهكذا كان لا بد لأبي حامد الغزالي من أن يندب نفسه لوضع هذه الفلسفة في مكانها الصحيح ، فلا يغتر بها المغترون ، ولا تنتظر أكثر مما تستحقه من التقدير .

• وكان شيخنا أبو حامد أصلح من يقوم بهذا العمل ، ذلك لأنه درس الفلسفة اليونانية دراسة المتعمّق المتخصص ، وألف فيها كتاب المقاصد ، عرض فيها هذه الفلسفة عرضاً موضوعياً محايداً على شكل لم يسبق إليه أحد من الذين تشبعوا بهذه الفلسفة من المسلمين .

• وهكذا عرض الغزالي في تهافته ، وفي تسع وعشرين بحثاً ، مسائل الفلسفة

اليونانية وأقوال بعض فلاسفة الإسلام عرضاً منصفاً، وبيّن ما هو منها مخالف للإسلام مخالفة صريحة واضحة ، وما هو دون ذلك ، وانتهى إلى تكفير الفلاسفة في ثلاث مسائل هي :

١ ــ مسألة قدم العالم ، وقول الفلاسفة إن الجواهر كلها قديمة .

٢ ــ قولهم إن الله تعالى لا يحيط علماً بالجزئيات الحادثة من الأشخاص .

٣ ــ إنكار بعث الأجساد وحشرها .

* ومع أن ابن رشد حاول أن يردّ على هذا الكتاب ، فألف في نقضه كتاباً سمّاه « **تهافت التهافت** » يقصد تهافت كتاب الغزالي ، إلاّ أنه لم يكتب لمحاولته هذه قدر من النجاح ، وبقي كتاب الغزالي قاصمة الظهر للفلسفة اليونانية في المشرق الإسلامي إذ لم تقم لها بعده قائمة .

* أما قيمة هذا الكتاب بالنسبة لنا فهو مثل على ما يمكن أن تؤدي إليه الدراسة الجادة من تغيير لمعالم الفكر ، وهو حافز لنا على أن نعالج ما يجد علينا من تحديات فكرية بمثل هذه الروح ، ولعل خير ما نختم به هذه الحلقة أن نسجل ما قاله الأستاذ شبلي النعماني ، من أركان الثقافة الإسلامية في الهند عن هذا الكتاب :

« لا وجود الآن لأولئك الملاحدة ولا لتلك العلوم اليونانية ، ولا يعتقد سبقها وصحتها المتنورون ولا من يدعي الفطنة ، لذلك فقدت تأثيرها ولا خطر على الإسلام اليوم منها، وقد احتلّت مكانها علوم حديثة وقضايا جديدة، وقد أصبح من الضروري أن يطلع علماؤنا على الأبحاث الجديدة والعلوم العصرية المفيدة ليقدموا حلولاً للمعضلات الحديثة ، وليردوا على الشبهات ردّاً علمياً مؤسّساً على الدراسة والتحقيق » .

- ١٨ -

عالم من المغرب : أبو بكر بن العربي
(٥٤٣ هـ)

هو أبو بكر محمد بن عبد الله العربي الإشبيلي .

في ثقافتنا الإسلامية ، وفي تاريخ أعلامها العظام ، ظاهرة متميّزة ندر أن تلقاها في ثقافة أخرى أو تاريخ آخر ، تلك الظاهرة هي الرحلات الطويلة في طلب العلم وتلقيه من أصحاب الاختصاص ، فقد كان علماء المسلمين مؤمنين بأن العلم لا يستنبط من الكتب فحسْب ، وإنما يكون العالم عالماً بمقدار ما يلقى من أصحاب الاختصاص والمعرفة كل في الفن الذي يجيده . لذا فقد كانوا يغادرون ديارهم للأخذ عن العلماء الآخرين ، وكان الحرص على تحري الحقيقية يبلغ ببعضهم إلى السفر الطويل لسماع مسألة واحدة من عالم مختص ، أو حديث واحد يرويه محدث معروف .

• ولعل من أوضح الأمثلة على هذه الظاهرة عالمنا الجليل أبو بكر بن العربي .

• وُلد في اشبيلية سنة ٤٦٨هـ وتلقى فيها علومه الأولى ، وقد حدّث عن نفسه فقال : « حذقت القرآن وأنا ابن تسع سنين ، ثمّ ثلاثاً لضبط القرآن والعربية والحساب ، فبلغت ست عشرة سنة وقد قرأت من الأحرف — يعني القراءات — عشرة ، وتمرنت في الغريب والشعر واللغة » .

• ثم رحل عن إشبيلية في السابعة عشرة من عمره في رحلة طويلة استمرّت

أكثر من ثماني سنوات قضاها في تلقي العلم والتعرّف على العلماء .

• حضر في الجزائر على علمائها ، ثمّ التقى في ثغر المهدية من المغرب بعدد من المفكرين وأخذ عنهم ، وكان منهم خاصة الإمام المعروف أبو عبدالله محمد بن علي المازري .

• ثمّ شاء الله أن تقع له في رحلته أحداث وأهوال ، وأن يطلع على أحوال كثير من بلاد العالم الإسلامي في شمالي إفريقيا ، وقد سجل هذا كلّه في كتاب سمّاه « ترتيب الرحلة للترغيب في الملة » إلاّ أنه يعتبر مفقوداً حتى الآن .

• وحين كتب له النجاة وصل إلى مصر وكانت تحت الحكم الفاطمي ، ولم يكن من السهل عليه أن يلقى علماء أهل السنّة ، إلاّ أنه كان حريصاً على الاجتماع بهم والأخذ عنهم ، فكان يفتش عنهم ، حتى كان يذهب إلى المقبرة الصغرى قريباً من قبر الإمام الشافعي ليلقى أحد مشايخه .

• وفي القدس التقى بعالم مغربي آخر كان يدرّس في القدس وهو أبو بكر الطرطوشي من كبار فقهاء المالكية في الأندلس والمغرب ، فاخذ عنه واستفاد منه كثيراً كما أشار إلى ذلك صاحب نفح الطيب وهو مغربي أيضاً .

• وحين كان في دمشق أخذ عن عدد من علمائها وفقهائها وعلى رأسهم شيخ الشافعية الحافظ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي .

• ثمّ حطّ الرحال في بغداد التي ظلّت ... رغم المصائب التي توالت عليها — محجة العلماء ومقصد المتعلمين ، وقد تهيأ له فيها أن يتلقى العلوم عن أهلها حتى برع في علوم السنّة وتراجم الرواة وأصول الدين وأصول الفقه وعلوم العربية والآداب .

• وقد كانت عودته إلى إشبيلية رحلة علمية أخرى ، حتى وصل إلى الإسكندرية ، فبدأ فيها بكتابة أوّل مؤلفاته .

• وعندما وصل إلى بلده استقبله أهلها استقبالاً لا نظير له ، وقصده طلاب

العلم من كلّ حدب وصوب ، وتحوّل منزله إلى جامعة كبيرة ، وظلّ يفتي ويدرس أربعين سنة كان فيها مثال العدل والاستقامة وحسن القيام بأمر القضاء .

• وكان من تلاميذه القاضي عياض ، وابن رشد العالم الفقيه الشافعي المعروف والد الفيلسوف أبي الوليد . أما مؤلّفاته فقد جاءت متنوّعة في موضوعاتها ، جليلة في أغراضها جديدة في أسلوبها .

• من هذه المؤلفات : أنوار الفجر في تفسير القرآن (٩٠ مجلداً) ، الإنصاف في مسائل الخلاف (٢٠ مجلداً) أحكام القرآن ، الناسخ والمنسوخ في القرآن ، ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك ، والعواصم من القواصم موضوع حديثنا ، وغيرها كثير .

رحمه الله رحمة واسعة ، وأسكنه جنانه .

• أما عن اختيارنا — كتاب العواصم دون سائر كتبه ليكون موضوع حديثنا فإن له سبباً .

• ذلك أن التاريخ الإسلامي تعرّض — وما يزال — لكثير من محاولات الدس والتزييف والتشويه ، وقد اشترك في هذه المحاولات عناصر كثيرة لا مجال لتفصيل الحديث عنها الآن ، ويعتبر كتابنا أوّل محاولة علمية جادة لكشف هذا الزيف والتشويه ، وعرض أحداث تاريخنا على حقيقتها ، ودون أن تفقد موضوعيتها.

• سماه بهذه التسمية لأنه مقسم إلى « قواصم » يعني نوائب أو حوادث فاجعة أو تشويهاً خطيراً لأحداث تاريخية هامة ، و « عواصم » يعني مواقف تعصم الإسلام من شر كبير أو تصحيحات تقوّم انحرافات المتخرصين .

• ويقع هذا الكتاب في جزءين ، والجزء الذي نهتم بالإشارة إليه ، هو مبحث الصحابة أحد مباحث الجزء الثاني من الكتاب ، والكتاب بأكمله موجود ، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، ونسأل الله أن يكتب له أن يرى النور .

* في المبحث الذي أشرنا إليه – وهو مطبوع – يصحح المؤلّف الأخطاء التي وقع فيها بعض المؤرخين سهواً أو عن قصد وسوء نية في حياة الصحابة والتابعين خلال المائة الأولى من هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام .

* ولا شك أن تشويه أحداث هذه الفترة يؤدي إلى تحقيق غرضين من أغراض أعداء الإسلام أوّلهما : تقليل أهمية وقيمة هذه الحقبة من تاريخ الإسلام ، مع أنها كانت من معجزات التاريخ.. إن العمل الذي قام به أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمة الرومان ولا أمة اليونان قبلها ولا أمة من الأمم بعدها .

* فلقد كتب للإسلام أن ينتشر أوسع انتشاراً ، وكتب للدولة الإسلامية أن تمتد رقعتها أكثر مما امتدّت في سائر القرون التي تلتها ، بل اننا نستطيع أن نقول بأننا ندين بوجودنا وعقيدتنا لهؤلاء الرجال الأعلام الذين عمر بهم هذا القرن وخلدتهم صفحات التاريخ .

* أما ثاني هذين الغرضين فهو القضاء على المثل والقدوة الصالحة في حياة المسلمين ، ولا شك أن الأمم تحذو في سيرها الطويل حذو أبطال تتخذهم أسوة لها تسلك مسلكهم وتسير مسيرتهم ، وأصحاب رسول الله ﷺ ، هم قدوتنا في ديننا ، وهم حملة هذا الكتاب الإلهي والسنّة المحمدية ، ولعلّك تقدر معي مستمعي الكريم مقدار الخسارة التي تصاب بها هذه الأمة إذا ما تحطمّت هذه المثل السامقة ... إنها إذا تحطّمت فقد تحطم كل معنى للقداسة في الأمة .

* وزاد في أهمية هذا الجزء تعليقات أستاذنا الجليل محب الدين الخطيب أمد الله في عمره ، فقد أربت على أصل الكتاب ، والذين قرأوا لأستاذنا الجليل أو استمعوا له يدركون مدى إحاطة هذا الإنسان بعقيدة الإسلام وتاريخه ، ويقدرون بالتالي أهمية هذه التعليقات .

* فهل تريد يا أخي القارىء مرجعاً ثقة صادقاً ، وهل تريد أن تقف على حقيقة ما حيك لتاريخك من دسائس ، إذن ، عليك بقراءة العواصم فإنه يعصمك من القواصم كلّها .

- ١٩ -

المحدث المؤرخ : ابن عساكر
(٥٧١ هـ)

محدّث كبير ، ومؤرخ شهير ، وأديب مطبوع هو الحافظ ابن عساكر ، عليّ بن الحسن بن هبة الله الشافعي .

• ولد بدمشق سنة تسع وتسعين وأربعمائة هجرية ، وأقبل على تلقي العلم منذ نعومة أظفاره ، فقد بدأ بالسماع وهو ابن ست سنين ، وكان للبيئة التي نشأ فيها أثره الواضح على هذا الاقبال المبكر ، فقد كان أبوه الحسن بن هبة الله شيخاً صالحاً عالماً ، وكان أخوه الصائن فقيهاً ثقة سمع كبار رجال عصره وعني بعلوم القرآن والنحو واللغة. اما جدّه لأمه يحيى بن عليّ بن عبد العزيز فقد كان فقيهاً محدثاً عالماً بالنحو والعروض .

• لم يقنع ابن عساكر بما حصله من العلم في دمشق وكانت يوم ذاك مركزاً هاماً من مراكز الثقافة والفكر ، ولكنه — شأن سائر علماء عصره — شدّ الرحال في طلب العلم والاجتماع بكبار أصحاب المعرفة في كل ناحية وفن ، فسافر إلى بغداد ، ثم إلى خراسان ، وطوف في جميع البلاد التي تعرف اليوم باسم ايران وافغانستان واذربيجان حيث لقي العلماء والمحدثين والأدباء ، وحيث جلس للحديث في عدد من حواضر العالم الاسلامي كنيسابور وأصبهان .

• وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة بدأ الحافظ مرحلة جديدة إذ تفرغ للعطاء تدريساً وتأليفاً وكانت مرحلة خصبة مليئة بالانتاج المتنوع الوفير ، حتى

أصبح امام عصره وانتهت إليه الرئاسة في الحفظ والاتقان والمعرفة التامة بالحديث والتاريخ . وقد شجعه الأمير نور الدين الشهيد على تأليفه لتاريخ دمشق ، كما اسس له دار الحديث وهي أول مدرسة تنشأ في الإسلام للحديث خاصة، وتولى ابن عساكر التدريس فيها ثم خلفه عليها ابنه وبنو عساكر وتخرج منها كبار العلماء في القرنين السادس والسابع .

• بلغ عالمنا ارفع المراتب العلمية وتمدح العلماء بالألقاب التي يطلقونها عليه ، فقالوا : ثقة الدين ، وصدر الحفاظ ، وناصر السنة ، وجمال السنة ، والثقة والحافظ وهو اشهر القابه .

• ترك ابن عساكر مؤلفات كثيرة تنوف على الستين في مختلف العلوم والفنون على أن أهمها في الحديث والتاريخ وفضائل المدن والرجال . على أن أعظم هذه المؤلفات شأناً هو تاريخ مدينة دمشق » الذي يعدّ أوسع ما ألف عن هذه المدينة الشهيرة وأكثر شمولاً إذ لم يؤلف مثل هذا التاريخ في سعته واحاطته قبله ، ولم يلحق بالحافظ أحد ممّن ألف في تاريخ المدن بعده .

• وفي أوائل عهد صلاح الدين الأيوبي أي في سنة احدى وسبعين وخمسمائة ختمت حياة هذا الرجل العظيم الحافلة بالجدّ والعلم، وخرج صلاح الدين يشيع جنازته ودفن بمقبرة الباب الصغير في دمشق إلى جانب حجرة معاوية .

طيّب الله ثراه ، ورحمه وارضاه .

* * *

قالوا في الاسلام :

• يقول الشاعر المهجري المعروف رشيدسليم الخوري«إني لموقن ان الانسانية بعد أن يئست من كل فلسفاتها وعلومها وقنطت من مذاهب الحكماء جميعاً ، سوف لا تجد لها مخرجاً من مآزقها وراحة لروحها وصلاحاً لأمرها الا بارتمائها في حضن الاسلام ، اذ تجد فيه حلّاً لمشكلة الحياة والتوفيق بين قوى الانسانية جميعاً جسداً وعقلاً وروحاً . »

- ٢٠ -

المؤرخ : عز الدين بن الأثير
(٥٦٣٠ هـ)

هو عز الدين بن الأثير ، عليّ بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ، وُلد في جزيرة ابن عمرو سنة خمسمائة وخمس وخمسين من هجرة الرسول عليه السلام ، وهي الآن من أعمال تركيا وتقع على الحدود التركية العراقية.

• وكان علمُنا أحد ثلاثة إخوة اشتهروا في تاريخ الفكر الإسلامي ، أما أكبرهم سنّاً ، مجدُ الدين ، فقد كان ذا باع طويل في الحديث وقد ترك لنا « جامع الأصول في أحاديث الرسول » جمع فيه بين الصحاح الستة ، وأما أصغرهم سنّاً ، ضياء الدين ، فقد كان علماً في الأدب العربي ، خلّف للمكتبة العربية كتاب « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » ، وأما أوسطهم ، صاحبنا عز الدين ، فقد كان مؤرخاً مشهوراً ولا نظن أحداً من المبتدئين أو المختصين في الثقافة الإسلامية إلاّ وقد سمع بالكامل، لابن الأثير أو استفاد منه ورجع اليه .

• نشأ مؤرخنا في أسرة ذات وجاهة ويسار ، فقد كان والده ئيساً لديوان الجزيرة ، وصاحب تجارة رائجة وزراعة ناجحة ، ويظهر أن المدينة الصغيرة ضاقت بالوالد وأبنائه النابهين ، فانتقل بهم إلى الموصل ، وكانت آنذاك حافلة بالعلماء والأدباء ، فأخذ عن مجموعة من أهل العلم فيها ، كابن شبّة النحوي ، وأبي الفضل عبدالله بن أحمد الطوسي ويحيى بن محمود الثقفي .

* ثم رحل ابن الأثير إلى بغداد لينهل العلم من منابعه الأصيلة ، فاتصل بعدد من العلماء وأخذ عنهم ، وعني بصورة خاصة بحضور مجالس أصحاب الحديث ، ولعل هذا سبب دقة تاريخه حتى عُدّ من أصح ما أُلّف في التاريخ الإسلامي ، فقد اعتمد طريقة المحدثين في تحرّيهم وإخلاصهم في النقل عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

* وسافر بعد ذلك إلى حلب ، فالتقى بالنخبة من أهل العلم منها ، ثم قصد دمشق ، وكان قد أصبح ذا قدم راسخة في العلوم كلّها ، وخاصة في التاريخ والحديث ، فأملى الحديث في مسجد بني أميّة ، ولكنه لم ينسَ طلب العلم ، فاتصل بعلماء دمشق يحضر مجالسهم ويأخذ عنهم ما اشتهروا به أو اختصوا فيه .

* كان عالمنا قد اتخذ بلدة الموصل مقرّاً وموطناً ، فأصبح معروفاً من أهلها ، ذا حظوة عند سلطانها ، حتى كان يعهد إليه بكثير من المهام السرية إلى الخليفة أو غيره . كما كان يقرأ له التواريخ وخاصة في شهور رمضان .

* ويظهر أنه كان يتنقل في الفترة الأخيرة بين الموصل وحلب ، وفي حلب تردّد عليه العلماء يستفيدون من معرفته ، وكان منهم ابن خلّكان صاحب وفيات الأعيان ، وياقوت الحموي صاحب المعجمين : معجم الأدباء ، ومعجم البلدان .

* وكان ابن الأثير على ثقافة واسعة ، فقد تنقل لتحصيل العلم بين الحواضر الكبيرة المعروفة آنذاك ، بغداد وحلب ودمشق والموصل ، وتهيأ له أن يلتقي بعلماء عصره المعروفين ، وصفه ابن خلّكان بأنه « كان إماماً في الحديث ومعرفته وما يتعلّق به ، حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، خبيراً بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم » . وقال عنه الذهبي إنه « محدث أديب نسّابة متقن إخباريّ ، أقبل في آخر عمره على الحديث إقبالاً تاماً وسمع العالي والنازل » .

* كانت أكثر شهرة عز الدين ابن الأثير في الحديث والتاريخ ، على أن أعظم أعماله كانت في التاريخ . ومن مؤلفاته « الكامل في التاريخ » و « اللباب

في تهذيب الأنساب » و « أُسْدُ الغابة في معرفة الصحابة » و « تاريخ الدولة الأتابكية » .

• توفي في الموصل سنة ثلاثين وست مائة من الهجرة ، ودفن فيها ، وقبره معروف حتى أيامنا . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه .

* * *

• أما الكتاب : فهو « الكامل في التاريخ » من أوسع الكتب التاريخية والتاريخ الإسلامي على وجه الخصوص شهرة ، وأكثرها انتشاراً . وليس ذلك بمستغرب ، فالكتاب خلاصة منتقاة لعدد من كتب التاريخ التي ألّفت قبل ابن الأثير أو في عصره ، نذكر منها كتب الطبري والبلاذري والمسعودي وابن الكلبي والقاضي الفاضل وغيرهما .

• قدم مؤلفه لكتابه بمقدمة منهجية ، نقد فيها كتب التاريخ من قبله ، فذكر أنها « بين مطول استقصى الطرق والروايات ، ومختصر أخلّ بكثير مما هو آتٍ » وان بعضها « ترك العظيم من الحادثات والمشهور من الكائنات » هذا بالإضافة إلى « أن الشرقيّ أهمل أخبار المغرب ، والمغربي أخلّ بذكر أحوال المشرق » مما جعل القارىء لا يستغني عن « الرجوع إلى المجلدات الكبيرة والمصنفات الكثيرة » .

• من أجل ذلك أدلى ابن الأثير بدلوه بين دلاء المؤرخين ، وحرص على أن يتجنب ما أخذه على السابقين ، وأن يجمع فيه جميع الحوادث المهمة في الشرق والغرب ، في الماضي والحاضر ، حتى اجتمع في كتابه على حد تعبيره « ما لم يجتمع في كتاب واحد » وحتى شهد له ابن خلّكان فقال : « إنه من أخيار التواريخ » وابن كثير فقال : « إنه من أحسن التواريخ حوادث » ، أما ابن حجر فقد قال عن الكامل : « إنه أحسن التواريخ بالنسبة إلى إيراده الوقائع موضحة مبينة حتى كأن السامع في الغالب حاضرها ، مع حسن التصرّف وجودة الإيراد » .

• بدأ ابن الأثير تاريخه على عادة معظم المؤرخين المسلمين من أول الزمان ،

ووصل به إلى آخر سنة ثمان وعشرين وست مائة ، اي قبيل وفاته بسنتين ورتبه ، على السنين ، إلاّ أنه كان يجمع أطراف الحوادث الكبيرة ويجعل الحوادث الصغيرة في آخر السنة ، فحين يذكر ملكاً من الملوك يترجم له ترجمة واحدة في مكان واحد ، ثمّ يعود إلى ذكر الحوادث كل السنة ويحرص على ذكر وفيات الأعيان والعلماء في آخرها .

* وكان يتحرّى اختيار الحوادث ، ولا يكتفي بجمع الروايات وتلخيصها ، بل كان يعمل النقد فيها ، ويحاول أن يجمعها ويستخلص القواعد العامة لها ويعلّلها ، وكثيراً ما كان يصيب في استقرائه وتعليله .

* أيها القارىء الكريم : كان كتاب الكامل وما يزال مصدراً هاماً للمؤرّخين الذين جاؤوا بعد ابن الأثير ، وقد تأثر به كثيرون منهم ، ونهجوا نهجه ، وعلّقوا عليه ، وأخذوا منه ، ونقل منذ القرن التاسع الهجري إلى اللغة الفارسية .

- ٢١ -

صاحب المعجمين : ياقوت الحموي
(٥٧٤ - ٦٢٦)

• ياقوت بن عبدالله الحموي شيخ كتاب العربية في الاعلام والبلدان .

• ولد سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، ولا نكاد نعلم شيئاً عن حياته الأولى ، ولا عن اسرته أو ابيه او بلده ، وكل ما نعلمه عن هذا انه روميّ أسر وهو صغير وحُمل إلى بغداد فابتاعه تاجر حموي . وأُطلق عليه اسم ياقوت ، وهو اسم كان شائعاً بين الرقيق ولما كان والده مجهولاً فقد قالوا ياقوت بن عبدالله ، اما نسبة « الحموي » فهي لمولاه الذي اشتراه ، لا لأنه ولد في حماة .

• وكان مولاه تاجراً فوضعه في الكتاب حتى تعلم القراءة والكتابة ، فأصبح يعمل معه في ضبط تجارته ، ثم صار مساعداً له ، فتعرف بسبب ذلك على بلاد متعددة ، وعندما بلغ الحادية والعشرين أعتقه فترك العمل عنده .

• وكان طيلة هذه المدة ينمي ثقافته كلما أمكن له ذلك ، وأولع خاصة بالنحو واللغة وعندما ترك العمل التجاريّ انصرف إلى القراءة والمطالعة ، واشتغل بنسخ الكتب ، فاستفاد من هذا العمل ، واطلع على كثير من نتاج الثقافة الاسلامية والعربية في مختلف العلوم والفنون .

• ثم عادت الصلة بينه وبين مولاه . فاصبح شريكاً له في تجارته ، إلى ان توفي هذا الأخير فاستقل بالعمل ولكنه قصر تجارته على الكتب ، فكان ينتقل

في أقطار العالم الإسلامي يعرض ما عنده ويتصل برجال الفكر والعلم والأدب ، فقصد الشام وتجول في بلدانها ، والتقى علماءها ، وناظر بعضهم ، وأصابه بعض العنت بسبب آراء خاصة له لم ترق لمناظريه . ثم سافر إلى شماليّ العراق ، وقصد منها إلى خراسان ، وطاب له المقام في مدينة مرْو لحسن مناخها وطيب معشر سكانها ، وعكف فيها على كتابة معجم البلدان ، أوسع ما ألف حتى الآن في التعريف بالأقطار والبلاد ، ولكنه اضطر إلى الخروج منها عند مجيء التتار .

• ومرّ ياقوت بعد ذلك بمرحلة قاسية من حياة التعب والشقاء وشظف العيش لأنه سافر إلى بلدة أخرى في خراسان فلم يعجبه جوها ، فانتقل إلى خوارزم فكره شتاءها ، وكان يمكن أن يقيم فيها لولا وصول التتار اليها فاضطر إلى مفارقتها تاركاً كل ما يملك ..

• ثم امضى مدة بالموصل كاتب خلالها الوزير القفطي الكاتب المعروف ، وكان وزير حلب ، حتى قدم عليه ولازم بيته ومكتبته يستفيد منها في اكمال ما بدأه من المؤلفات لمعجم البلدان ومعجم الادباء حتى وافاه الاجل المحتوم سنة ست وعشرين وست مائة .

• وتبدو ثقافة ياقوت الواسعة العميقة في جميع ما ألّف وخاصة في المعجمين : معجم البلدان ومعجم الادباء . أما في معجم البلدان فقد سلك منهجاً فريداً ، اذ هو عندما يتحدث عن البلدان يبدأ دائما بضبط اسم البلد ويذكر اشتقاقه وعرضه وطوله وأثر الكواكب فيه . وخواصه الطبيعية ، ومعادنه وسكانه ، والحوادث التاريخية التي جرت فيه ، والأعلام الذين خرجوا منه أو نسبوا اليه . وهكذا يبدو ياقوت في هذا المعجم مؤرخاً بما يذكر من فتوح البلدان واحكام اراضيها ، واخبارياً بما يروي من اخبارها ، ولغوياً بما يذكر من اشتقاق اسمائها وصيغها ، وجغرافياً بما يذكر من أقاليمها وأوصافها ، ونسّابة بما يذكر من رجالها الذين نسبوا اليها ، واديباً بما يروي من الأشعار التي قيلت فيها . وندر أن تجد كتاباً جامعاً للعلم مثله .

• أما معجم الادباء . أو ارشاد الأريب إلى معرفة الأديب : فقد جمع فيه أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء والاخباريين والمؤرخين والورّاقين والكتاب ، وكل من صنف في الأدب .

• وانت تجد في هذين الكتابين ما لا تجد في غيرهما . لأنه اعتمد على مصادر كثيرة لم يصل أغلبها إلينا ، وكان يتحرى الدقة في اثبات ما يجب أن يثبت وطرح ما يجب ان يطرح ، ويعرض الاخبار على الشك والنقد حتى تتبين له الحقيقة وهذه هي طريقة العالم المدقق الباحث الامين .

رحمه الله وغفر له .

obeikandl.com

- ٢٢ -

سلطان العلماء : العز بن عبد السلام
(٥٦٠ هـ)

هو سلطان العلماء أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السّلمي الدمشقي المشهور بالعز بن عبد السلام ، أحد العلماء العاملين الذين نذروا أنفسهم للجهر بكلمة الحق ، وتحملوا في سبيل ذلك العنت الكبير ، ولكنهم مع كلّ ما أصابهم رفضوا أن يهادنوا أو يساوموا على موقفهم ، وقد بذلت أمامهم الدنيا بكل ما فيها من جاه ومال وسلطان ، إلاّ أن ذلك كلّه لم يعدل عندهم جناح بعوضة ليستحق أن يحولهم عما يعتقدون أنه الحق .

* وقد كان عالمنا في هذا الطريق الذي اختطه لنفسه حلقة من السلسلة العظيمة التي كان منها سعيد بن جبير ، والإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك ، والإمام ابن تيمية والإمام محمد بن عبد الوهاب ، وذلك مصداق لحديث الرسول عليه السلام « لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم » .

* وُلد العزّ بن عبد السلام في دمشق سنة ٥٧٧هـ ، ونشأ في أسرة رقيقة الحال فلم يتهيأ له أن يبدأ الدراسة وهو صغير ، إلاّ أنه حين بدأ التحصيل أقبل عليه بهمة لا تعرف الملل ، فحصّل في مدّة وجيزة ما يعجز عنه الكثيرون .

* وكعادة السالكين في دراسة العلوم اللغوية والدينية ، فقد درس الشيخ العلوم العربية والدينية بمختلف فنونها وأنواعها من نحو وبلاغة وحديث وفقه وأصول ،

وحضر على كبار أئمة العلم في عصره .

• سمع الحديث من أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير علي ابن عساكر محدث دمشق ومؤرخها ، ودرس الفقه على الإمام فخر الدين بن عساكر ، وأخذ علم الأصول عن العالم الثقة سيف الدين الآمدي ، وسافر إلى بغداد فتتلمذ على عدد من علمائها المشهورين .

• وقد وهبه الله بالإضافة إلى ذلك فهماً عميقاً وذكاء نادراً ، فأصبح من كبار علماء عصره حتى لقب بسلطان العلماء، وبلغ مرتبة عالية في الفقه والأصول، والفهم الشامل لحقائق الشريعة الإسلامية ومقاصدها ، والإحاطة بروح الإسلام إحاطة قلمّا تتأتّى لإنسان، حتى وصل مرتبة الاجتهاد ، قال السيوطي : « ثم كان في آخر عمره لا يتعبد بالمذهب ، بل اتسع نطاقه ، وأفتى بما أدّى إليه اجتهاده » .

• وقد تهيأ لشيخنا أن يمارس ما تعلمه أو فقهه عن طريق الكتب ، وعمل في القضاء فترة من الوقت ، وفي الإفتاء طول حياته ، فكان مثال الاستقامة والنزاهة في قضائه وفي فتاويه ، وحادثة أمره ببيع أمراء الأتراك المماليك في القاهرة لحساب بيت مال المسلمين خير شاهد على ما نقول .

• عاش سلطان العلماء في عصر مضطرب ، فقد منى العالم الإسلامي في القرون الثلاثة ، الخامس والسادس والسابع ، بسلسلة من الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، وأهمها حروب الصليبيين والتتار ، فاصطرع المسلمون مع بعضهم ، وضعفت نفوس الكثيرين حتى اتفق مع العدوّ الدخيل على أخيه ، وسكت كثير من العلماء عن الجهر بالحق ، واعتزل كثير منهم الحياة العامة .

• وفي هذا الجو الذي يوحي بالتشاؤم ويدفع إلى اليأس ، عاش سلطان العلماء ، فكان وجوده نسمة من نسمات الرجاء وعزمة من عزمات الإيمان ، أعاد إلى الأذهان صورة مشرقة للعالم العامل المجاهد الداعي إلى الحق .

• وقد كان من أهم صفات هذا الرجل العظيم جرأته النادرة في الحق وشدته

على المبطلين ، وسنشير إلى موقفين من مواقفه الرائعة أمام سلاطين عصره ، لنرى إلى أي حد كان هذا الإنسان واثقاً من الحق الذي يعتقد .

* فقد ذكر السبكيّ في طبقاته أن الشيخ عز الدين طلع إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة (في القاهرة) فشاهد العسكر مصطفين بين يديه ، ومجلس المملكة ، والأمراء تقبل الأرض أمامه ، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه : يا أيوب ، ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوىء لك ملك مصر ثمّ تبيح الخمور ؟ فقال : هل جرى هذا ؟ فقال الشيخ : نعم . الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات » يقول راوي الحكاية : « يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون » .

* فقال : يا شيخنا ، هذا من أيام أبي . فقال الشيخ : أنت من الذين يقولون : إنا وجدنا آباءنا على أمة » .

* وقد أمر السلطان بإقفال الحانة على الفور ، ثمّ يسأل الشيخ أحدُ تلاميذه ، أما خفته ؟ قال الشيخ : والله يا بني : استحضرت هيبة الله تعالى ، فصار السلطان أمامي كالقط .

* أما الموقف الثاني فهو موقفه من الملك الصالح إسماعيل ، فقد تحالف هذا الملك ، وكان في دمشق ، خوفاً على حكمه مع الصليبيين ، وتنازل لهم عن بعض المواقع ، فأنكر الناس الأمر وأفتى الشيخ عز الدين بتحريم بيع السلاح للإفرنج ، وكان الملك سمح لهم بذلك ، ولم يكتف شيخنا بإصدار الفتوى ، بل وقف على منبر جامع بني أمية ينتقد الملك الصالح ويذمه على فعاله الشنيع وقطع الدعاء له من الخطبة ودعا عليه ، والناس يضجون بالدعاء .

* وعزل الشيخ عن الخطابة واعتقل ، ثمّ طلب الخروج إلى مصر فسمح له ، إلاّ أن الملك الصالح رأى أن يستميل الشيخ إليه مرّة أخرى فأرسل إليه في الطريق رسولاً يبلغه رسالة الملك :

* قال له الرسول : بينك وبين أن تعود إلى مناصبك ما كنت عليه وزيادة ،

أن تنكسر للسلطان وتقبل يده لا غير . فقال الشيخ : والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبل يده ، يا قوم أنتم في واد وأنا في واد ، والحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به .

* فقال له الرسول : قد رُسمَ لي أن توافق على ما يطلب منك وإلاّ اعتقلتك ، فقال الشيخ : افعلوا ما بدا لكم .

* مع هذه الحياة العاصفة التي عاشها شيخنا سلطان العلماء فإنه لم يترك التأليف ، وقد كتب فأكثر الكتابة ، وأتقن وأجاد ، وأشاد بذكره في هذا المجال فحول العلماء وكبار المؤلفين ، وقد تناولت تآليفه فنوناً شتى : كالتفسير ، وعلوم القرآن ، والحديث والعقائد ، والفقه ، وأصوله ، والسيرة والتصوف ، وفضائل الأعمال . ويعدّ كتابه قواعد الأحكام موضوع حديثنا من أهم ما كتب .

رحمه الله ، وأجزل له أجر العاملين .

* * *

* أما الكتاب فهو « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » .

* وترجع أهمية هذا الكتاب التاريخية إلى أنه أول مؤلف يوضع خارج المذهب الحنفي لبيان القواعد الكلية أو ما يسمى بالاصطلاح التشريعي المعاصر : المبادىء التي تقوم عليها الشريعة الإسلامية .

* وقد اختلف العلماء في تعداد هذه القواعد وبيان الأسس التي تقوم عليها ، أما شيخنا فيرجع الفقه عنده كما يقول الجلال السيوطي إلى أساس واحد ، وهو اعتبار المصالح ودرء المفاسد ، فالكتاب يدور حول هذا الأساس « بناء الأحكام الشرعية على مصالح العباد ، وقد أثبت المؤلف نظريته بتطبيقها في المئات بل والألوف من المسائل .

* ولم يكن العز بن عبد السلام مبتدعاً في هذا ، لأن هذه النظرية تقوم على الحديث المعروف « لا ضرر ولا ضرار » ، وقد إعتبرها الأئمة المالكية والأحناف

قبله في كثير من الأحكام الفرعية . إلاّ أن سلطان العلماء أول من ألقى عليها ضوءاً أوسع ، وأثبت صلاحها في مسائل لا تحصى وأحكام لا تعد ، أصلية كانت أم فرعية .

* ومع أن شيخنا كان يكتب في عصر غلبت فيه الصنعة على اللغة حتى أفقدتها رونقها وبهاءها . إلاّ أنه استطاع أن يؤدي هذا الموضوع الصعب بعبارة عالية ، فقد كان واضح الأسلوب صافي الكلام ، مشرق البيان في كلّ ما عالجه من موضوعات ، نادر أن تجد في كتابته سجعاً أو تنميقاً ، وإذا ورد مثل هذا السجع كان سهلاً مشرقاً غير متكلف ولا مستقبح .

obeikandl.com

- ٢٣ -

مفسر الاحكام : أبو عبد الله القرطبي
(٦٧١ هـ)

• يعد ابو عبد الله القرطبي من كبار المفسرين الذين عرفهم تاريخ الثقافة الاسلامية ، كما يعتبر كتابه «الجامع لأحكام القرآن» من أوائل الكتب التي نهجت هذا النهج في استخراج الأحكام من كتاب الله يستعينون بها على حل مشكلاتهم ويقيسون عليها ما جد من مصالحهم .

• ولا يذكر المؤرخون تاريخ ولادة عالمنا الجليل محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي ، ولكنهم يتفقون على أنه توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة للهجرة ، وقد ولد في قرطبة من الأندلس المفقود ، وعاش حياة عبادة وصلاح وزهد ، وأتقن علوم العربية والعلوم الاسلامية جميعها ، وسمع الحديث عن عدد من الحفّاظ الثقات .

• ثم رحل إلى المشرق طلباً للعلم من مصادره فسمع وكتب ، وكان يقظاً حسن الحفظ مليح النظم حسن المذاكرة ثقة حافظاً ، وأخيراً استقر به المقام بمنية ابن خصيب في شمالي أسيوط بمصر ، فاتخذها داراً له ومقاماً ومركزاً للتدريس والتأليف ، ولم يتغير شيء من نمط حياته السابقة فقد بقي على زهده في الدنيا واشتغاله بالآخرة ، يملأ وقته بالعبادة والدراسة ويكفيه الثوب الواحد .

• ترك أبو عبد الله القرطبي عدة مؤلفات منها : التذكرة بأحوال الآخرة ،

والاسنى شرح أسماء الله الحسنى ، وقمع الحرص بالزهد والقناعة ، إلا أن الذي اشتهر به كتابه في التفسير الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمن من السنة وآي القرآن ، وقد طبع في عشرين مجلداً .

• ويعد هذا التفسير كما ذكرنا من أجل التفاسير وانفعها ، أستنط منه القرطبي القصص والتواريخ وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ ، وعني بذكر أسباب النزول والرد على أهل الانحرافات مع اهتمام خاص بإيراد المناسب من الأحاديث .

• ولعل خير دليل لنا على أسلوب هذا التفسير العظيم مقدمته التي وصفها المؤلف قال القرطبي : «فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع الذي استقل بالسنة والفرض ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ، رأيت أن اشتغل به مدى عمري وأستفرغ فيه قوتي ، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً يتضمن نكتاً من التفسير واللغات والاعراب والقراءات والردّ على أهل الزيغ والضلالات . واحاديثنا كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات جامعاً بين معانيهما ومبينا ما أشكل منهما بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف ، وعملته تذكرة لنفسي وذخيرة ليوم رمسي وعملاً صالحاً بعدموتي . قال الله تعالى « ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر» وقال تعالى : «علمت نفس ما قدمت وأخرت» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث : صدقة جارية او علم يُنتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »

• وكان أبو عبد الله حريصاً إذا استفاد من قول أن يضيفه إلى قائله وإذا أورد حديثاً أن يذكر رواته وكان يكرر دائماً : «ان من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله».

• وفي ليلة الاثنين التاسع من شوال سنة احدى وسبعين وستمائة وفي منية ابن خصيب لقي القرطبي وجه ربه ، راضياً مرضياً . رحمه الله وأجزل له مثوبة العاملين .

- ٢٤ -

المؤرخ الأديب : ابن خلّكان
(٦٨١ هـ)

ففيه مشهور وأديب مطبوع وعالم بالتاريخ والرجال ، ذلك هو أحمد ابن محمد بن إبراهيم بن خلّكان ، صاحب (وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان

• ولد ابن خلّكان في (إربل) سنة ثمان وستمائة من اسرة كريمة عرفت بالعلم والشرف ، وكان أبوه مدّرساً في المدرسة المظفرية التي أسسها الملك المظفر كوكبوري لتدريس الحديث ، فكان العلماء والمتعلمون يقصدونها وينزلون فيها ، وكان الملك المذكور يغدق على هذه المدرسة من العطاء والمرتبات ويهيء للدارسين والمدرسين حياة هادئة لينصرفوا إلى العلم المفيد .

بدأ أحمد بن خلكان حياته العلمية في المدرسة المظفرية برعاية اصدقاء أبيه من الشيوخ المدرسين وكان والده توفي بعد ولادته بقليل ، وسمع صحيح البخاري مبكراً على الشيخ محمد بن هبة الله ، وفي السابعة عشرة قرأ الفقه والخلاف على المفضل الأبدي . وقد أتاحت له إقامته في إربل وهي حاضرة الملك المظفر آنذاك أن يلتقي رجال العلم والأدب الذين كانوا يفدون عليها ، ثم كان يتردد على مدينة الموصل وكانت في ذلك الوقت مركزاً علمياً مرموقاً .

• إلا أنه كعادة النابهين من علماء المسلمين لم يكتف بما حصله على أيدي علماء بلده وما حولها فطمح الى مزيد من العلم والمعرفة وهكذا قرر السفر إلى

حلب فترك إربل وهو في العشرين من عمره متوجهاً اليها حاملاً رسالة توصية من الملك المظفر إلى عالمين جليليين فيها هما: قاضي حلب أبو المحاسن بن شداد، والمؤرخ الشهير ابن الاثير ، وكانا على صلة علمية وثيقة بوالده .

* وقد وجد ابن خلكان من ابن شداد حدباً ورعاية وحباً خفف عنه وحشة الغربة فأقبل على العلم يعبّ منه وعلى العلماء ، يلتقي بهم ، ويصادقهم ويناقشهم ، وكان لابن شداد اكبر الاثر عليه في هذه الرحلة حتى كتب يقول عنه « وكان شيخنا ، وأخذنا عنه كثيراً وحصل الانتفاع بصحبته » .

* ثم قصد عالمنا الشاب إلى دمشق وهي يومئذ أرحب من حلب واوسع في ميادين العلم والادب ، تزخر بمئات المدارس وآلاف الطلاب وتلقى رعاية خاصة من ملوك الأيوبيين ، وهناك التقى بعالم دمشق الكبير ابن الصلاح فقرأ عليه الحديث والتفسير والفقه والرجال .

* ولم يقنع أبن خلكان بما حصل فترك الشام متوجهاً إلى مصر ، وطاب له المقام في القاهرة فتزوج بها وخالط علماءها ، وعاد إلى دمشق بعد أن غاب عنها ثلاثة وعشرين عاماً ، ولكن عاد اليها بحال جديد ، فقد تركها طالباً للعلم وعاد اليها قاضياً للقضاة بأمر من الملك الظاهر بيبرس .

* واستقر صاحبنا في دمشق يقضي بين الناس، ويشرف على قضاء الدولة ، ويدرّس في عدد من المدارس ، ويؤلف ، ويفتي في المذهب الشافعي ، ويشبع من حوله مرحاً ودعابة فقد كان حلو المحاضرة جيد الحديث، فأحبه الناس وتعلقوا به.

ويعدّ كتابه « وفيات الأعيان » افضل كتاب في التراجم عرفه تراثنا التاريخي . فقد بلغ مبلغاً عظيماً من الاتقان والتنقيح والتثبت ، ترجم فيه مؤلفه لطائفة من الأقدمين والمعاصرين له ، ورتب أسماءهم على حروف المعجم ، والتزم أن لا يذكر فيه إلا من وقف على تاريخ وفاته وثبت عنده ، وبلغ عدد من ترجم له ثمانمائة ، ليس بينهم أحد من الصحابة أو التابعين أو الخلفاء مكتفياً بالمصنفات الكبيرة التي ألفت عنهم .

• وكانت مصادره لتأليف هذا الكتاب ، الكتب القديمة ، وما خبره او سمعه وشاهده بنفسه ، وتبدو فائدة الوفيات في أنه يرجع إلى كثير من المؤلفات التي فُقدت أو جرت عليها عاديات الزمان وهذا ما يجعل له قيمة خاصة .

ومع كثرة المصادر الا ان ابن خلكان كان ينتقي منها انتقاء حسناً ، فهو لا يثبت الا الخبر الجيد أو الحادثة ذات المغزى أو القصيدة البارعة الحلوة، أما ما سمعه وشاهده فهو كثير أيضاً ويضفي على الكتاب الكثير من الحياة، وهو يقول في مقدمته « وأخذت من أفواه الأئمة المتقنين ما لم أجده في كتاب ، وخلاصة القول أنك تحس أثناء مطالعتك للوفيات بأنك أمام كتاب متقن منتج بذل مؤلفه في كتابته واختياره وصياغته جهداً شخصياً واضحاً ، فليست الترجمة عنده مواد تجمع وتسرد بل تجمع وتغربل وتصاغ صياغة جديدة .

• توفي ابن خلكان سنة احدى وثمانين وستمائة عن عمر ناهز الثالثة والسبعين . جزاه الله عن المسلمين خير الجزاء .

- ٢٥ -

طبيب من دمشق : ابن النفيس القرشي
(٦٨٧ هـ.)

هو العلامة الحكيم علاء الدين بن النفيس القرشي الدمشقي ، من أشهر مشاهير أطباء المسلمين وعلمائهم في القرن السابع الهجري .

* وُلد بدمشق سنة ٦٠٧ لهجرة الرسول عليه السلام ، أيام حكم السلطان الأيوبي العادل سيف الدين . وكانت دمشق في ذلك الحين تعيش في ظل نهضة علمية واسعة راسخة ، أرسى قواعدها وأقام أركانها السلطان الأيوبي الشهير نور الدين زنكي .

* وكان لهذا الرجل العظيم عناية خاصة بشؤون الطب والمستشفيات ، فقد أسس في عهده من المستشفيات ما لم يؤسس في عهد أي حاكم آخر . وتوافد الاطباء على دمشق من مختلف أنحاء العالم الإسلامي يضعون جهودهم ويبذلون طاقاتهم لخدمة الإنسان ورفع مستوى الصحة والعلاج في ذلك البلد الهادىء الأمين .

* في هذا الجو العلمي الصحيح ، القائم على الخبرة الطويلة والتجربة الأصيلة ، وعلى أيدي نُطُس الأطباء الذين أمّوا دمشق من كلّ مكان ، درس ابن النفيس علم التشريح وفنون الطب .

* ثمّ انتقل إلى المستشفى الكبير بدمشق للتدريب ، وليضع خبرته النظرية

موضع التجربة ، وكان مستوى هذا المستشفى لا يقلّ عن مستوى نظرائه من المستشفيات المعاصرة في أي بلد من البلاد الراقية ، كما كانت وسائل العناية بالمرضى فيه لا تختلف عن أحدث الوسائل المتبعة في المشافي الملحقة بكليات الطب الآن .

* وكان عالمنا زميلاً في الدراسة والتمرين لابن أبي أصيبعة ، صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وقد وصفه في كتابه بقوله : « كان علاء الدين إماماً في علم الطب لا يضاهي في ذلك ولا يداني استحضاراً واستنباطاً ، وله فيه التصانيف الفائقة »[1] .

* اشتغل ابن النفيس أول أمره ، في دمشق ، ثمّ استدعاه سلطان مصر الأيوبي الملك الكامل محمد ليستفيد من علمه وخبرته ، فعمل في أكبر مستشفياتها : في المستشفى الناصري ، ثمّ في المستشفى المنصوري ، وكان في مصر محفوفاً بالرعاية والإكبار ، وعليه وعلى العماد النابلسي — كما يقول ابن أبي أصيبعة — تخرج أطباء مصر والقاهرة .

* ولم تكن ثقافة عالمنا قاصرة على شؤون التشريح والطب ، وإنما كانت له مشاركة في فنون أخرى كالحكمة والمنطق والفقه وأصوله وعلوم العربية والحديث وكانت له بحوث فيها جميعاً ، ولئن لم يكن باعه فيها طويلاً كشأنه في الطب ، إلاّ أن مؤلفاته تدل على قدم راسخة له في جميع هذه الفنون .

ولئن عُرف عن بعض الحكماء — كابن سينا — بعض التساهل في أمور السلوك ، إلاّ أن عالمنا كان على غاية من الورع والصلاح والتقى ، يتحرى الاستقامة في كلّ عمل من أعماله ، حتى أنه في علّته التي توفي فيها نصحه بعض أصحابه الأطباء بأن يتناول شيئاً من الخمر إذ كان صالحاً بزعمه لعلّته ، فأبى أن يتناول شيئاً وقال : لا ألقى الله وفي باطني شيء من الخمر .

---

١ — من قسم نشره الدكتور يوسف العش ، من طبقات الأطباء في مجلة « المجمع العلمي » ولم ينشر في الكتاب .

* كان ابن النفيس يمثل مرحلة الأصالة والتجديد في الطب ، وقد دعا للخروج على القيود التقليدية ، والتحرّر من سيطرة الأطباء القدماء كجالينوس وأبقراط وابن سينا ، مع أنه كان معجباً بهذا الأخير ، حتى لقد شرح عدداً من كتبه ، إلا أن هذا لم يمنعه من الدعوة إلى تحري الاستفادة لما استجد من خبرة وتجارب وأساليب لم تكن معروفة لدى القدماء .

* وكانت له جولات واسعة في نقد جالينوس ، كما كان له الفضل في الكشف عن عدد من الوظائف الجسمية . وقد توصل لهذه النتائج بعد دراسات واسعة قائمة على الملاحظة الدقيقة والمنطق السليم .

* إلا أن أهم ما يسجل لعالمنا من كشوف ، هو شرحه للدورة الدموية بما يقارب ما نعرفه في أيامنا الحاضرة ، معارضاً بذلك جميع النظريات القديمة ، وقد أثبت العلم صحة رأيه .

* لقب ابن النفيس بابن سينا الثاني . ولئن لم تكن له شهرة الشيخ الرئيس ، فلأن معظم كتبه ومؤلفاته ظلّت مجهولة لدينا ، حتى قُيّض له من ينفض عنها الغبار منذ مدّة قصيرة ، ومنذ ذلك الحين أخذ العالم يعرف الكثير عن حياة هذا الرجل العظيم ، وجهوده الرائدة في تقدم العلم من أجل حياة أفضل للإنسان .

* توفي ابن النفيس بالقاهرة سنة ٦٨٧هـ ، وكان وفيّاً للعلم الذي نذر له حياته ، فأوقف أمواله وداره وكتبه للمستشفى المنصوري فيها .

رحمه الله ... وغفر له ... وأفسح له جنانه .

* * *

أما الكتاب : فهو « شرح تشريح القانون » :

* لقد خلف عالمنا ابن النفيس عدداً وافراً من الرسائل والكتب كالشامل في الطب ، والمهذب في الكحل ، والمختار من الأغذية ، وتعليق على كتاب الأدوية لأبقراط ، وشرح مفردات القانون ، وتفاسير العلل وأسباب الأمراض ،

لكن أعظم كتبه جميعاً هو كتاب « شرح تشريح القانون ».

* والكتاب شرح لبعض أجزاء القانون في الطب لابن سينا ، تلك الأجزاء التي تتعلّق بالتشريح بصورة خاصة . فالقانون كتاب عام في جميع فنون الطب ، وقد استطاع أن يفرض نفسه على العلماء والأطباء قروناً طويلة في العالم الإسلامي وفي أوروبا .

* إلاّ أن كتاب « شرح التشريح » لابن النفيس يمتاز بأنه يهتم بقسم التشريح فقط من مختلف أبواب الكتاب . فيشرحها ويتوسع فيها ويضيف إليها ما استجد من مكتشفات جديدة .

* وإليك بعض ما كتبه عالمنا في مقدمة هذا الكتاب ليتبيّن لك غرضه منه ، قال : « وبعد حمد الله والصلاة على أنبيائه ورسله ، فإن قصدنا الآن هو إبراز ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبي عليّ الحسين بن عبدالله بن سينا ، رحمه الله ، في التشريح في جملة كتاب القانون ، وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتاب القانون إلى ما قاله في الكتاب الثالث ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوماً » .

* وقد قُسّم الكتاب إلى عدّة أبحاث بيّن فيها مؤلّفه اختلاف أعضاء الحيوانات ، وقواعد علم التشريح ، والمبادىء التي يستخرج بها العلم بمنافع الأعضاء عن طريق التشريح ، وماهية التشريح وآلاته ، ثمّ يستعرض كل جزء من أجزاء الجسم الإنساني على حدة بدراسة تفصيلية دقيقة .

* إلا أن أهم ما في الكتاب نظريته في الدورة الدموية ، فقد مرّت هذه النظرية بمراحل متعدّدة ، فمن مرحلة الغموض ، إلى مرحلة تعتبر الكبد هو الأصل في الدم وحركته ، وتنظر إلى القلب على أنه لا قيمة له في حركة الدم ، إلى مرحلة جالينوس التي تابعه فيها ابن سينا والتي تميز بين حركة الأوردة والشرايين دون أن تدرك حقيقة ما يتم في القلب من تصفية للدم وتنقية » .

* حتى يجيء عالمنا في هذا الكتاب ليشرح الدورة الدموية الكاملة ، ويبين

أن القلب هو مركز حركة الدم ومكان تصفيته ، وان الدم المصفى يعود ليتابع دورته في الجسم الإنساني حاملاً إليها الغذاء والطاقة والحياة .

* أيها القارىء الكريم ، ليس في وسعنا أن نقدم لك دراسة شاملة لهذا الكتاب الهام ، ولكنها دعوة إلى المتخصصين المسلمين لدراسته ، فلعلنا نكشف عن شيء جديد انتحله غيرنا وكان الفضل فيه لحضارتنا الزاهرة .

obeikandl.com

- ٢٦ -

أديب من تونس : أبو محمد التيجاني
(٧٠٨ هـ)

كان للمسلمين عناية خاصة بالرحلات والأسفار ، وكان للمغاربة اهتمام شديد بها وولع خاص بتدوينها ... وتعدّ رحلة الحجّ بالنسبة للكثيرين منهم بداية رحلة أخرى تشمل معظم اقطار العالم الاسلامي ، ولم يكن هؤلاء ليكتفوا بالمشاهدة ، والنظر ، بل كانوا يسجلون مشاهداتهم ويدونون ملاحظاتهم حول مسالك البلاد ومهالكها ، ويحدثون عن بلدانها ، وعادات أهلها ، ويضيفون إلى ذلك الشيء الكثير عن ادبائها وعلمائها ورجال الحديث فيها حتى نشأ أدب خاص بالرحلات يهتم بمراعاة ذوق جمهور القراء ويسجل في الرحلة كل ما يمكن أن يقال عن البلد من الناحية الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية والعلمية .

وعلى هذا المنوال نسج القاضي أبو بكر العربي ، وابن جبير الوزير الأندلسي ، وابن بطوطة اشهر رحالة المسلمين . ومن هؤلاء عالمنا الذي نتحدث عنه عبدالله ابن محمد التيجانيّ .

ولد أبو محمد عبدالله بتونس في نهاية القرن السابع الهجري من عائلة معروفة بالعلم والأدب من قبيلة تيجان وتربيّ في حجر أبيه العالم الأديب ، ودرس على عدد من علماء تونس والمغرب وعقد صلات وثيقة بالعلماء والأدباء داخل القطر وخارجه ، وكان شغوفاً بالثقافة ووسائلها ، مهتماً بالكتب من كل صنف وفنّ ،

يملك مكتبة ضخمة تضم مختارات المصنفات وعدداً من المخطوطات النادرة والمؤلفات التي كتبت بخطوط اصحابها .

انضم إلى سلك كتاب ديوان الإنشاء عمل والده وادبائه ، وكان يحوى عدداً من أصحاب الأقلام المعروفين ، ثم استصفاه لنفسه كبير الدولة وشيخ الموحدين الامير أبو يحي زكريا بن اللحياني . وعندما اصبح هذا الأمير سلطاناً للبلاد وملكاً عليها ولىّ ابا محمد منصب كبير الديوان .

* وحين عزم السلطان أبو يحي على تفقد شئون المملكة – وكانت تشمل تونس وطرابلس الغرب – . وأذاع نيته على محاربة الأسبان الذين اغتصبوا جزيرة جربة وحدّد موعد سفره إلى تلك الجهة . عينّ أبا محمد لمصاحبته والاشراف على رسائله وكان أن كتب « تقييد الرحلة» يقصد رحلته في شمال افريقية وما جرى له فيها من أحداث .

* ويعد هذا الكتاب من غرر المصنفات التونسية ، بل لعله الوحيد من نوعه في وصف البلاد الأفريقية والتعريف بعمرانها في أوائل القرن الثامن للهجرة ، وقد حرص التيجانيّ على ذكر اخبار المدن والقرى التي مرّ بها بانفرادها وما مضى من احداثها مع التعريف بالنابهين من أبنائها وأسماء الأوطان والنواحي ومن يسكنها من القبائل ، كما اهتم بتدوين تقاليد هذه البلاد وعاداتها في افراحها وأحزانها مما يعدّ الآن ثروة ثقافية ضخمة لا غنى للباحث – في تاريخ هذه البلاد وأحوال الاجتماع فيها – عن دراستها .

- ٢٧ -

شيخ الاسلام : تقي الدين بن تيمية
(٦٦٣ - ٧٢٨ هـ)

• ان العَلَم الذي نتحدث عنه هنا هو شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية، احمد بن عبد الحليم الحراني الدمشقي . واما الكتاب فهو « الرد على المنطقيين » لامامنا المذكور .

• يزخر تاريخ الامم بالعظماء في كل علم وفن ، ويزخر تاريخ امتنا الاسلامية خاصة باعداد لا تحصى من النابهين النابغين في كل ميدان من ميادين الفكر ، وان نظرة على مكتبتنا الاسلامية المليئة العامرة تعطيك صورة واضحة لما نقول .

• ان بعض هؤلاء العظماء يؤثرون في مجتمعاتهم الخاصة، وبعضهم يتجاوز تأثيرهم عصرهم كله ، لكن قلة منهم يتجاوز اثرها العصور والمجتمعات فيلوحون من وراء كل دعوة اصلاح ، ويظهرون وراء كل حركة تجديد ، ومن هؤلاء شيخ الاسلام العظيم ابن تيمية .

• ولد امامنا في حران . وهي بلدة قرب الرها «اورفة» من اراضي الجزيرة بين دجلة والفرات . ثم انتقل به والده وهو بعد صبي صغير الى دمشق بعد غزو التتار لبلاده ، فنبغ فيها واشتهر .

• نشأ في اسرة تعنى بالعلم ، وقد حدثوا عن والده انه **«كان يلقي دروسه**

غير مستعين بقرطاس مكتوب أو كتاب يتلو منه أو مذكرات يستعين بها، بل كان يلقي الساعات من ذاكرته الواعية وعقله المستذكر» ، ولعل شيخنا اقتبس هذا عن ابيه فهي صفات بارزة فيه ، وكانت اخص صفاته التي كان يقرع بها الحجة ويشده بها المحارب ويتحير لها المناظرون والاقران .

* حفظ القرآن ، ودرس الحديث وسمع كل كتاب الصحاح عدة مرات ، واتقن العربية وعلومها ، وتوسع في دراسة الفقه ، وكان يجمع بين غزارة العلم : وعمق الاحاطة بعلوم الشريعة والعلوم الفلسفية والكلامية في عصره وقبل عصره .

* وكان شيخنا يتصف بثلاث مزايا اهلته لان يحتل مكانته العالية بين اعاظم مفكري الاسلام : اولها الجد والاجتهاد والانصراف الى المجدي من العلوم والدراسات والبعد عن لهو الصبيان وعبثهم ، وثانيها تفتح نفسه وقلبه لكل ما حواله ، يدركه ويعيه ، فلم يكن منطعا عن الحياة والاحياء الى الحفظ والاستذكار فحسب وثالثها الذاكرة الحادة والعقل المستيقظ والفكر المستقيم والنبوغ المبكر .

* كان من اكثر علماء الاسلام انتاجا وتأليفا ، ألف في معظم العلوم المعروفة في عصره ، وقيل أن تآليفه تزيد على أربعة آلاف كراس ، تصل الى ثمانمائة مجلد ، وقيل خمسمائة .

* لم يقتصر ابن تيمية على الجهاد بعلمه وقلمه ولسانه ، فقد كان فقيها عالما مجاهدا ، جرد السيف لقتال التتار ، وكان شجاعا في ميدان القتال كما كان شجاعا في ميدان العلم والفقه ، لم يتردد في الجهر بكلمة الحق ومصارحة الحكام بها ، وتعرض من اجل ذلك لمحن كثيرة حتى انه مات معتقلا في قلعة دمشق . وقد خرجت دمشق كلها في جنازته ، وكان ذلك سنة ٧٢٨هـ.

رحمه الله رحمة واسعة ، واسكنه فسيح الجنان .

• **اما الكتاب فهو «الرد على المنطقيين»** وهو من أعظم ما الفه شيخ الاسلام ابن تيمية ، ولو لم يكن له الا هذا الكتاب لكان كافيا لان يرفعه الى مراتب عظماء الفكر الانساني ، فكيف وثروته الفكرية الهائلة التي خلفها ندر ان تجد لها مثيلا عند أي مفكر آخر .

• تصدى شيخ الاسلام في هذا الكتاب للمنطق اليوناني كله ، او ما يسمى بالمنطق القياسي الذي بقي حتى عصره اسلوب الناس المفضل في التفكير والتعايل والتدليل والقياس ، بل لقد بقي هذا المنطق حتى ما بعد عصر النهضة الاوروبية المنطق السائد لدى العلماء والمثقفين ، فلم يكن امرا هينا ان يتصدى هذا العالم الجليل لهذا المنطق الراسخ في مختلف الثقافات وعند سائر الشعوب ، وقد كان كتابه قاصما للفكر اليوناني كما كان كتاب التهافت قاصما للفلسفة اليونانية ، وان لم يتح له ما أتيح للثاني من الانتشار فلطبيعة المنطق التي تدق على كثير من الافهام والعقول .

• لقد هاجم الغزالي الفلسفة اليونانية ولكنه قبل منطق ارسطو او منطق اليونان عموما ، وادخل هذا المنطق في الفكر الاسلامي وزجه مع علوم المسلمين والف فيه ، وقصد من ذلك ان يطلع العلماء المسلمون على أساليب الجدل اليوناني التي نشطت في نشرها الفرق الباطنية في ذلك العصر ، لكن ابن تيمية رفض ما قبله الغزالي وابى الا أن يكون الورد نقيا صافيا منبعا وطريقا وغاية .

• ونقد المنطق اليوناني يأخذ على يد ابن تيمية وجهة اخرى غير الوجهة المعروفة آنذاك فهو لم يهاجمه في صورة فتوى تقرر تحريمه وعدم الاشتغال به ، وانما اتخذ هجومه شكل النقد المنهجي الذي يعتمد على اسس منطقية واضحة ، وهكذا لم يكتف شيخ الاسلام بالقول ، ودلل على ذلك .

• واضاف الكتاب الى ذلك كله جانبا انشائيا ، وهو بناء منطق اسلامي يعتمده فكر اسلامي نقي خالص ...

• لم يطبع الكتاب الا مرة واحدة في الهند ، الا ان هذه الطبعة أصبحت نادرة ، وحبذا لو رأينا طبعة جديدة بين ايدي القراء لهذا الكتاب العظيم .

- ٢٨ -

الملك العالم : أبو الفداء
(٦٧٢ هـ.)

• هو الملك العالم المؤيد أبو الفداء ملك حماه ، إسماعيل بن علي بن محمود .

• وُلد أبو الفداء في دمشق سنة ٦٧٢هـ ، وهو أحد ملوك الأيوبيين على حماه وتوابعها ، وقد كان على الأيوبيين أن يقوموا بعملين جايلين استطاعوا أن يؤدوهما حق الأداء ، أما أولهما فهو توحيد العالم الإسلامي ، الذي كانت التفرقة أضعفته إلى الحد الذي جعله نهباً لكل طامع ، وأما الثاني فهو إخراج الصليبيين الغزاة من بلاد المسلمين .

• وقد شارك ملكنا المؤيد في كلا العملين منذ صباه ، فقد كان في الثانية عشرة من عمره حين حضر مع أبيه أول معركة له عند قلعة المرقب في شمال سورية ، وحين كان عمره سبع عشرة سنة كان يشارك في حصار طراباس الشام وكانت بأيدي الصليبيين .

• وبعد سنتين ، وكان في التاسعة عشرة ، شارك في فتوح عكا ، وفي السنة التالية كان يشارك في استخلاص قلعة الروم من الصليبيين ، وهكذا .

• وفي سنة ٧١٠هـ أصبح أبو الفداء نائباً على حماه وتوابعها ، ثمّ أصبح ملكاً عليها سنة ٧١٢هـ ولقب بالملك المؤيد ، ثم منح رتبة السلطنة بعد ذلك .

• كان محباً للعلم وأهله ، يقرب العلماء ويغدق عليهم ، ويجري على كل عالم وأديب ما يكفيه ، فأقبل عليه الشعراء والأدباء يمدحونه ويلهجون بذكره ، وأصبح بلاطه مجلسهم ونديهم .

• لقّب بالملك العالم ، ووازنه المؤرخون بالمأمون ، الخليفة العباسي ، فقالوا ليس بعد المأمون أفضل منه ممن جمع الملك والعلم معاً .

• ويظهر أن ملكنا العالم كان على ثقافة واسعة ومعرفة شاملة ، فقد جمع ما يتصل بالدين من فقه وقرآن وتفسير وأصول ، وأتقن علوم العربية من أدب ونحو وعروض وشعر ، ودرس الفلسفة والمنطق ، وبرع في علم الفلك والطب . ولم تخرجه دراسته للفلسفة والمنطق عن الاعتقاد الصحيح ، فقد بقي سليم العقيدة صحيح الفكرة حسن الاتجاه .

• إلاّ أن شهرة أبي الفداء كانت لمعرفته الواسعة بالتاريخ والجغرافيا وتأليفه فيهما ، وبهما اشتهر وعرف .

• خلف عالمنا ثروة ضخمة من التآليف والبحوث ، منها : نظم الحاوي في الفقه الشافعي ، وشرح الكافية في النحو ، وكتاب الموازين ، ومختصر اللطائف السنية في التواريخ الإسلامية ، وتقويم البلدان ، والمختصر من أخبار البشر وهو المعروف بتاريخ أبي الفداء .

• توفي أبو الفداء في حماه سنة ٧٣٢ من هجرة الرسول عليه السلام ، تغمده الله برحمته ورضوانه .

• أما الكتاب : فهو : « المختصر من أخبار البشر » أوسع كتب أبي الفداء شهرة بين الكتاب والمفكرين ، ويعد من أفضل ما ألّف في التاريخ . فقد اطلع مؤلفه على أهم كتب التاريخ المعروفة حتى ذلك الحين ، وعدد منها في مقدمته حوالي ١٥ مؤلفاً . منها ما هو موجود حتى الآن ، ومنها ما فقدته المكتبة الإسلامية مع الكثير الذي فقدته من كنوزها .

* سمّاه « المختصر » ليغني القارىء عن الرجوع إلى الكتب المطولة ، فقد قام بمهمة عظيمة هي : حذف المكرّر من الكتب وما أكثره ، واختصار المفضّل منها .

* ثمّ قسم كتابه إلى قسمين كبيرين : خصّص القسم الأوّل للتاريخ القديم أو تاريخ ما قبل الإسلام ، ويتألف هذا القسم من مقدمة وخمسة فصول ، ذكر فيها الأنبياء على الترتيب ، وملوك الفرس ، وفراعنة مصر ، وملوك العرب ، وسائر الأمم .

* أما القسم الثاني فقد خصصه للتاريخ الإسلامي ورتبه على السنين ، كما فعل ابن الأثير وغيره من مؤرخي المسلمين ، وهو يذكر في كلّ سنة ما وقع فيها من أحداث ، ويتبع ذلك بما جرى فيها من أشهر الوفيات . ويبدأ هذا التاريخ بالرسول عليه السلام وينتهي بسنة ٧٣١هـ أي قبل وفاته بسنة واحدة .

* ولم يقتصر تأريخه على جزء من العالم الإسلامي آنذاك ، بل كان شاملاً لجميع أنحاء هذا العالم ، وتبدو أهميته القصوى بالجزء المتعلّق بعصره ، لأنه عاصر هذه الفترة وعاش أحداثها ، فاستطاع أن يصفها وصفاً صادقاً أميناً .

* كان تاريخ أبي الفداء موضع ثناء المعاصرين والمتأخرين ، وترجمت أقسام منه إلى عدد من اللغات الأوروبية .

- ٢٩ -

العالم العامل : ابن قيم الجوزية
(٧٥١ هـ)

هو ابن قيم الجوزية ، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي .

• وحين نتكلّم عن ابن القيّم فإننا نتكلّم عن باحث حرّ قوي الشخصية ، اعتاد أن يعمل فكره في كلّ مسألة ، فلا يلتزم برأي غيره دون حجة أو دليل ، حتّى ولو كان هذا الغير ، شيخه العزيز عليه ، تقي الدين بن تيميّة ، إذ أنه مع طول ملازمته له والّتي استمرّت ستة عشر عاماً ، كان كثيراً ما يناقشه ويرد على رأيه بما يبدو له أنه أرجح منه حجة ، وأقوى منه دليلاً .

• وُلد شمس الدين بن القيّم في دمشق سنة ٦٩١هـ وتوفي فيها سنة ٧٥١هـ ، وتتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيميّة منذ سنة ٧١٢هـ حتّى وفاته سنة ٧٢٨ وسجن معه في قلعتها .

• عرف عنه ملازمته للاشتغال بالعلم في الليل والنهار ، واشتهر بحسن الخلق ، وشدّة الوفاء والتودّد إلى الأصدقاء . وكان كثير العبادة والصلاة ، وقد حدّثوا عنه أنه كان إذا صلّى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتّى يتعالى النهار ، ويقول : هذه غذوتي ، ولو لم أقعدها سقطت قواي .

• راع ابن القيّم تعصب الناس لمذاهبهم أكثر من تعصبهم للحق ، حتّى يصل التعصب ببعضهم ليقول : « كلّ آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤولة

أو منسوخة ، وكلّ حديث كذلك فهو مؤول أو منسوخ » ، فأعلنها حرباً على التقليد المتعصب الأعمى ، ودعا القادرين على الاجتهاد إلى الاجتهاد .

* ولكن ! هل يعتبر كلّ تقليد تقليداً محرماً لا يجوز الاقدام عليه ؟ .. ميّز ابن القيّم بين نوعين من التقليد : أحدهما محرم والآخر محمود .

* أما التقليد المحمود ، فهو تقليد من بذل جهده في اتباع ما أنزل الله ، وخفي عليه بعضه . فقلّد فيه من هو أعلم منه .

* وأما التقليد المحرم فأنواع ثلاثة : أولها ، الإعراض عما أنزل الله وعدم الالتفات إليه اكتفاء بتقليد الآباء . وثانيها ، تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يؤخذ قوله . وثالثها ، التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد .

* لقد حزّ في نفس ابن القيّم ما شاهده من تلاعب بأمور الدين باسم الحيل الشرعية ، التي تبطل رغبة الشارع وتنفذ رغبة المتحايلين ، وكانت هذه الحيل قد كثرت في ذلك العصر حتى تسببت في ضياع الحكمة من تشريع الشارع الحكيم ... فالأوامر إنما شرعت لما فيها من مصلحة ، فالزكاة شرعت للأخذ بيد الفقير ، والمنهيات شرع اجتنابها لما يترتب عليها من مفاسد ، وليس وراء التحايل على إسقاط الأوامر كالزكاة وفعل المنهيات كالربا الاّ إبطال لمقصود الشارع ، وتعطيل لمصالح المسلمين ، لذا فقد شنّها ابن القيّم حرباً شديدة على الحيلة بأنواعها ، لا تعادلها في شدّتها إلاّ حربه على التقليد .

* وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيميّة قد كرّس حياته لإصلاح المجتمع ، وأهاب بالحكام أن يراعوا مصالح الشعوب ، وبالعلماء ألا يذلوا فيقضي الأمر وهم غائبون ، ولا يستأذنوا وهم شهود ، فإن ابن القيّم حمل الأمانة من بعده ، محاولاً إصلاح عقائد الأمة الإسلامية والعودة بالدين إلى ما كان عليه السلف من نقاء ، وبعد عن انحراف الزائفين وأوهام المبطلين .

* ترك ابن القيّم تآليف كثيرة ، في مواضيع متنوّعة ... من أهم ما ألّف

في الفقه والأصول : أعلام الموقعين ، والطرق الحكمية ، وفي السيرة : زاد المعاد (موضوع حديثنا) وهو كتاب فقه وأدب واجتماع وطب بالإضافة إلى كونه كتاب سيرة ، وفي التصوف : مدارج السالكين ، وعمدة الصابرين ، وروضة المحبين ، وفي علم الكلام : شفاء العايل ، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ، وله كتب في مواضيع مختلفة ككتاب إغاثة اللهفان وغيره .

* من أقواله :

« لا بدّ للسالك من همة تسيّره وترقيه ، وعلم يُبصره ويهديه . وهل وَصَل مَنْ وَصَل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلاّ على جسر من المحنة والابتلاء » .

« إن العالم بعد وفاته ميت وهو حيّ بين الناس ، والجاهل في حياته حيّ وهو ميت بين الناس » .

« إن سرور القلب بالله وفرحه به وقرّة عين المؤمن إليه لا يشبهه شيء من نعيم الدنيا ، وليس له نظير يقاس به . إن هذا السرور يبعث المؤمن على دوام السير إلى الله عزّ وجلّ وبذل الجهد في طلبه وابتغاء مرضاته » .

رحم الله شيخنا وأسكنه عالي الجنان مع الشهداء والمقربين .

* * *

* أما عن « زاد المعاد » فلا شك أن الإنسان يحتاج إلى القدوة الصالحة كما يحتاج إلى العقيدة الصحيحة ، لذا فقد اقتضت إرادة الله وحكمته أن يكون حامل رسالة السماء إلى الأرض إنساناً رسولاً ، ولا نجد طائفة من الناس كانت القدوة في سلوكها وحياتها ، فأصلحت من فساد الأخلاق وقوّمت من عوجها وهذّبت النفوس وهدتها من ضلال . كما كان شأن الأنبياء عليهم السلام ، فهم الذين أصّلوا الحياة الاجتماعية . وأقاموا العدل في الدنيا وحكموا بالقسط بين الناس ، وزكّوا القلوب ، وأخذوا بيد الإنسانية إلى الحق والخير ، وأنقذوها من حمأة الرذائل .

• نعم ، إن جميع الأنبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين ، بيد أن هذه الصفات لم تكن سواء في جميع الرسل ، بل كان بعضها في بعضهم أظهر ، فمن الأنبياء من غلب عليهم صفة التبشير فكانوا مبشرين كإبراهيم وعيسى ، ومنهم من غلب عليهم صفة الشهادة فكانوا شهداء بالحق كيعقوب وإسحق وإسماعيل ، ومن الأنبياء من غلب عليه وصف الإنذار لمن خالف الحق وجحده كنوح وموسى وشعيب ... أما محمد عليه السلام فقد كان جامعاً لهذه الصفات جميعاً .

• شيء آخر يميز حياة الرسول وهي أننا لا نكاد نعرف إلا القدر اليسير من حياة الأنبياء السابقين ، وهذا القدر اليسير مليء بالكثير من الخرافات والأساطير ، أما حياة نبيّنا فإننا نعلم جميع وقائعها ودخائلها بحيث نستطيع أن نفتخر ونحن واثقون أنها أصلح سيرة لأي إنسان على وجه الارض .

ويُعَدّ كتابنا « زاد المعاد » من أفضل ما أُلّف في حياة الرسول عليه السلام . وقد جاء الكتاب في أربعة مجلدات تناولت كلّ ما يتعلق بهدْي الرسول الكريم .

• حياته الشخصية مع أهله ومع الناس ، نومه ويقظته ، سيره وركوبه ، كلامه وسكوته وبكاؤه ، صلاته وصومه وصحبته ، جهاده وغزواته ، طبه وعلاجه ، دعوته إلى الله ، رسائله إلى الملوك والرؤساء ، استقباله للوفود ، تجهيزه للدعاة والسرايا ، قضاؤه وأحكامه وقسمته للغنائم ، إلى آخر ما هنالك من حياة الرسول ، حتى لم يغادر الكتاب قليلاً أو كثيراً مما يجب أن يعلم المسلمون من حياة نبيهم .

• إن هذا الكتاب ما يزال مبعث بهجة وأنس لقارئه ، يدفعه إلى النظره في حاله وقياس سلوكه بميزان الرسول ، ومن ثم التأسي به والاقتداء .

إنه كتاب لا تستغني عنه مكتبة أي مسلم .

- ٣٠ -

رحالة المسلمين : ابن بطوطه
(٧٧٩ هـ)

ابن بطوطة هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللّواتي الطنجي ، أمير الرحالة المسلمين ، وصاحب أشهر رحلة كتبت باللغة العربية وانتشر ذكرها في الخافقين .

وُلد في طنجة من أعمال المغرب آنذاك سنة ٧٠٣ من هجرة الرسول عليه السلام ، أي في بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، ونشأ في أسرة كانت تعنى بالدراسات الدينية والفقهية ، فدرس الأدب وتوسع في دراسة الفقه ، وكان معدّاً لأن يكون قاضياً كما كان شأن الكثيرين من أفراد أسرته ، إلاّ أن القدر كان يعدّه لأمر آخر .

• عُرف رحالتنا بقوّة عاطفته الدينية منذ شبابه ، وقد أُلحّ على والده بالسماح له بالحج إلى بيت الله الحرام ، وخرج الشاب من بلده طنجة ، سنة ٧٢٥ هجرية ، عن عمر يناهز الثانية والعشرين ، وكتب له أن لا يعود إلى بلاده إلا بعد ربع قرن من الزمان ، قضاه في الترحال في شتى أنحاء المعمورة ، مسجلاً رحلة من أغرب الرحلات في التاريخ .

• في الطريق إلى مكة المكرمة ، كان قاضياً للقافلة التي أعجبت بعلمه وحكمته وحسن تقديره للأمور فأسلمت إليه قيادها في أمورها الهامة .

* وكان سفره إلى الحج بداية رحلته الطويلة ، ففي الإسكندرية التقى بشيخ فاضل لمس من صاحبنا ميله إلى السياحة والترحال ، فشجعه على ذلك ودفعه إليه دفعاً حين طلب إليه أن يسلم على إخوته الثلاثة في الهند والسند والصين ، وكان هذا الشيخ واسمه برهان الدين ، يوحي له بحدود الرحلة وأطرافها .

* ثم بدأ الشاب ابن بطوطة ، يرى الأحلام التي تدور حول الرحلة ، فمرّة يرى نفسه كأنه على جناح طائر عظيم يطير به ، ومرّة يتخيّل البلاد التي سيقصدها وأهلها وغرائبها ، فعزم على البدء برحلته الأولى وبدأ منها بالقاهرة وبعض بلاد مصر ، ثم بلاد الشام .

* وبعد أن أدّى فريضة الحج ذهب إلى العراق وإيران ، ولكن الشوق إلى البلاد المقدسة شدّه إلى الحج مرّة ثانية قصد بعدها إلى اليمن وإفريقيا الشرقية ، ثم عاد إلى بلاد العرب فزار مناطق الخليج العربي وعُمان والبحرين ، ورجع إلى مكة فحجّ للمرّة الثالثة .

* ثمّ ارتحل ابن بطوطة إلى مصر والشام مرّة أخرى ، لينطلق من الشا إلى آسيا الصغرى ، ثمّ شبه جزيرة القرم ، ثمّ القوقاز وبلغاريا والقسطنطينية ، وليعود بعد ذلك إلى خوارزم ، وبخاري وأفغانستان ، وليحط رحاله في الهند سنة ٧٣٤ بعد تطواف تسع سنوات ليقيم فيها ثماني سنوات يتولى فيها القضاء ويعيش عيشة أهل البلاد .

* وشاءت إرادة الله أن يكل إليه سلطان الهند القيام بسفارة إلى ملك الصين ، وكان هذا غاية ما يتمناه رحالتنا الكبير ، فقد شد الرحال على رأس وفد من مسلمي الهند مع الهدايا الكثيرة وقصد الصين ، ذلك البلد المجهول ، إلاّ أن السفينة تغرق في الطريق ليبدأ ابن بطوطة رحلة طويلة قبل وصوله إلى غايته .

* فقد تنقل في جزائر المولديف ، وتولى القضاء فيها مدّة طويلة وتزوّج من أهلها الاّ أن الحنين إلى الترحال عاوده مرّة أخرى ، فتركها قاصداً الصين عن طريق سيلان والبنغال ، ثم ركب البحر مارّاً بشبه جزيرة الملايو ، ثم

سومطرة ، ثم عاد من رحلته عن طريق بلاد العجم وما بين النهرين ثمّ بلاد الشام .

* وبعد أن حجّ مرّة رابعة بدأ رحلة العودة إلى بلده فمرّ بمصر ثم تونس والجزائر ومراكش ووصل إلى فاس سنة ٧٥٠ . ومع أن سلطانها أبا عنان المريني ، احتفى بقدومه احتفاء بالغاً وطلب إليه الاستمرار ليتفرغ لكتابة أخبار رحلته وما فيها من عجائب وطرائف ، إلاّ أن الشوق إلى الترحال دفع أبا عبدالله إلى القيام برحلتين جديدتين . أولاهما إلى الأندلس حيث يعيش عدد كبير من أفراد اسرته ، والثانية إلى بلاد السودان الغربي ومجاهل إفريقية المتوسطة . ثمّ عاد إلى فاس حيث أمضى بقية حياته .

* وقد أُعجب السلطان أبو عنان بما يرويه ابن بطوطة من غرائب الأخبار وطرائف الأسفار ، فعهد إلى كاتبه الأديب محمد بن جُزَيّ أن يسجل هذه الرحلة وقد سماها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وقد جاءت لتكمل رحلة سابقة قام بها رحالة مسلم ، هو ابن جُبَيْر ، ولتؤكد حرص المسلمين على التعرّف على أحوال العالم عن طريق الاتصال المباشر والدراسة الدقيقة .

* استغرقت رحلات ابن بطوطة الثلاث تسعاً وعشرين سنة ، ولقيت رحلته عامة اهتماماً من المستشرقين منذ أوائل القرن الماضي ، فنشروا منها أجزاء وقطعاً ثم نشرت كاملة مع ترجمة باللغة الفرنسية . كما ترجمت إلى لغات أخرى منها اللغة الألمانية والبرتغالية والإنكليزية .

* كان رحالتنا دقيق الملاحظة ، أميناً في عرض مشاهداته ، فكهاً ، ظريفاً ، حرص على أن يصف جميع ما شاهده من رجال ونساء وغرائب ، وقدم وصفاً كاملاً للعادات والتقاليد والأخلاق لجميع البلاد التي زارها ، ولم ينسَ أن يصف ملابس السكان وطريقة طعامهم وسكنهم مما جعل رحلته سجلاً هاماً لحياة الأمم التي تكلّم عنها .

* وزاد في أهمية هذه الملاحظات أنها لم تكن دائماً نتيجة نظرة عابرة وإنما كانت على العكس من ذلك ، بعد اختلاط ومعايشة تصل إلى حد الزواج وتولي القضاء ، كما حصل له في الهند وجزائر المولديف والصين .

* ولئن كان رحالتنا دون بعض ما أُخبر به من خرافات لكنه غالباً ما كان يستعمل لفظ « يزعمون » ، « وهذا في زعمهم » مما قد يشير إلى شكّه بهذه الأخبار ، ولدقته هذه أطلق عليه « دوزي » أحد كبار المستشرقين اسم « الرحالة الأمين » .

* إن « رحلة ابن بطوطة » كتاب لا يستغني عنه علماء الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ والجغرافيا ، لأنه سجل دقيق وشامل لحياة العالم المعمور في فترة هامة من فترات تاريخه ، ولقد كان بودنا لو أننا استطعنا أن ننقل إليك نماذج من هذه الرحلة الطريفة ، لولا أن المجال ضيق ولا يسمح لنا بأكثر من ذلك ، فاحرص أيها القارىء الكريم على قراءتها بنفسك لأنها تجلب لك المتعة والسعادة .

رحم الله رحالتنا الكبير وأجزل له المثوبة .

- ٣١ -

مؤسس علم الاجتماع : عبدالرحمن بن خلدون
(٨٠٨ هـ.)

هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي .

كلّما ذكر علم الاجتماع يقفز إلى الذاكرة اسم عالمنا الكبير ابن خلدون ، لأنه يعتبر بحق منشيء هذا العلم ، فقد كان أوّل عالم يقرّر بصراحة ووضوح موضوع هذا العلم ومنهجه وهما أمران لازمان لتأكيد نشأة أي علم وولادته .

* وقد أطلق عليه تسمية جميلة هي « علم العمران البشري » ، وهذه التسمية في نظرنا أفضل من التسمية الحديثة له « علم الاجتماع » ، فقد أراد عالمنا أن يشير إلى أن مجرد الاجتماع البشري ليس فيه ما يحتاج إلى دراسة وتأمل ، لكن الاجتماع الذي يصدر عنه تعبير عن الذات ويتدرّج في استكمال ضرورات التنظيم والعمران هو الأصل في الاجتماع الإنساني ، وهو الذي يصح أن تعقد له العلوم والبحوث .

* وُلد ابن خلدون في تونس سنة ٧٣٢هـ من أسرة عربية حضرمية هاجرت إلى إشبيلية في الأندلس ، ثمّ نزحت عنها إلى تونس قبيل سقوط إشبيلية بأيدي الإسبان . وعندما بلغ مبلغ الشباب شارك في الشؤون العامة والسياسية ، ورحل من أجل ذلك إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس ، وتولى في هذه البلاد أعمالا مختلفة .

• ولما كان العالم الاسلامي آنذاك يشكل وحدة مفتوحة أمام المسلمين جميعاً على الرغم من نشوء الدويلات المختلفة فيه ، فقد توجه إلى مصر عندما ضاقت به الأحوال في بلدة تونس ، فولي القضاء فيها مدة . واشترك في ذلك الحين مع ملك مصر فرج بن برقوق في محاولة إيقاف تيار المغول المتدفق بزعامة تيمورلنك ، فتوجه مع الملك إلى بلاد الشام .

• ولما عاد ابن برقوق إلى مصر لإحباط مؤامرة دبرت فيها لخلعه ، حاول ابن خلدون مع بعض العلماء مفاوضة تيمور على الصلح لعلّهم يحققون عن طريق الدبلوماسية ما لم يستطيعوه عن طريق القتال ، إلاّ أنهم فشلوا في محاولتهم ولم يفلحوا ، فعاد عالمنا إلى مصر حيث توفي فيها سنة ٨٠٨ هـ.

• ترك ابن خلدون مؤلفات عديدة في التاريخ والمنطق والأدب والحساب والشعر ، إلاّ أنه اشتهر بتاريخه « العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر » ، وبمقدمة هذا التاريخ على وجه الخصوص ، فهي التي أذاعت صيته في الآفاق لما وصفته من أصول علم الاجتماع أو « العمران البشري » .

• ومع شعور عالمنا الجليل أنه يؤسس علماً جديداً لم يقف على مثله أحد من الخليفة على حد تعبيره ، إلاّ أنه لا يدّعي أنه قد قال كلّ شيء حول هذا العلم . فهو يفتح الباب ويبدأ الطريق للدارسين الذين يجب عليهم أن يكملوا ما بدأ . يقول ابن خلدون : « ولعلّ من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين ، يغوص من مسائله على أكثر مما كتبنا ، فليس على مستنطق الفن إحصاء مسائله وإنما عليه تعيين موضوع العلم وتنويع فصوله وما يتكلّم فيه ، والمتأخرون يلحقون المسائل من بعده شيئاً فشيئاً إلى أن يكمل » .

• وأخيراً فقد سبق ابن خلدون الحضارة الأوروبية في الانتباه لهذا العلم وتقريره بأكثر من أربعة قرون ... أجزل الله له مثوبة العاملين .

* * *

• أما عن مقدمته التي أصبحت تعرف في العالم أجمع باسم « مقدمة ابن

خلدون » فإنها تضم الفصول التالية :

– في العمران البشري على الجملة : وهذا الفصل أشبه بما نسميه اليوم علم الاجتماع العام .

– في العمران البدوي والقبائل والأمم الوحشية : وهذا يذكرنا بالبحوث الحديثة في أصول المدنيات القديمة أو ما يسمّى بالأنثروبولوجيا .

– في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية : وهذا الفصل دراسة للظواهر السياسية أو ما نسميه بعلم الاجتماع السياسي .

– في البلدان والأمصار وسائر العمران : وهو مجموعة من البحوث في النظم العمرانية وعلم الاجتماع المدني وعلم السكان .

– في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع : والفصل دراسة للظواهر الاقتصادية وهو أشبه بعلم الاجتماع الاقتصادي .

* ولعلّك تودّ أن تعلم شيئاً عن أسباب تفكير عالمنا الجليل بإنشاء علم الاجتماع وكتابة المقدمة ... لقد كان ابن خلدون معنياً بدراسة التاريخ ، وقد لاحظ من خلال قراءاته لمشاهير المؤرخين أنهم كثيراً ما يقعون في أخطاء كثيرة ، نتيجة لأسباب متعدّدة .

* وعندما تحرى هذه الأسباب وجد أن أهمها ما يلي :

– عدم تحكيم العقل والمنطق على ما يسمعونه أو يسجلونه من أخبار .

– عدم قياسهم الغائب على الشاهد ، أو الحوادث الماضية على الحوادث المعاصرة .

– تعصب المؤرخين لمذهب أو طائفة أو دولة لأن المؤرخ سيسجل ما يتفق مع هواه لا مع الحقيقة .

– جهلهم بالقوانين الطبيعية التي يسير عليها الكون بمقتضى إرادة الله .

– وأخيراً جهلهم بالقوانين الاجتماعية أو المبادىء التي يسير عليها العمران البشري لأن العلاقات الإنسانية لا تصدر اعتباطاً وإنما تسير ضمن قواعد محددة واضحة .

• وقد أعلن ابن خلدون أنه لا يجد للمؤرخين عذراً إلاّ في واحد من هذه الأسباب وهو الجهل بالقوانين الاجتماعية لأن أحداً قبله – كما يقول – لم يكشف لهم عنها ، ومن أجل ذلك وضع علم العمران البشري الذي سيكشف فيه عن طبيعة الاجتماع الإنساني وقوانينه وتطوّره .

• وقد جاءت مقدّمة ابن خلدون فريدة في نوعها بما حوته من تحديد للظواهر الاجتماعية – أو الوقائع الاجتماعية كما أحبّ أن يعبر عنها – بأنواعها المختلفة ، كما جاءت فريدة بما اشتملت عليه من نظريات جديدة في نشأة المجتمعات والدول وازدهارها وانهيارها إلى غير ذلك من مواضيع لم تفقد جدّتها برغم القرون الطويلة التي مرّت عليها .

• ترجمت المقدمة إلى معظم اللغات الحية في العالم . وقامت حولها دراسات كثيرة ، ويعتبرها الباحثون من الكتب المتميزة في تاريخ الفكر الإنساني كلّه .

- ٣٢ -

تقويم القلم : أبو العباس القلقشندي
(٨٢١ هـ)

• أحمد بن علي بن عبدالله الفزاري ابو العباس القلقشندي ثم القاهري .

• وُلد سنة ست وخمسين وسبعمائة للهجرة في مدينة قَلْقَشَنْدة من منطقة القليوبية في مصر ، ونشأ فيها نشأة علمية صحيحة، ودرس على المشهورين من العلماء في زمنه، وانتقل من أجل ذلك إلى الإسكندرية ونال الإجازة من مشايخها في الفقه الشافعي والحديث والأصول .

• وحين اكتملت لأبي العباس ثقافته الفقهية جلس للتدريس فكانت حلقاته واسعة تضمّ الكثيرين من طلاب العلم ، وقد انتفع الناس بهذه الدروس، خاصة وان أبا العباس كان يملك فكراً نيّراً واسعاً، فكان يحاول أن يضع لعلم الفقه أصولاً وقواعد ، ويميل إلى الاجتهاد، ويؤلف عدداً من المصنفات الفقهية الجيدة .

• لكنه لم يقصر عنايته على الفقه والحديث وإنما وجّه عناية خاصة إلى الأدب فتمرّس بفنونه واستوفى ثقافته الأدبية ، وكتب عدداً من الكتب والرسائل الأدبية ونبغ في هذه العلوم والفنون حتى لفت إليه أنظار الناس .

• اختير أبو العباس بعد ذلك للعمل في ديوان الإنشاء، فكان ذلك إيذاناً بعهد جديد من التأليف والكتابة ، فقد ألف صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، كما كتب نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، وقلائد الجمان في التعريف

بقبائل عرب الزمان .

* ومع جلالة قدر أبي العباس وضخامة العمل الفكري والأدبي الذي قام به إلاّ أنه لم يلقَ من المؤرخين وكتاب التراجم ما يستحقه من العناية حتى لقد أخطأ بعضهم في ذكر اسم والده أو سنة ولادته ووفاته .

* ترك لنا القلقشندي عدداً من المؤلفات من أهمّها شروح على بعض كتب الفقه الشافعي ، وحلبة الفضل والكرم في المفاضلة بين السيف والقلم ، والكواكب الدرية في المناقب البدرية ، وعقد الجمان ، وصبح الأعشى في صناعة الإنشاء وهو أهم كتبه .

* توفي في عام ثمانمائة وواحد وعشرين للهجرة عن عمر يناهز الخامسة والستين رحمه الله وأجزل له المثوبة والمغفرة .

* * *

* أما الكتاب فهو «صبح الأعشى» الذي سبق أن أشرنا إليه، وهو أعظم كتب القلقشندي على الإطلاق والموسوعة التي يعرف بها هذا الكاتب على مرّ العصور ، فلا يمرّ اسم أبي العباس في مجالات الفكر والعلم إلاّ على أنه مؤلف صبح الأعشى ، وقلّ من المثقفين من يعرف أنه مؤلف نهاية الأرب أو قلائد الجمان أو شارح كذا وكذا من كتب الفقه ونحو ذلك .

* رجع المؤلف في كتابه إلى عدد كبير من المصادر التي يصعب إحصاؤها ، ولا تقل هذه المصادر عن مائة وقد تزيد على هذا العدد ، من أهمها : كتاب الأم للشافعي ، والملل والنحل للشهر ستاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وحياة الحيوان للدميري ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وتقويم البلدان لياقوت الحموي .

* بدأ أبو العباس مقدمة الكتاب بقوله: « لما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها ، وأربح البضائع وأنفعها ، لا سيما كتابة الإنشاء ، التي لا

يلتفت الملوك إلاّ إليها، ولا تُعَوّل في المهمات إلاّ عليها ، يعظمون أصحابها ، ويقربون كتابها ، استخرت الله في كتابة هذا التاريخ».

* ثم أشار في المقدمة إلى الذين سبقوه في التأليف في هذا الموضوع والطرق التي سلكوها فيه ، ثمّ انتقل إلى بيان خطته في الكتاب فبيّن أنه جعل الكتاب في مقدمة وعشر مقالات وخاتمة . وقد تناول في كل مقالة من المقالات بحثاً من البحوث مُنظماً بشكل دقيق بحيث يستوفي جميع ما يجب أن يعرفه الكاتب حوله من أمور.

* خصّص أبو العباس المقالة الأولى للحديث عن ثقافة الكاتب في الأمور العلمية والعملية ، وتكلّم في المقالة الثانية عن ثقافته الجغرافية والتاريخية، أما المقالة الثالثة فقد كانت خاصة بالثقافة الديوانية، بينما توسع القلقشندي في المقالة الرابعة بالحديث عن المكاتبات وتاريخها وفنها .

* ثم استغرق المؤلف في حديث طويل شمل أربع مجلدات في الكلام عن الولايات والبيعات والعهود الصادرة عن الخلفاء أو الملوك لأمثالهم، أو لأصحاب المناصب سواء كانوا من أرباب السيف أم القلم، وهو موضوع طريف نادر ، أما المقالة السادسة فقد كانت للوصايا والمسامحات والتحويلات ، وخصّصت المقالة السابعة للاقطاع والقطائع ، وانتقل المؤلف في المقالة الثامنة لشرح موضوع الإيمان وتحريرها ، أما المقالة التاسعة ففي كتب الأمان وعقود أهل الذمة والهدنة .

* وكلّ هذه الأبواب من الفنون الديوانية، لذلك فقد خصّص القلقشندي المقالة العاشرة إلى ما يصدر عن الديوان في غير الشؤون الرسمية البحتة كرسائل الغزو والصيد والمفاخرات والرسائل التي تصف الأحداث الجارية .

* وإليك قارئي الكريم أمثلة لما جاء في هذا الكتاب العظيم .

* في موضوع الأمان أورد أبو العباس كتاب الرسول عليه السلام لرفاعة بن زيد الخزاعي بعد إسلامه وعلّق عليه، ونحن هنا نورد الكتاب وبعض التعليق

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى رفاعة بن زيد : إني بعثته إلى قومه عامة ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله، فمن أقبل منهم ففي حزب الله ورسوله ومن أدبر فله أمان شهرين» وقد تكلّم المؤلّف عن شروط الأمان وتحريره وأنواعه وطرقه، ومما جاء في تعليقه عن شروطه : للأمان أركان وشروط وأحكام، فأما أركانه فثلاثة، وهي :«من صدر عنه العقد، ومن صدر له العقد، وصيغة العقد»، وأما شروطه : «فألاّ يكون على المسلمين ضرر في المستأمن»، ومدّة الأمان لا تزيد على سنة، بخلاف الهدنة، فتجوز عند ضعف المسلمين أن تمتد إلى عشر سنين .

* وفي موضوع البيعة جاء في صبح الأعشى أن البيعة والمبايعة كالبيع الحقيقي معناها المعاهدة والمعاقدة، وهي نوعان، بيعات الخلفاء وبيعات الملوك ؛ والأصل في بيعات الخلفاء، بيعة أبي بكر رضي الله عنه، والأصل في عهود الخلفاء إلى الملوك تفويض الرسول عليه السلام أمر اليمن في حياته إلى عمرو بن حزم رضي الله عنه .

* أما عن تاريخ التحريرات والكتابات ومصطلحات الكتابة العربية، فقد جاء القلقشندي بنماذج طريفة يتبيّن منها تطوّر هذه المصطلحات ؛ فقد كان الرسول عليه السلام يفتتح كتابته بلفظ : من محمد رسول الله إلى فلان ؛ وكان أبو بكر يفتتحها بلفظ : من أبي بكر خليفة رسول الله إلى فلان ؛ أما عمر فأصبح يفتتحها بقوله : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فلان ؛ وهكذا على مدار التاريخ الإسلامي .

* وفي حديث طويل عن أصول المكاتبة، اشترط القلقشندي أن يتوفر فيها أمور كثيرة، منها : حسن الافتتاح، واشتمال المقدمة على كلام مناسب لموضوع الكلام يكون أساساً له، ومخاطبة كلّ بما يستحق وبما يناسبه ؛ واختتامها بصورة مناسبة لموضوع الرسالة ملائم لها .

* وأثناء حديثه عن ثقافة الكاتب الجغرافية عرض المؤلف للكثير من المعلومات

في جغرافية العالم الإسلامي، يقول عن مكة مثلاً : سميت كذلك لقلّة مائها ، ولها ستة عشر اسماً، ومنها مكّة وبكة وأم القرى وأم رُحم والبلد الأمين والباسة والناسة والحاطمة والقدس والمقدسة ، وكثرة الأسماء عند العرب تدل على شرف المسمى .

* وعن المدينة المنوّرة يقول صاحب صبح الأعشى : اسمها القديم يثرب ، وسماها النبي طيبة وطابة ثم من أسمائها الجابرة والمحبوبة والمجبورة والعذراء والمرحومة وغُلبة لأن الأوس والخزرج غلبوا عليها اليهود ، وسمّاها الله تعالى الدار «والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم».

* قارئي الكريم ، مهما تعاقبت العصور والدهور فسيبقى صبح الأعشى كتاباً متميزاً في تاريخ الفكر الإنساني .

- ٣٣ -

الوافد من المغرب : ابو العباس المقري
(١٠٤١ هـ.)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني عالم الغرب ومؤرخها في القرن الحادي عشر لهجرة الرسول عليه السلام .

* وُلد أبو العباس في تلمسان من الجزائر سنة ٩٩٢هـ من عائلة نزحت إليها من مدينة مقرّة وهي من أعمال قسنطينة بالجزائر أيضاً ، ويقال إن نسب أسرته يرتفع إلى الرسول عليه السلام .

* عاش عالمنا في بحبوحة من العيش فقد كان أهله يعملون بالتجارة ويمتازون باليسار والوجاهة ، هذا بالإضافة إلى شهرة في العلم والأدب ، فقد كان لأكثر من واحد من أجداده فضل كبير في حركة المغرب العلمية وازدهارها ، ولا شك انه تلقى المبادىء الأولى للعلوم في أسرته ومنها استقى حبه للعلم ورغبته القوية في الدراسة والتحصيل .

* درس على معظم علماء المغرب آنذاك ، ولم يسمع بعالم أو شيخ إلاّ وسعى إليه وأفاد منه ، وكان على رأس هؤلاء ، شيخ فاس ومفتيها أبو عبدالله محمد بن قاسم القيسي المشهور بالعصار ، وأحمد بابا التنبكتي السوداني الأصل ، وعمه الشيخ سعيد بن أحمد المقري ، وقد سمع عن هذا الأخير صحيح البخاري وحفظه ، وبلغ من تمكنه في الحديث أنه كان يعطي إجازات فيه .

* وكان المقري يملك حافظة نادرة ، نماها واسعتان بها على مداومة مذاكرة العلم ومدارسته ، وقد أسعفته هذه الحافظة في مواقف كثيرة حتى أنه ألف « نفح الطيب » كتابه المشهور مستعيناً بهذه الحافظة التي كان لها فضل الحفاظ على تراث عظيم ، ويدلّ على قوّة هذه الحافظة كثرة استشهاده في المناسبات وتنوعه ، وهذا ما لفت الأنظار مستمعيه في مجالسه ودروسه وأسماره ، حتى لقد سجل ذلك أحدهم وهو الشيخ عبد الرحمن العمادي من دمشق بقوله :

درس غريب كلّ يـــــوم يملى ، ولكنْ حفظه أغرب

* عاش شيخنا في عصر كانت فيه الدولة العثمانية تمدّ سيطرتها على مختلف مختلف أنحاء العالم الإسلامي حتى وصلت إلى بلاده ، لكنه تجنّب الصراع القائم بين الدولة وبين السلطات القائمة في كلّ مكان بالانصراف إلى العلم والحديث والأدب ، ثمّ استأذن السلطان زيدان السعدي أمير فاس أن يسمح له بالسفر إلى المشرق الإسلامي ، وبدأ رحلة علمية دراسية امتدت أربعة عشر عاماً .

* وكان ركوب البحر وما رافقه من مصاعب وأهوال ، تجربة مثيرة له سجلها في كتابه نفح الطيب ، حتى وصل مصر سنة ألف وثمان وعشرين هجرية ، ثمّ سافر إلى الحجاز فأدى فريضة الحج وزار القدس والشام ، وكان يتصل بالعلماء في كلّ بلد يحلّ فيه ، يستفيد ويفيد ، فقد درس في المسجد الحرام ، وأملى الحديث في المدينة على مقربة من رسول الله ﷺ وألقى عدة دروس في المسجد الأقصى وأملى صحيح البخاري في جامع بني أمية بدمشق .

* وقد لقي في دمشق إقبالاً منقطع النظير حتى ضاقت قبة النسر التي كان يملي فيها دروسه بالناس فخرج بهم إلى صحن الجامع ، وكان يوم ختام تدريسه يوماً حافلاً عبّر فيه الناس عن تقديرهم لعلمه وإجلالهم لما يحفظه من حديث الرسول ، وتكلّم أبو العباس المقري كلاماً عجيباً متنوّعاً دام من طلوع الشمس حتى وقت الظهر .

* وحين عاد إلى القاهرة انقطع لكتابة « نفح الطيب » الذي أمدنا بحصيلة

هائلة من المعارف والأخبار الأندلسية والمغربية ، ولولا روايته لها وحفظه لضاعت من أيدينا إلى الأبد ، وكان له فضل كبير في تعريف أهل المشرق بالمغرب وأهل المغرب بالمشرق ، وعن طريقه استطعنا أن نعلم اختلاف أسلوب الشرقيين عن المغاربة في التأليف والتدريس والإيجاز والتلخيص والمصطلحات .

* وكان عالمنا بالإضافة إلى أنواع العلوم التي أتقنها ، شاعراً مجيداً ، وكان أكثر شعره في مدح الرسول عليه السلام ، من ذلك قوله :

ليس كلّ القريض يقبلـــه الـــ ـــسمع وتصغي لذكره الأفهـــام
إن بعض القريض ما كـــان هز ـــءاً ليس شيئاً وبعضه أحكـــام
وأجل الكلام ما كان في مـــدح ـــشفيع الوري عليـــه الســـلام

* من مؤلفاته : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب » ، أزهار الرياض في أخبار عياض ، إتحاف المغرم المغرى ، إحناءة الدجنة في عقائد أهل السنة ، روضة الآس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس ، وحسن الثنا ، وغيرها .

* توفي في القاهرة سنة ألف وإحدى وأربعين من هجرة الرسول ، رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً .

* * *

* أما الكتاب : فهو « نفح الطيب » ، وهو موسوعة في الأدب والتاريخ وتراجم الرجال ، جمع فيه مؤلفه من تاريخ المسلمين في الأندلس ما لا تجده في كتاب غيره ، فقد أُتيح له ما لم يُتح لنا أن نعثر عليه ، ووقع له ما لا وجود له اليوم ، واستطاع أن يصون نقولاً ونصوصاً كاملة ، وهذا هام وخاصة بالنسبة للأندلس التي ترك أهلها بعد نكبتهم كلّ شيء ، وأثمن ما تركوه ذخائر الكتب ونفائسها .

* ويظهر أن المقري أراد أن يجعل منه مكتبة كاملة فضمنه كتباً ورسائل

متعدّدة ، منها كتاب المحاضرات لجده أبي عبدالله محمد قاضي قضاة فاس ، والإنشاءات والإفادات لأبي إسحق الشاطبي ، ونصائح الأحباب والأبيات المهذبة وأنداء الدين لتحبيبي ، ومعظم هذه الكتب مفقود ولولا تسجيل المقري لها لضاعت .

* وعلى الرغم مما وجه إليه من نقد بسبب ما وقع فيه من مآخذ ، وما فاته من مسائل ، فإن الكتاب يبقى أهم وثيقة عن الأندلس وهذا ما جعل أمير البيان شكيب أرسلان يقول في الحلل السندسية « اعلم أعزّك الله أنه لا يزال نفح الطيب من أعظم المراجع التي يعوّل عليها المحققون في أخبار الأندلس » .

* يضاف إلى ذلك أنه عرف المشرقيين بأعلام المغرب كما عرف المغاربة بأعلام المشرق ففي الكتاب ، بابان في هذا المجال ، أحدهما في التعريف ببعض من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق ، وثانيهما بالرافدين من المشرق إلى المغرب .

* إن غرض الكتاب في الأصل كما يلاحظ من عنوانه ، التعريف بالأندلس والوزير لسان الدين بن الخطيب ، لذا فقد جاء الكتاب في قسمين كبيرين : قسم في الحديث عن الأندلس وتاريخها وآدابها ، وفيه ثمانية أبواب : تتناول وصف الجزيرة وفتح المسلمين لها ، وعز الإسلام بها ، ووصف قرطبة ، والتعريف ببعض أعلام المشرق والمغرب ، وذكر بعض مزايا أهل الأندلس ، وكيف تألب العدو على المسلمين حتى استولى عليها . أما القسم الثاني فيشمل التعريف بابن الخطيب وفيه ثمانية أبواب أيضاً .

* أيها القارىء الكريم لقد مضى على تأليف الكتاب أكثر من أربعة قرون ، طبع فيها أكثر من مرّة ، وما يزال مكتبة ذخيرة حافلة ، ومنبعاً خصباً للكثير من الدراسات والأخبار والأسفار .

- ٣٤ -

داعية التوحيد : محمد بن عبد الوهاب

(١٢٠٦ هـ)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي ، إمام النهضة الإسلامية الحديثة في جزيرة العرب ، ومجدد من مجددي الإسلام ، وداعية إسلامي كبير ، أخذ نفسه أولاً ثمّ مَنْ حولَه بما يعتقد أنه الحق ، وكافح من أجله وقاسى ، حتى قيض الله له النصر .

* وُلد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ونشأ في العُيَيْنَة سنة ١١١٥ من هجرة الرسول ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وتلقى العلوم الأولى على يدي والده ، وكان يعمل قاضياً للعُيَيْنَة آنذاك .

* ثمّ ارتحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ولمتابعة علومه وبحوثه ، فدرس على أعلام مكة آنذاك ، ثم انتقل إلى المدينة فقرأ على فقهائها وخاصة الشيخ عبد الله بن إبراهيم النجدي والشيخ محمد السندي ، ثم قصد إلى البصرة واجتمع إلى عدد من علمائها المعروفين ، وهناك اتضحت له معالم الدعوة التي يجب أن يبشر بها ، وتبينت له ضخامة المهمة العظيمة التي ألقيت على عاتقه ، وارتسمت أمام ناظريه أبعاد المعركة التي سيخوضها مع الطوائف المضلّلة من الناس .

* في العصر الذي نشأ فيه إمامنا الجليل كانت عوامل الضعف بدأت تدب في أوصال الدولة الإسلامية ، وأخذت الخلافة العثمانية تفقد سيطرتها وتصدرها !

للأمور ، وبرزت الصليبية من جديد تكيد للعالم الإسلامي وتتآمر عليه وتدس له الدسائس .

* وساعد على هذا الضعف انتشار البدع ، وتغلب الخرافة ، وظهور أنواع من الشرك ، فقدّست القباب والأشجار والأحجار ، وانتشر مبتدعو الولاية يزيّفون على الناس دينهم ، ويبتزون منهم أموالهم . وغلب على الناس الإقبال على الدنيا وقلّ الناصرون لدين الله . وظهر من بعض السلطات رغبة في تأكيد هذه الاتجاهات .

* وكانت كلّ هذه المظاهر تفعل فعلها في نفس ذلك الشاب ، النقيّ السريرة ، المخلص الطوية ، المتوقّد حماساً للدفاع عن عقيدة الإسلام ودولته وأمته .

* وقد أحسّ الشيخ ببصيرته النافذة ، أن تصحيح العقيدة أوّل الخطوات في دربه الطويل في العمل على إعادة معاني الإسلام ، فالإنسان الحق تصنعه العقيدة الحقة . والمجتمع السليم تقيمه المبادىء السليمة ... وهكذا تحدّدت عناصر دعوته .

* وكانت دعوة الشيخ بسيطة واضحة : تصحيح توحيد الله ، إخلاص العبودية له . إنكار الشرك والبدع والخرافات والتوسل إلى الله بغير الله ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الاعتقاد بأن الإيمان قول وعمل . الإيمان الحق بالبعث والنشور والجنة والنار . إزالة كلّ ما يعيق الطريق إلى التوحيد والعبادة الخالصة ، تحطيم ما علق بالإسلام من أوهام . ارتشاف الإسلام من معينه الصافي ، وأخيراً إقامة الدولة الإسلامية .

* ولم يكن ابن عبد الوهاب إلا مجدداً ما كان عليه السلف الصالح من فهم صحيح للإسلام وسلوك سليم يستقيم مع هذا الفهم ، لذلك نجد هذه الدعوة تهز عواطف الشعوب الإسلامية ومشاعرهم هزّاً عنيفاً ، وبلغ تأثيرها من القوّة حدّاً لم يبلغه تأثير دعوة أخرى منذ عهد بعيد .

* لقد تأثر بها رجال الإصلاح الإسلامي في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، واقتبس كثيراً من مبادئها رجال كان لهم مكانتهم في هذه البلاد . كجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، وجمال الدين القاسمي ، وخير الدين التونسي وصديق حسن خان ، وأمير علي .

* لم يتراجع إمامنا عن دعوته مع كلّ ما صادفه من صعوبات وما تحمله في سبيلها من أهوال ، فقد كان يصدر عن إيمان عميق بما يدعو إليه واطمئنان كامل إلى نصر الله ، حتى قيض الله له أمير الدرعية ، محمد بن سعود ، فآزره ونصره وقاتل معه ، وكانت هذه سنة أولاده وأحفاده من بعده في نصرة عقيدة التوحيد وحمل راية الإسلام .

* إلاّ أن خصوم الإسلام من المستعمرين والمستشرقين لم يرق لهم أن تظهر هذه الدعوة الإسلامية الخالصة ، فحاولوا أن يحيطوها من أطرافها حتى تحصر في نطاق الجزيرة العربية وتعزل عن باقي أنحاء العالم الإسلامي ، وقد نجحت حركة التطويق هذه في بدايتها إلى حد بعيد .

* فقد أطلقوا على الدعوة اسم « الوهابية » لتبدو بمظهر المنتسب إلى شخص ، وما هي كذلك ، لأنها دعوة إسلامية عامة ، وادّعوا أنها ابتدعت مذهباً جديداً ، وآراء لم تكن معروفة في الإسلام ، مع أن كلّ ما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب من أصل إسلامي قال به فقهاء المسلمين ، وكلّ ما نادى به من محاربة البدع والضلالات فله مماثل في المذاهب الإسلامية . أما في الفروع ، فقد كان الشيخ على مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

* وبلغ من قدرة الاستعمار على تمويه الأشياء ، أنه حتى يقضي على بعض الحركات الإسلامية التحريرية في الهند ، ادّعى أنها وهابية وكان مهد لذلك بنشر صورة غير صحيحة عن دعوة محمد بن عبد الوهاب ، وذلك ليستحل المسلمون قتال هذه الحركات .

* لكن ذلك لم يُجْدِ أعداء الحق شيئاً ، فقد زالت الحدود ، وتحطّمت

الأسوار ، وتفكّكت أطواق العزلة ، وبدت حركة الشيخ في كلّ بلد إسلامي على صفائها ونقائها : دعوة إسلامية خالصة للأسلام .

• خلف محمد بن عبد الوهاب مؤلفات عديدة ، منها : كتاب التوحيد ، كشف الشبهات ، تفسير الفاتحة ، أصول الإيمان ، المسائل التي خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية ، فضل الإسلام ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

رحمه الله وأجزل له ثواب الأبرار .

* * *

أما الكتاب : فقد كنا أيها القارىء الكريم سنستعرض معك كتاب التوحيد لشيخنا الجليل ، لولا أن حياته المليئة بالكفاح والجهاد طغت على نصيب الكتاب ، غير أنها في الوقت نفسه النسخة الحية من التوحيد .

obeikandl.com

- ٣٥ -

مجاهد من افريقيا : أحمد ساموري
(١٣١٨ هـ.)

رجل من غينيا ، اذا عُدّ اثنان فيها تقدما على جميع الزعماء في تاريخها الحديث كان هو احدهما ، ذلكم هو المجاهد أحمد ساموري نوري ، زعيم الحركة الاصلاحية فيها ، تلك الحركة التي أخذت طريقاً مماثلاً لحركة الحاج عمر نال في السنغال وقد بلغت حركة ساموري ذروتها في عام الف وثمانمائة وواحد وثمانين ميلادية ، غير أن الاستعمار الفرنسي كان واقفاً له بالمرصاد آنذاك ، فقضي على حركته وأسر سنة الف وثمانماية وثمان وتسعين .

* حفظ احمد ساموري القرآن ، ثم انصرف إلى شئون القتال ، فأصبح زعمياً تخشاه القبائل المتناحرة ، وتحسب له فرنسا كل حساب ، وقد وجد ان الطريق الاول لتحرير البلاد لا يكون الا بتوحيد القبائل وايقاظ الوعي الاسلامي فيها ، ومن ثم اخذ في إنشاء دولة موحدة تقوم بديلاً عن الدول المتصارعة في المناطق التي كان يحكمها خلفاء الحاج عمر نال ، وتكون قادرة على صد قوات الاستعمار الرابضة بالقرب من بلاده .

* وقد استطاع ان ينجح في هدفه الاول وهو التوحيد ، وقامت دولته على اساس اسلامي صحيح ، وكان مشهوراً بتقواه وحماسه الديني ، والعودة دائماً إلى النبع الأصيل للاسلام : القرآن والسنة ، فقضى على ما كان منتشراً في

بلاده من السحر والشعوذة والاعتقادات الوثنية الفاسدة ،

* وعني بتكوين جيل يُربىّ على المعاني الاسلامية السليمة ، فأمر بإنشاء كثير من المدارس التي تعنى بالعلوم الاسلامية ، وطالب الأهالي بأن يرسلوا ابناءهم اليها ليحفظوا القرآن ويتلقوا مبادىء الاسلام ، وكان كثيراً ما يقوم بنفسه بالتأكد من نجاح سياسته ، فكان يستوقف الاطفال في الطريق ليمتحن معلوماتهم الدينية ، ويقف على مدى استيعابهم لما يُلقنون .

* وكان حريصاً في الوقت نفسه على أن يعمل جميع الناس فلا يبقى عاطل عن العمل ، وكان يأمر شيوخ الدين بأن يتعهدوا بزراعة قطعة من الأرض ليعود نتاجها إلى خزانة الحكومة ، وقد عمل بهدي من الإسلام إلى ازالة الفوارق والعصبيات بين ابناء القبائل فتوحد الناس على أصول واضحة ، وكانت مشاركتهم في الدولة الناشئة على حدّ سواء .

* وكان ساموري يعتمد في تنفيذ اهدافه الدينية والعسكرية على جيش كامل التنظيم ، يتألف من عشر فرق كبيرة تقف كل منها مستعدة لرد أي اعتداء يقع على أي ولاية من ولايات الدولة وجهاد أحمد وصموده ضد قوات الاستعمار صفحة رائعة من الوطنية التي تمتزج بالحماس الديني ، فقد بدأت معاركه ضد الفرنسيين سنة الف وثمانمائة واحدى وثمانين ، واستمرت عملياته ضدهم في مدّ وجزر حتى اضطر سنة الف وثمانمائة واحدى وتسعين الى التراجع الى الشرق في منطقة غينيا العليا وأعالي ساحل العاج حيث اقام دولة أخرى ، ثم واصل كفاحه المرير في الوقت الذي كان ابنه سارانجي مورو ، يقود جيشاً آخر في فولتا العليا لحرب جيوش الاحتلال البريطاني .

وقد اظهر الزعيم المجاهد احمد ساموري مهارة فائقة في قيادة جيوشه ضد أبرع القادة الفرنسيين فتقدموا اليه بطلب الصلح سنة الف وثمانمائة وسبع وتسعين الا أنه فضل طريق الجهاد ورفض اقتراحاتهم لأنه أدرك أن الصلح خديعة ،

ولأنهم طلبوا منه أن يتلقى تعليماته من مندوب السلطة الاستعمارية الذي يسمى «المقيم».

وهكذا تجددت الحملة عليه وأرسلت فرانسا حملة كبيرة بقيادة ضابط كبير من ضباطها ، واضطر المجاهد أحمد الى الانسحاب نحو الجنوب ولكنه بقي مواصلاً جهاده وأخيراً وقع ساموري بعد حيلة دُبّرت له في أسر أعدائه ، وكان ذلك في سنة الف وثمانمائة وثمان تسعين ، وبقي في الأسر حتى توفاه الله سنة الف وتسعمائة . . وقد حاول التاريخ الذي كتبه الاستعمار أن يشوه سيرة هذا البطل العظيم ، فصوره في صورة سفاك الدماء ، ونسي أنه كان يهدف الى خلاص وطنه ووطن آبائه واجداده من الغاصبين ، ولكن المجاهد احمد بقي عند الشعب الافريقي المسلم الزعيم الديني والمجاهد الوطني والعامل المخلص لإعادة مجد الاسلام .

رحمه الله رحمة واسعة وأنزله منازل الشهداء الخالدين .

- ٣٦ -

شيخ عصري : عبدالعزيز جاويش
(١٣٥٢ هـ)

أما العلم فهو الشيخ عبد العزيز جاويش ، وأما الكتاب فإنه «الإسلام دين الفطرة».

* وُلد الشيخ عبد العزيز في الإسكندرية سنة ١٨٧٦ ميلادية على أرجح الأقوال ، من أسرة ميسورة الحال تتعاطى التجارة ، نزحت من المغرب في أيام جده واستقرّت في مصر ، وكانت على قدر كبير من الخلق والاستقامة وكان لهذا أثره طيلة حياته ، فقد كانت استقامة الخلق ونصاعة السلوك من أهم ما اتصف بهما عالمنا المصلح المجدّد .

* حفظ القرآن في كُتّاب من كتاتيب الإسكندرية ، وتعلّم منه أصول العربية ، وأخذ منه ومن علماء البلد مبادىء الثقافة الإسلامية، ورأت أسرته أن القدر الذي حصله يكفيه في حياته العملية التي حدّدتها له ، وهي الاستمرار في طريق التجارة ، مهنة آبائه وأجداده .

* لكن أصرّ على أن يكمل تعليمه ، ولما أصرّت الأسرة على موقفها تركها وانقطع إلى الإقامة في مسجد كان يتعلّم فيه ، فكان يقضي فيه سحابة نهاره متعلّماً ، ويقضي ليله متعبّداً وساكناً ، وعند ذلك أدرك والده أن رغبة ابنه في طلب العلم رغبة أكيدة لا تقاوم ، فسمح له بالسفر إلى القاهرة .

* وهناك انتسب إلى الأزهر أوّلاً ، وتعرّف على حلقات كبار العلماء ، واتصل بالشيخ محمد عبده والشيخ رشيد رضا ، ثمّ انتقل إلى دار العلوم . وكان يجمع بين الثقافتين الدينية والدنيوية فبرّز على أقرانه وأظهر نبوغاً واضحاً ، وكانت ثقافته تفوق ثقافة زملائه في الطلب والدراسة ، حتى أصبح خطيبهم المفوّه ، والمتكلّم باسمهم ، والكاتب عنهم ، وحتى اعترف له الجميع بالصدارة في مواقف القول ومحافل البيان .

* وكان من عادة دار العلوم أنها توفد النابهين من خريجيها إلى أوروبا ليستكملوا علمهم ويطلعوا على حضارة الغرب ، فأوفد عبد العزيز إلى إنكلترا ، وقد كُتب له أن يستمر فيها ثلاث عشرة سنة لم يقطعها إلاّ سنة ونصف السنة عاش فيها في القاهرة ، وقد قضى من هذه المدة ثماني سنوات في التحصيل ، وخمس سنوات في التدريس الجامعي ، وكان موقفه من هذه الحضارة موقف الواثق من نفسه ومما عنده ، المستفيد منها بالقدر الذي لا يخالف عقيدته وتقاليده .

* كتب بعد ثماني سنوات يصوّر انطباعاته عن حياته هناك فقال : «ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكاً بديني ، رأيتهم شديدي الحرص على لغتهم فزادوني حرصاً على لغتي ، أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ويحرّمون على الأجانب الاستيلاء على شؤونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم ، فأخذت أحاكيهم في بلادي السيئة الحظ بالاحتلال وأشياعه». وقد فرق بين أوروبا كدول مستعمرة وبينها كأمم متحضرة ، وكان له حصانة الانتفاع بما في الثقافة الغربية في حدود معينة .

* وقد مكّنته معرفته الوثيقة بالغرب والأساليب التي يتقبلها ، من الدفاع عن الإسلام الذي كان يواجه في ذلك الحين ، وما يزال ، خصومات عنيفة ، من أهله ومن خارج أهله . وحين حضر مؤتمر المستشرقين الذي عقد في الجزائر سنة ١٩٠٥ ، كان له فضل كبير في الدفاع عن الإسلام ولغة القرآن .

* وكان يرى أن مشاكل العالم الإسلامي التي تتمثّل بالاحتلال الأجنبي

والتهجم على الإسلام ومحاربة اللغة العربية والتلاعب بالمناهج المدرسية، لا تحلّ إلاّ من خلال النظر إلى هذا العالم كوحدة متكاملة ، لذلك دعا بقوّة إلى المحافظة على الخلافة الإسلامية ، ودعم الجامعة الإسلامية ، وإن كان هذا لا يمنع في رأيه من أن يترك لكلّ قطر إسلامي قدر من الاستقلال الذاتي في ممارسة شؤونه وتصريف أحواله .

* ومن أجل الدعوة إلى ما يعتقد ، ترك العمل الوظيفي ليرأس تحرير جريدة اللواء ، يقاوم الاحتلال ويدعو إلى العمل الإيجابي في ميدان التربية والتعليم ، والإصلاح الاجتماعي ويؤكد وحدة المسلمين ، ويهاجم خصوم الوحدة الإسلامية ، وعندما نكبت طرابلس الغرب بالاحتلال هبّ يستصرخ العالم لمساعدتها ويقوم بدور هام في سبيل دعم حركة المقاومة التي اشتعلت في كلّ جزء من أجزائها .

* وقد تعرّض من أجل آرائه إلى السجن أكثر من مرّة ، ثمّ اضطر إلى الهجرة عن مصر مدة اثني عشر عاماً قضاها في تركيا وألمانيا وفلسطين والحجاز ، وكان في هجرته أشدّ منه في وطنه ، فقد أصدر في تركيا مجلة الهلال العثماني ، كما أصدر في ألمانيا مجلة إسلامية باللغة الألمانية ، وحاول إنشاء الجامعة الإسلامية في المدينة المنوّرة ، وأعاد إصلاح كلية صلاح الدين في مدينة القدس .

* ثمّ عاد إلى وطنه ليعمل في حقل التعليم ، والدعوة إلى محو الأمية وتنشيط أعمال الخير حتى توفي سنة ١٩٢٩ .

* ومن آرائه في التربية والتعليم ، أنه ميّز بينهما . وبين أن التعليم وحده لا يكفي ، بل لا بدّ من التربية ، وقد عمل جاهداً على إنشاء المدارس والمعاهد التي تهدف ليس إلى التعليم فحسب ، «وإنما إلى غرس الخلق والفضائل والقيم في نفوس الناشئة والأجيال ، فتقدّم للأمة رجالاً فضلاء كاملين في أخلاقهم شرفاء في نفوسهم أقوياء في إرادتهم».

رحمه الله وغفر له وأرضاه .

* أما كتاب «الإسلام دين الفطرة» فيعد من أوائل الكتب الناضجة التي

ألفت بأسلوب مساير لأسلوب العصر والتي قصد منها أن تمنح الفكر الإسلامي انطلاقة جديدة في مجال الحياة وحل مشاكل المجتمع المتغيرة والمتزايدة ، والتي نشأ الكثير منها عن احتكاك المسلمين بالحضارة الغربية .

* وإذا كان الإسلام يمتحن في معركة الحياة ، ويواجه بالشبهات والخصومات من أتباعه ومن غيرهم ، فقد كان لا بدّ للشيخ جاويش أن يصحح مفاهيم هؤلاء جميعاً عن الإسلام ، وأن يردّ على خصومه ، وأن يفسر آياته بما يوافق روح العصر دون أن يخلّ بأصل من أصوله .

* وفي دعوته إلى تطبيق شريعة الإسلام ، كان يطالب بمراعاة الزمان والمكان ، وقد هيأت له رحلاته ولقاءاته للكثيرين من الشباب والمثقفين ، أن الكثير منهم لا يكاد يفقه للإسلام معنى سوى أنه دين الاسترقاق والطلاق وتعدّد الزوجات ، وان المسلمين يعبدون محمداً كما يعبد النصارى المسيح بن مريم.. وهذا كلّه هو الذي دفعه إلى وضع هذا الكتاب .

* وقد عني المؤلّف في كتابه ببيان أثر القرآن في تحرير الفكر البشري ، وكيف أن القرآن لم يدع (وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلاّ تذرّع بها ، فهو إذا تحاكم ، فإلى العقل ، وإذا حاجّ ، فبحكم العقل ، وإذا سخط ، فعلى معطّلي العقل، وإذا رضي ،فعن أولي العقل). كما وضّح أن القرآن جادل (من جادل من أرباب الملل والنحل والماديين والدهريين ، فما قارعهم إلا بالبرهان ولا دعاهم إلاّ إلى البحث والنظر)

* وأخيراً فلئن كان المؤلف قد وقع ببعض الأخطاء المحدودة بسبب من رغبته في مسايرة بعض تطوّرات العصر ، إلاّ أن هذا لا ينقص من قيمة الكتاب ، فقد كان كتاباً رائداً نسج الكثيرون من المؤلفين فيما بعد على منواله ، وساروا على طريقه .

- ٣٧ -

صاحب المنار : الشيخ رشيد رضا
(١٣٥٤ هـ)

هو الشيخ رشيد رضا ، عالم عامل مجاهد ، حمل لواء الجهاد في سبيل الإسلام حياة كاملة لم يعرف خلالها الراحة أو الهدوء.

* وُلد في القلمون ، إحدى قرى مدينة طرابلس الشام ، سنة اثنتين وثمان ومئتين وألف من هجرة الرسول عليه السلام ١٨٦٥ ميلادية ، من بيت عريق ينتسب إلى الحسين بن عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنهما ، ومتصل نسبه بالعترة النبوية الشريفة ، وكانت أسرته التي نشأ فيها محافظة على الأخلاق الإسلامية ، معروفة بالدعوة إلى الإسلام ، تضرب المثل للناس بالعبادة والعلم والفضل والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالله .

* وكان والده الشيخ أحمد ، مقصد الناس على اختلاف أجناسهم وطبقاتهم وعقائدهم لما كان يتمتع به من سعة الصدر وكرم المعاملة للآخرين ، لذلك كان مجلسه عامراً بالعلماء والأدباء والوجهاء ، وفي هذا الجو العبق بالفضل والكرم ، ترعرع عالمنا المجاهد الشيخ رشيد .

* تعلّم قراءة القرآن الكريم والخط وقواعد الحساب في كُتّاب القرية ، ثمّ انتقل إلى المدرسة الوطنية الإسلامية في طرابلس ، وتهيأ له فيها أن يلتقي بالشيخ حسين الجسر أحد علماء الشام النابغين ، فتتلمذ عليه واتخذه له موجهاً

ومرشداً ، فكان له فضل كبير في توجيهه إلى كثير من العلوم والمعارف النافعة .

* وقد ظهرت على الشيخ رشيد في تلك الفترة علامات الذكاء والنبوغ ، وكان من أهم ما اتصف به قوّة في الذاكرة والاستحضار لما يسمع ، وقدرة عجيبة على الفهم السريع ، وقدم راسخة في المناقشة والجدل ، كانت من أقوى أسلحته حين أسّس مجلة المنار ، وأخذ في الرد على خصوم الإسلام .

* ثم تابع الشيخ دراسته حتى نال إجازة التدريس أو العالمية ، وكان يهدف من علمه التقرّب به إلى الله والاستعداد لخدمة دينه ونفع عباده وقد قال في ذلك : « العلم الصحيح ما كان صفة للنفس ، والعلم النافع ما كان باعثاً على العمل الصالح ، والعمل الصالح ما صلحت به نفس العامل وكان قدوة حسنة لكل من عرفها » .

* وكان مع تحصيله للعلم يأخذ نفسه بالسلوك الصالح والعبادة الخالصة ، بما فيها قيام الليل معظم الأيام حتى كانت والدته تقول : « انني منذ كبر رشيد ما رأيته نائماً ، فإنه ينام بعدنا ويقوم قبلنا » ، كما كان يحرص على الاعتكاف في شهر رمضان ، حتى صار مثلاً عالياً في الطهر والتقى والعلم ، نقيّ المظهر والمخبر مُعدّاً خير إعداد لأداء رسالته العظيمة في بلده ثمّ في العالم الإسلامي الفسيح .

* بدأ رشيد رضا دعوته الإصلاحيه بحثّ الناس على التخلي عن البدع التي تمسكوا بها ، ومنها التبرك بأصحاب القبور ، وحملهم على التوجه بالرجاء إلى الله وحده ، وأظهر حماسة في إزالة أسباب البدع والضلال أدن أن يخشى في الله لومة لائم . ثمّ أخذ بتنبيه رجال الدولة العثمانية إلى الأخطار التي تحيط بالدولة ، ويحذرهم من العاقبة الوخيمة التي تنتظرهم إذا لم يغيروا بعض ما هم عايه من فساد واستبداد .

* ثم سمع رشيد رضا بحركة الإصلاح الكبيرة التي قامت في مصر بعد أن بعث فيها روحاً جديدة ذلك المصلح الكبير جمال الدين الأفغاني ، وترامى إليه

نبأ الاحتلال الأجنبي لمصر ونفي جمال الدين وتلميذه محمد عبده ، وعلم أنهما أسسا جمعية العروة الوثقى ، التي تضم مجموعة من المسلمين الداعين إلى إعادة مجد الاسلام والقضاء على أسباب ضعف الدول الإسلامية ، وعندما أصدرت هذه الجمعية مجلة العروة الوثقى في باريس ، كان حريصاً على الاطلاع عليها ، فقد وجد فيها روحاً من روحه ، واستفاد منها فائدة لا توصف .

* وقد اشار السيد رضا إلى هذا بقوله : « وأكبر أثرها عندي أنها هي التي وجهت نفسي للسعي في الإصلاح العام بعد أن كنت لا أفكر إلاّ فيمن بين يدي » ، وقد وجد فيها ضالته المنشودة ، فاتخذها مدرسة له في رسم طريق الصلاح وبيان السبل التي يمكن للمصلح أن يجتازها ، ولعلّها هي التي أوحت له بتأسيس مجلة المنار فيما بعد .

* وهكذا تطوّرت حياة رشيد رضا ودعوته الإصلاحية ، وخاصة بعد أن اجتمع مع الشيخ محمد عبده في لبنان مدة إقامته فيها . وكتب في مذكراته عن هذا التحوّل يقول : « فانتقلت بذلك إلى طريق جديد في فهم الدين الإسلامي ، وهو انه ليس روحانياً أخروياً فقط ، بل هو دين روحاني جسماني ، أخروي دنيوي ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ، ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل » وهذا ما جعله يلتفت إلى وجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقوّمات الحياة .

* ثمّ قرّر الشيخ السفر إلى مصر للإقامة فيها والعمل في ميدان الإصلاح الإسلامي العام ، وقد بدأ جهاده في هذا الميدان عملاقاً يبهر الأبصار بقوّته العظيمة ومواهبه النادرة ، وكان أن انشأ مجلة المنار لتكون منبراً لقضايا العروبة والإسلام ، فقد كُتب لها أن تصدر خمساً وثلاثين سنة ، فتحمل عبء الدفاع عن القضايا الوطنية الخاصة بكل قطر إسلامي ، إلى جانب دفاعها عن قضايا الإسلام بوجه عام ، وكشف المؤامرات التي ترسم هناك وهناك ، وبيان سبيل العلاج والإصلاح ، وقد قام من أجل تحقيق هذا الغرض بزيارة عدد من البلاد

الإسلامية والأوروبية ، كما حضر عدداً من المؤتمرات التي عقدت لمعالجة بعض الأمور الهامة والمستعجلة .

* ولعلّ خير ما نختم به الحديث عن هذا العالم المجاهد ما سجله عنه أحد كبار المعاصرين له ، وهو الأمير شكيب أرسلان إذ يقول : « إنه منذ أوحي إلى محمد ﷺ : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » إلى ساعتنا هذه ، ومنذ نشأت الأمة المحمدية ، وقد نبغ فيها من الأمراء والعلماء والقواد والحكماء ورجال السيف والقلم ، عدد كبير من العبقريين والمشاهير والأقطاب ، فسواء قل هذا العدد أو أكثر ، فإن السيد رشيد رضا من صُيّانه المعدودين في هؤلاء ، ولا يمكن أن يكتب تاريخ الإسلام على الوجه الصحيح ويوفر فيه لكل علم من أعلامه الحق الذي يستحقه بدون أن يكون لصاحب المنار فيه مقام كريم وبرهان ساطع » .

* خلّف رشيد رضا عدداً من المؤلفات والآثار ، منها : تاريخ الإمام محمد عبده ، في ثلاثة مجلدات ، حقوق النساء في الإسلام ، الوحي المحمدي ، الوحدة الإسلامية ، الخلافة أو الإمامة العظمى ، يسر الإسلام وأصول التشريع العام ، على أن أهم ما خلفه على الإطلاق مجلة المنار .

* وانطفأت شعلة حياة هذا الفاضل العظيم سنة ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م بعد حياة حافلة في خدمة الإسلام والمسلمين رحمه الله ورضي عنه وأرضاه .

* * *

أما الكتاب : أيها القارىء الكريم ، فإننا سنتجاوز ما جرينا عليه في الحلقات السابقة لنتحدث بأسطر قليلة عن مجلة لا عن كتاب ، لكن هذه المجلة تعدل عشرات الكتب بل مئاتها ، وتلك هي مجلة المنار .

* صدر الجزء الأول منها سنة ١٣١٥هـ ١٨٩٨م بعد هجرته إلى مصر مباشرة ، واستمرّت في الصدور حتى سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥م فكان آخر ما طبع منها الجزء الثاني من المجلد الخامس والثلاثين .

* والمجلة موسوعة إسلامية كبرى ، تحوي ثمرات تجارب الشيخ وآرائه في الإصلاح الديني والسياسي ، حتى ان المؤلفات الأخرى التي وضعها رشيد رضا ، لا تعدو أن تكون فروعاً عنها ، أو شرحاً لآراء سبق أن أشار إليها في المنار ، أو دراسات كانت موزعة فيها ، فجمعت في وحدة واحدة فيما بعد .

* ولا تزال تلك المجلة أيها القراء الكرام حتى الآن مصدراً لكلّ من أراد أن يدرس حالة البلاد العربية والإسلامية من النواحي الفكرية والاجتماعية والسياسية طيلة أكثر من ثلث قرن من الزمان .

obeikandl.com

- ٣٨ -

عالم من الهند : أمير علي
(١٣٤٧ هـ.)

إن صرح الثقافة الاسلامية الشامخ مشيد بجهود المسلمين من جميع الأمم والشعوب ، لذا فقد اعتدنا في هذا البرنامج ان ننظر إلى رجال الفكر الاسلامي من خلال هذه الحقيقة الواضحة ، ومن هنا جاء تعريفنا بأعلام هذا الفكر من كل وطن أو جنس أو امة .

• وعلمنا لهذه الحلقة واحد من كبار رجال الفكر الاسلامي في الهند ، واحد زعمائهم الاجتماعيين والسياسيين وهو السيد أمير علي صاحب الكتاب المعروف « روح الاسلام ».

• ولد هذا المفكر الكبير من اسرة عربية في الهند ما تزال تحتفظ بشجرة نسبها إلى الرسول الكريم ، وتعلم اللغة العربية والعلوم الدينية ، ثم درس الفارسية واتقن اللغة الانجليزية حتى كان يحضر مجالس كبار الادباء الانجليز الذين كانوا يترددون على الهند يوم كانت درّة الامبراطورية ، قد يسر له اتقانه لهذه اللغات أن يكون على المام واسع بالثقافتين الاسلامية والغربية .

• ثم سافر إلى انجلترا مزوداً بهذه الثقافة الواسعة ليكمل دراسته القانونية الا انه لم يقتصر على هذه الدراسة بل عكف على دراسة الأداب الانجليزية حتى

سيطر على هذه اللغة سيطرة طويلة ، فكان من أفضل كتابها ومتحدثيها ، وقد ساعده هذا على القيام بمهمته الجليلة وهي التعريف بالاسلام في اوروبا وسائر انحاء العالم الذي ينطق بالانجليزية .

* بدأ حياته العلمية بكتابه « محمد وتعاليمه » فحاز على اعجاب كل من قرأه ، وكان له تأثير كبير في المحافل الاوربية والهندية ، ثم كتب « مختصر تاريخ العرب ، لخّص فيه تاريخ المسلمين واهتم بوصف حياتهم الاجتماعية ، ونادراً ما كان المؤلفون يتبادلون هذا الجانب ، وتفرغ بعد ذلك لوضع كتابه العظيم « روح الاسلام » بمقدمته الجليلة التي تعد من أعظم ما كتب عن الاسلام ، وقد اهتم في هذا الكتاب بشرح مبادىء الدين الاسلامي وبيان قابلية الحياة في ظله للتطور المستمر والرقيّ الدائم .

* وعندما عاد إلى الهند ساهم في جميع نواحي النشاط فيها وخاصة بين المسلمين . اما من الناحية الفكرية فإنه تابع النشاط ، واتجه إلى الشريعة الاسلامية والأحوال الشخصية خاصة ، واما من الناحية الاجتماعية فإنه لم يأل جهداً في العمل على اصلاح الحياة الاجتماعية لمسلمي الهند ووجه عناية كبيرة إلى تربية المرأة مما كان يليق بالمسلمين في رأيه ان يهملوا النصف المكوّن لحياتنا الاجتماعية.

* على أن عمل السيد أمير علي كان انشط ما يكون في الميدان السياسي ، فقد كان حريصاً أن ينال المسلمون في الهند كافة حقوقهم ، هكذا قاد حركة سياسية اسلامية واسعة وأسس الجمعية الوطنية الاسلامية بقصد الدفاع عن حقوق المسلمين وتحديد وضعهم السياسي ومع الاضطهاد العنيف الذي كان يلقاه سيد أمير من السلطة البريطانية ، والكراهية الشديدة التي كان يقابل بها من الهندوكيين الا انه بقي متابعاً سيره في الاصلاح والعمل واستعمال نفوذه وقلمه ولسانه في انهاض لمسلمين ومنازلة من يريد انتقاص حقوقهم .

* وفي السياسة الجامعية كان سيد امير علي يؤمن بقيام وحدة اسلامية تجمع حكومات المسلمين وشعوبهم . وكان يحقق بالفعل ما يدعو اليه بقلمه،

فحين علم ان جمعية الصليب الاحمر – في الحرب التي قامت بين ايطاليا من جهة وتركيا والعرب من جهة اخرى – كانت تعنى اكثر ما تعنى بالجرحى غير المسلمين ، سعى إلى تأليف جمعية اسعاف تنظم وحدات علاجية لجرحى العرب ، والترك ، ولكنه وجه القائمين على امر الجمعية إلى أن يمدوا يد المعونة إلى جميع الجرحى على السواء .

obeikandl.com

- ٣٩ -

الأديب المسلم : مصطفى صادق الرافعي
(١٣٥٦ هـ)

أديب مبدع وقف قلمه وفكره للدفاع عن العروبة والإسلام ، وصد عاديات المتهجمين على أصالة العربية ومكانتها ذلك هو الكاتب الكبير مصطفى صادق الرافعي .

وُلد في قرية من قرى محافظة القليوبية في مصر عام ١٨٨٠ ميلادية ، من أسرة سورية نزحت إلى أرض الكنانة وأقامت في طنطا ، وكانت أسرته معروفة بالتدين والصلاح والعلم ، تولى عدد من أفرادها منصب القضاء الشرعي في المحافظة حتى أصبح اسم عائلة الرافعي مرادفاً للعلم والمكانة الأدبية .

ونشأ أديباً تحت رعاية هذه الأسرة الكريمة ، وتهيأ له أن يطلّع على ما في مكتبة والده من أمهات المؤلفات في علوم الدين واللغة والأدب والاجتماع ، فانطبع بطابع الأسرة في سلوكه الاجتماعي وأسلوبه الفكري وتعبيره الأدبي (مع أنه لم يحصل من الإجازات إلاّ على الشهادة الابتدائية) إلاّ أنه استطاع أن يعوض ما فاته عن طريق الدراسة النظامية بالمطالعة والدراسة الخاصة ، حتى أصبح من أشهر كتاب اللغة العربية وأعرفهم ببواطنها على مدار العصور .

وإنك لتقرأ للرافعي فيخيّل إليك أنك تعيش مع رجل من التاريخ فرّ من ماضيه البعيد وطوى الزمان ليعيش في هذا العصر ، ويصل حياة جديدة بحياة كان

يحياها منذ ألف سنة أو تزيد في عصر بعيد .

انصرف الرافعي إلى التراث العربي والإسلامي ، يقرأ ويفكر ويحفظ ، فقد حفظ القرآن ، واستظهر كتاب نهج البلاغة ، وكان ينصح الناشئين والمتأدبين بقراءة : رسائل الجاحظ ، وكتاب الحيوان ، والبيان والتبيين ، والأغاني ، وكليلة ودمنة ، والألفاظ الكتابية للهمذاني ، ولا شك أنه قرأ هذه الكتب جميعاً ، وقد ساعدته هذه القراءات على أن يعيش في جو التعبير العربي الجزل ، والصياغة الأدبية المحبوكة .

• وقد أصابت كاتبنا الكبير حمى تركت وقراً في إحدى أذنيه وهو في ريعان شبابه ثمّ انتقل الوقر إلى الأذن الثانية، وما كاد يبلغ الثلاثين حتى أصبح في عزلة عن عالم الأصوات ، فأصبح عازفاً عن مخالطة الناس ، يعيش مع الكتاب . صديقه وسميره الوحيد، ولعلّ هذا الانقطاع هو الذي هيأ له تلك الثقافة العالية ، فقد بات وقته موزعاً بين الوظيفة والمطالعة والكتابة .

• ولعلّك تعجب أيها المستمع الكريم إذا علمت أن أديبنا الكبير أمضى حياته كلّها في وظيفة صغيرة ، فقد عين سنة ١٨٩٩ كاتباً بمحكمة طلخا الشرعية ، ثمّ نقل إلى محكمة طنطا الشرعية ، ثمّ أصبح كاتباً في محكمة طنطا الأهلية إلى أن توفاه الله .

• إلاّ أنه لم يكن يتقيّد بوقت معين يداوم فيه على وظيفته فقد كان يذهب إليها عندما يشاء ، فينجز ما لديه من أعمال ويغادرها إلى مطالعاته وكتاباته ، والحق أن الوظيفة كانت متواضعة جداً إذا قورنت بالمكانة الأدبية الكبيرة التي كان يحتلها ، ولذلك كان الرؤساء هم الذين يزورونه في حجرته في المحكمة ، ولم يحدث أن ذهب إلى حجرة رئيس قط ، وعندما اغتاظ أحد الرؤساء لطريقة الرافعي في العمل ، انتدبت الوزارة أحد المفتشين للتحقيق معه وكان بالصدفة ، الشاعر الكاتب حفني ناصف ، فسجل في تقريره أن للرافعي حقاً على الأمة ككاتب وإن ما يسري

على موظفي الدولة من قوانين روتينية يجب أن لا يقيده ما دام يؤدي عمله على خير وجه .

* كان الرافعي كاتباً أصيلاً يمثل تيار المحافظة على الإسلام والعروبة والتقاليد الشرقية ، في مقابل الدعوة العنيفة التي كانت تدعو إلى الذوبان في الحضارة الغربية بكل ما فيها ، وقد كان يقول عن نفسه : « يخيل إليّ دائماً أني رسول لغوي للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه » ، وقد دخل من أجل ذلك في معارك عنيفة مع أنصار التجديد .

* على أنه أدّى دوره حق الأداء ، في وقت كانت البلاد فيه بأمس الحاجة إلى أمثاله من الغيورين على الخلق والدين والتقاليد، خاصة بعد أن اتجهت البلاد ناحية الغرب لا تعرف ما تأخذ منه وما تدع ، فكان وأمثاله صمام الأمان الذي خفف من غلواء الانكباب الأعمى على الأخذ من حضارة الغرب وأهلها .

* وكان الرافعي متشدّداً فيما يمس دينه ، ويحكي أحد أصدقائه أنه كتب في أحد رسائله إليه اسم الرسول عليه الصلاة والسلام دون ان يتبعه بالصلاة عليه ، فكتب إليه الرافعي يعاتبه عتاباً شديداً ، معتبراً ما فعله سوء أدب لا يقبل من أحد ، ولا يمرّ أحد عليه . كما كان عزيز النفس أبيّ الروح مع أنه عاش عيشة كفاف يشكو ضعف الجسد والمرض المزمن وعدم القدرة على القراءة والكتابة .

* وكان ثري الإنتاج كثير الكتابة ، ومما خلفه لنا : ديوانه الذي صدر في ثلاثة أجزاء ، وديوان النظرات ، وتاريخ آداب العرب ، وإعجاز القرآن ، وحديث القمر ، والمساكين ، ورسائل الأحزان ، والسحاب الأحمر ، وأوراق الورد ، ووحي القلم ، والمعركة تحت راية القرآن ، وغيرها كثير .

* وفي فجر يوم من أيام مايس عام ١٩٣٧ استيقظ أديبنا الكبير فتوجّه وصلى وجلس يقرأ بعض آيات القرآن الكريم حتى توفاه الله ضحى ذلك اليوم فأسلم الروح بعد حياة حافلة بجليل الأعمال ، رحمه الله رحمة واسعة وأفسح له في الجنان مع الخالدين .

* * *

أما الكتاب : فهو تاريخ آداب العرب ، كتبه الرافعي بين سنة ١٩٠٩ إلى آخر سنة ١٩١٠ وأتمّ طبعه عام ١٩١١ ، وكان السبب في تأليفه أنه كتب مقالا في إحدى المجلات انتقد فيه مفاهيم الجامعة المصرية في تدريس الأدب العربي وتاريخه ، فقرّرت الجامعة منعاً للنقد أن تعلن عن مسابقة لتأليف كتاب في تاريخ الأدب يشترك فيها جميع أدباء مصر ، فكتب الرافعي هذا الكتاب دون أن يتقدّم به إلى المسابقة .

* صدر الكتاب في ثلاثة أجزاء ، طبع آخرها بعد وفاته ، ويحتوي الجزء الأوّل فيه على بابين أوّلهما بعنوان : في تاريخ اللغة ونشأتها وتفرّعها وما يتصل بذلك . وثانيهما بعنوان : في تاريخ الرواية ومشاهير الرواة وما تقلّب من ذلك على الشعر واللغة .

* أما الجزء الثاني فقد أسماه الرافعي إعجاز القرآن ، وقد حدّد نهجه في تأليف الكتاب بقوله : « الطريقة المثلى أن نذهب في تأليفنا مذهب الضم لا التفريق ، وأن نجعل الكتاب على الأبحاث التي هي معاني الحوادث لا على العصور ، فنخصص الآداب بالتاريخ لا التاريخ بالآداب كما يفعلون ، وبذلك يأخذ كلّ بحث من مبتدئه إلى منتهاه متقلّباً على كلّ عصوره سواء اتسقت أم افترقت فلا تسقط مادة من موضعها ، ولا تقتصر على غير حقيقتها ، ولا تلجأ إلى غير مكانها ، ثمّ لا يكون بعد ذلك في التاريخ إلاّ التاريخ نفسه ، لا ما يزين به العبارة الموفقة ، ولا ما توصل به الحقائق القليلة من تصور الخيال وشعر التأليف » .

* وقد أثار الكتاب حين صدوره تعليقات كثيرة فايده الكثيرون ، وعارضه الكثيرون ، على أن المعارضين أنفسهم اعترفوا أن الرافعي فطن في كتابه إلى أشياء كثيرة حتى كتب عنه أحد معارفه : « قرأنا هذا الجزء ، فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه ، يدلّ على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً ، وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرّفاً حسناً ، وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هذا الجزء إلاّ بعد درس طويل وتعب ممل ، وأما أسلوب الرافعي في كتابته فإنه سليم من الشوائب الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين

فكأني وأنا أقرأه أقرأ من قلم المبرّد في المساواة . وإلباس المعاني ألفاظاً سابغة مفصلة عليها » .

• أما الجزء الثاني خاصة وهو « اعجاز القرآن » فقد أثار معركة عنيفة بين الرافعي وعدد من الكتاب ، أبلى فيها أديبنا بلاء حسناً واستطاع أن يكون كفوءاً للجميع .

obeikandl.com

- ٤٠ -

شاعر الاسلام : محمد اقبال
(١٣٥٦ هـ.)

هو محمد إقبال ، شاعر نابغة ، وفيلسوف إسلامي ، ومفكر مبدع .

• وُلد شاعرنا سنة ١٢٨٩ هـ ١٨٧٣م لأبوين صالحين تقيّين ، ينتسبان إلى أسرة ذات أصل كشميريّ ، هاجرت إلى سيالكوت في البنجاب .

• وابتدأ العلم على والده ، ثمّ انتسب إلى كُتاب حفظ فيه قسماً وافراً من القرآن الكريم ، وقد ترك هذا أثره على أسلوبه ، فقد كان كثير الاستشهاد به في شعره ونثره .

• ثمّ دخل مدرسة تابعة لبعثة أجنبية في مدينته حيث تلقى رعاية خاصة من بعض الأساتذة المسلمين فيها ، على رأسهم صديق والده (مير حسن) الذي اقترن اسمه بسيرة إقبال وتأديبه وتعليمه ، وكان له أكبر الفضل في اكتشاف مواهبه وتوجيهها .

• وكان هذا الأستاذ على ما يبدو على صفات نادرة ، فقد كان متضلّعاً في علوم كثيرة ، محترماً ، دقيقاً ، مهاباً من الأساتذة والطلبة جميعاً ، وكان على ظرف وطرافة ، وقد ترك تأثيره ، واضحاً على تلميذه حتى كان إقبال كثيراً ما يشير إليه في شعره .

• حين فرغ إقبال من مدرسة البعثة الأجنبية كان عمره اثنتين وعشرين

سنة . وكان صيته قد ذاع بين الأدباء على أنه شاعر مجيد ، حتى انه حين كان يبعث شعره إلى أحد كبار شعراء الأردية لينتقحه له ، كان يرده له قائلاً إن هذا شعر لا يحتاج إلى تنقيح .

• ثمّ انتقل إقبال إلى لاهور ، وكانت آنذاك من أعظم مدن الهند حضارة وعلماً وفناً . يقصدها الأدباء والعلماء من جميع أنحاء الهند ، وتقام فيها المجامع العلمية ، وتعقد المحافل الأدبية حيث ينشد الشعراء عيون شعرهم ، ويعرض الأدباء أجمل ما لديهم .

• وفي هذه الحاضرة الكبيرة انتسب إقبال إلى الكلية الحكومية ليكمل تعليمه ، فنال منها درجة الإجازة ثم الأستاذية بتفوق ، وكان تلميذاً لتوماس أرنولد ، المستشرق البريطاني المعروف ، صاحب كتاب الدعوة إلى الاسلام ، وأكثر رجال الاستشراق إنصافاً للإسلام وتقديراً للحضارة الإسلامية ، وقد بقي إقبال وفياً لهذا المستشرق المنصف ، فقد نظم فيه ــ حين أراد العودة إلى بلده ــ قصيدة بعنوان « نواح الفراق » أعرب فيها عن حبّه لأستاذه وإكباره إياه وتحسره على فراقه .

• وعند ما انتهى من الدراسة عين لتدريس التاريخ والفلسفة الشرقية في الكلية الشرقية بلاهور ، ثمّ لتدريس اللغة الانكليزية والفلسفة في الكلية التي درس فيها ، فحاز إعجاب الطلاب والأساتذة على حدّ سواء ، لسعة علمه وحسن خلقه ، وأصبح ذائع الصيت في الولاية كلّها ، يدعى إلى المجامع والمحافل ، ينشد قصائده ، وتنشر الصحف أدبه وفكره ، ويتنبأ له الناس بمستقبل عظيم .

• لكن إقبال ــ شأنه في ذلك شأن أولي العزم وأصحاب النفوس الكبيرة والهمم العالية ــ لم يقنع بما حصل ، فعزم على أن يطّلع على أوروبا وحضارتها وحياتها وثقافتها وعلمها ، فشد الرحال إليها ، والتحق بجامعة كمبردج فنال أعلى الإجازات في الفلسفة والقانون ، ثمّ رشحه أرنولد للتدريس في جامعة لندن فقام بعمله وأداه خير الأداء .

• وكان عالمنا في ذلك الوقت مقبلاً على دراسة أصول حضارة الغرب، يتتبعها في المكتبات والمجلات ، ولقاء كبار مفكري هذه الحضارة ومؤلفيها ، وكان في الوقت نفسه يقوم بشرح مبادىء الإسلام وعرض نظمه ومبادئه عن طريق المحاضرات العامة والكتابة في الصحف والمجلات والمناقشات المختلفة ، وقد خرج من هذا بعد ثلاث سنوات بقصيدة أنشدها قبيل عودته إلى بلاده يقول فيها « يا ساكني ديار الغرب ، ليست أرض الله حانوتاً ، إن الذي توهمتموه ذهباً خالصاً سترونه زائفاً ، إن حضارتكم ستنحر نفسها بخنجرها ، إن العش الذي يبنى على غصن دقيق لا يثبت » .

• عاد إقبال إلى وطنه فاستقبل استقبالاً يليق بمكانته وأدبه وشعره ، وعمل في المحاماة والتدريس في الجامعة ، وإلقاء المحاضرات ، وتابع كتابة الشعر وتسجيل فكره .

• كما عمل في الميدان السياسي فدخل الانتخابات ، وشارك في إنشاء حزب الرابطة الإسلامية ، واشترك في مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن الذي كان عُقد لبحث مستقبل الهند .

• على أن أعظم عمل سياسي إسلامي قام به هو دعوته إلى إنشاء دولة تضم مسلمي الهند هي باكستان ، لذا فإنه يعتبر صاحب الفكرة الأولى في إيجاد هذه الدولة الإسلامية العظيمة .

• فقد رأس في عام ١٩٣٠ م اجتماعاً سنوياً للرابطة الإسلامية ، ألقى فيه خطبة ضافية دعّم فيها آراءه بمؤيدات من الفلسفة والاجتماع والأخلاق ، وبيّن فيها أن اتحاد الهند على ما فيها من طوائف وأديان ، عسير ، وانه لا بدّ من اعتراف كل جماعة في الهند بالجماعات الأخرى ، على أن يقوم نوع من التعاون فيما بين هذه الجماعات . قال إقبال : « إن الفرق الاجتماعية والجماعات الدينية في الهند لا تقبل التغاضي عن أشخاصها حتى ينشأ لها الشعور الذي يُنشىء الأمة ، فينبغي إذن ألاّ يلتمس اتحاد الهند في محو الفوارق من بين الجماعات ،

بل نلتمسه في الاعتراف باختلاف الجماعات والعمل على التعاون بينها » .

* ومما قاله إقبال : « أنا لا أقبل الوطنية التي تعرفها أوروبا ، وليس إنكاري إياها خوفاً من أن تضرّ بمصالح المسلمين في الهند ، ولكني أنكرها لأني أرى فيها بذور المادية الملحدة وهي عندي أعظم خطراً على الإنسانية في عصرنا » .

* وتأكيداً لاقتراحه بإيجاد دولة إسلامية في الهند كتب للقائد الأعظم محمد جناح مؤسس باكستان يقول : « إن خير وسيلة إلى السلام في الهند في هذه الأحوال أن تقسم البلاد إلى قواعد جنسية ودينية ولغوية » وكانت دعوته كما ذكرنا أساساً لنشوء باكستان ، كبرى دول العالم الإسلامي في عصرنا الحاضر .

* خلف محمد إقبال شعراً غزيراً ينضج بالفكر والحكمة ، ومحاضرات كثيرة كان ألقاها في الهند وأفغانستان ومصر وأوروبا .

* وفي عام ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م وافاه الأجل المحتوم بعد مرض عضال ، وكان ينشد من شعره :

نفحاتٌ مضَيْنَ لي هل تَعـــود ... أنَسيمٌ مـــن الحجاز يَعـــود
آذَنَت عيشتي بوَشك رحيـــــل ... هل لعلم الأسرار قلبٌ جديـــد

رحمه الله وأرضاه وأنزله مع الخالدين في جنانه .

* * *

* أما الكتاب : فقد كنا نودّ أيها القارىء الكريم أن نعرض لمحاضرات إقبال السبعة التي ألقاها باللغة الإنجليزية ، ثمّ نشرت بعنوان : التجديد الديني في الإسلام ، فقد كان لهذه المحاضرات أثرها المدوّي وخاصة في الغرب لما حوته من أفكار جديدة ، أو كنا نودّ لو نتحدّث عن أحد دواوينه التسعة الشهيرة ، إلاّ أن المجال يضيق بنا عن ذلك لذا فقد رأينا أن نختم حديثنا عنه وهو شاعر الإسلام العظيم ، بمقتطفات قصيرة من شعره منظومة إلى العربية بقلم المرحوم عبد الوهاب عزام :

حول امة الاسلام يقول اقبال :

أنا مَن في ظلمة الليلِ أنـــار ... في طريق الملّة البيضا غبـــار
أمّةٌ دوّت بآفـاق الـورَى ... لحنَها في القلب نارٌ قد سرَى
ذرّةٌ ألقَت وشمساً حَصَدتْ ... ألفَ روميّ وعطّارٍ جَنَتْ

وفي وصف المؤمن يقول :

مع الصحب لِينٌ كلَمس الحرير ... يعين من المحك المؤمـــنُ
شديدٌ إذا ما طغى باطـــلٌ ... وكاللّيثِ في المعرَك المؤمـنُ
من الطين لكن على الأرضِ يسمو ... ويأبَى على الفلكِ المؤمـنُ
وما همّه صيدُ طيرٍ ولكـنْ ... يصيدُ من الملَك المؤمـنُ

- ٤١ -

مجاهد من الجزائر : عبدالحميد بن باديس
(١٣٥٩ هـ)

• ان من وراء كل نهضة صحيحة أو بعث قويم أو تحرر حقيقي ، اعداد روحي ونفسي وأخلاقي شامل ، يقوم به رجال يملكون طاقات عظيمة على تكوين الأشخاص وإيجاد النخبة التي تتحمل عبء النهضة والاصلاح والتحرر فيما بعد .

• وفي عصرنا الحديث مثال رائع على هذا النوع من الرجال ، استطاع بما حباه الله من قدرة على المتابعة والاستمرار أن يبعث الحياة في أمة كاملة ، ويدفعها في طريق التحرر بعد أن ظن الكثيرون أنها فقدت الحياة ، حتى كتب الله لها النصر ، ذلكم هو الامام عبد الحميد بن باديس ، باعث الاصلاح في الجزائر وحامل لواء ثورة التحرير .

• وكان سرّ نجاح هذا الامام العظيم أنه أدرك هدف الاحتلال الطويل للجزائر فحاربه بنفس الأسلوب ، وكان هذا الهدف يتمثل في محو شخصية الجزائر العربية الاسلامية ، فحاصره ابن باديس بالعمل على إبقاء الجزائر عربية مسلمة ، فكانت جمعية العلماء الجزائريين وكانت المدارس التي انبثقت عنها تعنى أول ما تعنى بالقرآن الكريم واللغة العربية ، وهكذا تحقق له ما أراد .

• وكان الاصلاح الروحي هو العمل التمهيدي الذي قام به مجاهدنا الكبير ، وكان منطلقه في هذا الاصلاح أن يجمع بين العقيدة والعمل ، وحين بدأ ابن

باديس جهاده ، ظن المستعمر ان عمله لا خطر فيه ، ذلك انه يتكلم عن الدين والخلق والعقيدة وضرورة الاصلاح الديني والتضحية من أجل الآخرين والشورى عند الملمات اعداداً لمرحلة الجهاد والكفاح ، أي انه وضع البذور وتعهد النبت حتى فوجيء الآخرون بأن روح الشعب الجزائري أخذت تحقق من جديد ، فحاولوا المقاومة بأساليب لم تكن لتجدي لأنها جاءت بعد فوات الأوان .

* لقد كان سقوط الجزائر بيد الاحتلال الاستعماري سنة ١٨٣٠ نذيراً ببدء حروب صليبية جديدة على العالم الإسلامي ، ثم تتابعت النذر بسقوط تونس ومصر وليبيا ومراكش ثم سائر البلاد العربية والإسلامية ما عدا الجزيرة العربية التي شاءت ارادة الله ان تستنقذها من هذا المصير ، ثم استيقظ المسلمون من ركود ، وارتفعت صيحات الاصلاح والتحرير ، وادركت فئة من المصلحين المخلصين في كل بلد اسلامي ان سلاح اليقظة لن يكون الا العودة إلى الاسلام الصحيح المستقى من الكتاب والسنة وما تقتضيه مصلحة الامة الاسلامية .

* وكانت هذه دعوة الامام ابن باديس ، ولكنه وجد أن الجهود الفردية لا تغني كثيراً في مجابهة الاحتلال الذي خططت له هيئات ودول ، فكتب يشير إلى ان الاصلاح يؤتي ثمراته اذا كانت للمسلمين قوة « وانما تكون لهم قوة اذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر وتنهض لجلب المصالح ودفع المضرة ، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة » وهذا ما حققته جمعية العلماء الجزائريين الذين كان لابن باديس فضل تأسيسها ، كما كان للشيخ بشير الابراهيمي رحمه الله فضل متابعة رسالته فيها حتى تحقق النصر ، وكان الابراهيمي خطيب أول جمعة بعد التحرير تقام في مسجد الجزائر الكبير الذي عاد إلى حظيرة المسلمين مسجداً بعد أن حوله الاحتلال الذي دام قرناً ونصفاً من الزمان إلى كنيسة .

* وكان الشيخ ابن باديس يمتاز بالصرامة بالحق والشجاعة العقلية النادرة وكان يتوصل إلى ما يريد بأسلوبه الهادىء الذي يشبه مسير الماء الذي ينخر في الصخر ويفتت الجبال ، وقد عرف تلاميذه عنه هذه الصرامة كما عرفتها عنه

سلطات الاحتلال ولكن هذه السلطات كانت تعلم أن الشيخ يعبر عن هذه الصرامة بالدقة الهادئة التي تحصن صاحبها من سوط الجلاّد ومؤاخذة المتربعين، ومن أجل ذلك كان يروى عنه قوله : « اني استكفيكم في كل أمر يتعلق بالكلية – يقصد الكلية الشرعية في الجزائر – الا الاستعمار فانا اكفيكموه ، فخلوا بيني وبينه » .

* ومن الأمثلة الواضحة على شجاعته وجرأته ذلك الموقف الذي وقفه أمام حاكم الجزائر في أواخر سنة ١٩٣٣ والذي بيّن فيه خطة جمعية العلماء الجزائريين لأنه كان واثقاً من نجاحها ، فقد قال له : « ان العلماء وضعوا خطة التعليم الديني عن علم وعقيدة وتمسكاً بما هو مناسب لنظرتهم » وأضاف « ولو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً واضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا ، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها » .

* وهكذا نجحت الخطة التي رسمها ابن باديس ونفذها بصبر وأناة ، فقد حاولت دولة الاحتلال أن تمحو الصبغة العربية الاسلامية في الجزائر غير انها تنبهت بعد ان لم يعد ينفع الندم شيئاً إلى أن مصلحاً استطاع ان يقطع عليها الطريق في رفق ودون تظاهر بالبطولة ، فحاصرها باللغة العربية وتجديد العاطفة الدينية حتى نمت روح الجهاد والمقاومة في الأمة ، ونجت الجزائر بفضل الله ثم بإخلاص ابن باديس وتضحيات الشعب الجزائري . رحمه الله واسكنه فسيح الجنان .

- ٤٢ -

أمير البيان : شكيب ارسلان
(١٣٥٧ هـ)

هو الأمير شكيب أرسلان ، عالم كبير ، وأديب مطبوع ، وشاعر مبدع ، ومؤرخ عظيم ، وسياسي شهير ، وداعية إسلامي نادر المثال ، وهو أمير البيان ، الأمير شكيب ارسلان .

• وُلد شكيب أرسلان في بلدة الشويفات من مقاطعة الشوف بلبنان سنة ١٢٨٦ هجرية ١٨٦٩ ميلادية من أسرة عريقة تمتّ بالصلة لسلالة التنوخيين ملوك الحيرة . وتلقى دروسه في مدرسة دار الحكمة في بيروت ، ثمّ انتقل إلى دمشق واستانبول .

• عاش في عصر حافل مليء بالأحداث الخطيرة الفاصلة وخاصة بالنسبة للبلاد العربية والإسلامية ، فلقد عاصر الفترة الأخيرة من الحكم العثماني ، فترة أفول نجم الدولة وانهيارها ، وشاهد الانشقاق الذي حصل بين الترك والعرب ، والذي بعثه وروّج له أحقاد يهودية وصليبية ، ورأى النزاع العنيف الذي كان يقوم بين الطوائف وأنصار الديانات المختلفة ، وسار خطوة خطوة مع تغلغل النفوذ الأجنبي الذي بدأ يُحكم خناقه على العالم الإسلامي آنذاك .

• وكان هذا العالم قد أخذ يفتح صدره لتيارات فكرية غربية ، كما كانت الدعوات العربية التي تنادي بالانفصال عن الدولة العثمانية قد شقّت طريقها

إلى جانب الدعوة الطورانية وسائر الدعوات القومية الأخرى .

• ثمّ كانت الحرب العالمية الأولى ، وقامت الثورة العربية في الحجاز ، وتمزق العالم الإسلامي ، ثمّ توزع العالم العربي أسلاباً بين الدول الأجنبية ، وأعطي وعد بلفور وقام الاحتلال والانتداب وفرضت الوصاية والحماية ، ووقف الجنرال غورو أمام قبر صلاح الدين متبجحاً متوعداً ، كلّ هذا والأمير شكيب يعيش مع هذه الأحداث ويحدد موقفاً صريحاً منها ، شأن أي رجل يتخذ مبدأ يقوم على أساسه الأحداث والناس .

• ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، وزالت دول وامبراطوريات وظهرت دول جديدة وبزغت حركة النهضة الحديثة في العالم الإسلامي وأخذت أقطاره تفيق ، الواحدة تلو الأخرى .

• بالإضافة إلى ذلك فقد كان الأمير شكيب يرقب الحركة العلمية التي بدأت تتسع لتشمل كلّ الميادين في أوروبا ، وكان يرى المسلمين بين معجب بالحضارة الجديدة داعية لأخذها بكلّ ما فيها ، وبين خائف منها ، منكمش عنها ، يراها رجساً من عمل الشيطان ، وكان لا بد أن يكون له رأيه الواضح في هذا كلّه .

• كان موقف أرسلان من الدولة العثمانية واضحاً ، فقد كان عضواً منتخباً في مجلس المبعوثان عن حوران ، وقد دافع عنها دفاعاً مجيداً ، وعندما قامت الثورة العربية في الحجاز ، وكان الأمير شكيب في دمشق ، عرض عليه الاشتراك فيها ، ولكنه رفض ذلك ، وعارض الثورة معارضة شديدة ، ونبّه إلى أنها ستكون وبالاً على العرب والمسلمين ، وأن الاستمرار فيها انخداع بالمستعمرين الذين يضمرون للترك والعرب على السواء كلّ نية سوداء ، وكان ما تنبأه صحيحاً .

• ثمّ كان بعد ذلك من أشد أنصار القضية العربية ، فعمل بهمة لا تعرف الكلل على شرح مطالب العرب بالاستقلال ، وحقوق الفلسطينيين في أرضهم ، وأصدر من أجل ذلك مجلة العالم العربي باللغة الفرنسية في جنيف ، وتنقل بين

سويسرا وألمانيا وفرنسا وغيرها من بلاد أوروبا للغرض نفسه ، ثمّ زار أميركا للاتصال بالعرب والمسلمين الذين يقيمون بالمهجر ، وبلغ من شدّته على النفوذ الأجنبي وحنق الاستعمار عليه أنه مرّت عليه مرحلة طويلة من حياته كان ممنوعاً بتأثير السلطات الأجنبية من دخول جميع البلاد العربية إلاّ المملكة العربية السعودية .

* في سنة ١٩٢٩ التقى في موسم الحج بالملك عبد العزيز وأعجب الملك بالأمير وسجل في كتابه عن رحلته إلى الحجاز أنه شعر حينما وصل جدة « أنه عربي حرّ في بلاد عربية حرة لأن الاستعمار ضارب أطنابه في بلاد العرب سوى مملكتي ابن سعود ويحي بن محمد حميد الدين » .

* كان أمير البيان كثير الكتابة ، أحصي ما كتب في عام واحد فكان ١٧٨١ رسالة خاصة و ١٧٦ مقالة في الجرائد والمجلات و ١١٠٠ صفحة صدرت في كتب ، ويعتبر أسلوبه غاية في الوضوح والبيان حتى قال عنه خليل مطران « إمام المترسلين » .

* ألف ونشر عشرات من الآثار والمؤلفات ، وكتب الآلاف من المقالات والرسائل ، وأتعبه طول الترحال والنضال والكتابة ، حتى أصيبت يمينه بالشلل ، فاحتاج إلى الإملاء على سواه .

* من تصانيفه : الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية ، وغزوات العرب في فرنسا وشمالي إيطاليا وفي سويسرا ، ولماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ، ورحلة إلى الحجاز ، وشوقي ، والسيد رشيد رضا ، وأناطول فرانس ، وحاضر العالم الإسلامي ، وديوان شعر .

* توفي في بيروت سنة ١٣٦٦هـ ١٩٣٦م ودفن بالشويفات رحمه الله وأجزل له ثواب العاملين .

* أما الكتاب : فهو « لماذا تأخر المسلمون وتقدّم غيرهم » ، عرض فيه أمير البيان لواقع المسلمين وما هم عليه من الضعف ، وبين أسباب تداعي الأمم

عليهم ، وتسابقهم على التسلّط على شؤونهم ، ثمّ وضح فيه الوسائل التي يمكن للمسلمين أن يمتلكوا أسباب القوّة ويسيروا في طريق التقدّم والمجد .

• كان الكتاب نقداً لموقف المسلمين من جانب ، ولكنه كان أيضاً من أوائل الكتب التي نقدت الحضارة الغربية ، وقد بدأ الأمير شكيب بالإشارة إلى حقيقة هامة وهي « انه ليس كلّ شيء قديم منبوذاً كما انه ليس كل جديد مرغوباً فيه ، بل ينبغي أن ينظر في العلم إلى الأصلح وفي العمل إلى الأصلح بدون ملاحظة أن هذا جديد وذاك قديم » .

• وهو يرى أن الدعوة إلى الاستفادة من الغرب في حد ذاتها ليست شيئاً خطراً ، ولكن الأخذ بالثقافة الغربية على علاته هو الخطر ، ويعبر عن ذلك بقوله : « إن الغرب ساد الشرق وغلب على المعمور ورأى الشرقيون أنفسهم قد أحيط بهم ، وأصبحوا لا يملكون مع الغربيين أمراً ، فنهضوا يبتغون أسباب الخلاص من سيطرة الغرب ، فقالوا ليس لنا إلاّ أن نقاتله بسلاحه الذي كان سبب نجاحه ، ولما كان سلاحه هو الثقافة الأوروبية المبني أكثرها على العلوم الطبيعية والتي أمكنت الغرب من تسخير الماء والكهرباء ، قالوا لا بدّ لنا من أن نختار لأنفسنا هذه الثقافة .

• ثمّ يقول الأمير في الكتاب نفسه « وحتى هنا ، الأمر ليس خطراً ، ولكن الخطير أن نأخذ هذه الثقافة بحذافيرها ونقبلها على علاّتها ، وأن نتلقى هذه النظريات كلّها من مادي ومعنوي بدون استثناء .

• وقد انتهى الأمير في الكتاب إلى بيان رأيه في أن الاستفادة من العلم شيء ، والتخلي عن الشخصية شيء آخر ، وإنه ليس يقتضي اقتباس علوم الأوروبيين أن ننكر أصلنا ونجحد قوميتنا من أجلها ، لأننا نستطيع أن نتعلمها ونحن باقون على إسلامنا وعروبتنا .

• وقد ضرب الكتاب لذلك مثلاً باليابانيين الذين نقلوا جميع العلوم الأوروبية إلى بلادهم وفاقوا فيها أهلها ، ولم يزالوا يابانيين ، وبالافرنج أنفسهم الذين

نقلوا علوم الشرق من قبلُ إلى بلادهم وأبوا أن يكونوا شرقيين .

• أيها القارىء الكريم ، مع أنه قد مضى على صدور هذا الكتاب مدّة ليست بالقصيرة إلاّ انه لا يزال على جدّته وطلاوته ، سواء بالموضوعات التي طرقها ، أو بالأسلوب الذي فيه عالجها . رحم الله أمير البيان .

obeikandl.com

- ٤٣ -

ازهري في جامعة ليون : مصطفى عبد الرازق
(١٣٦٦ هـ)

• مصطفى عبد الرازق ، أحد اعلام الفكر الاسلامي الحديث ، ولد سنة ألف وثمانمائة وخمس وثمانين للميلاد وتوفي سنة الف وتسعمائة وخمس وأربعين ، كان اديباً مفكراً عالماً بأصول الدين والفقه ، مصلحاً مجدداً .

• درس العلوم الاسلامية في الأزهر وحصل منه على اجازة العالمية ، ثم درس بالجامعة المصرية وسافر إلى فرنسا حيث درس الفلسفة والاجتماع والآداب ، وكان متميزا حتى فكرت جامعة ليون بالاستفادة من مواهبه ، فعهدت إليه بتدريس اللغة العربية واصول الشريعة الاسلامية .

• وكان في الوقت نفسه يحضر بحثاً لنيل شهادة الدكتوراة عن الامام الشافعي ، بعنوان « الشافعي أكبر مشرعي الاسلام » ، وما كاد ينتهي من تقديم بحثه حتى عاد إلى وطنه مصر حيث عينّ في وظائف متعددة ، ثم عين أستاذاً للفلسفة الاسلامية في جامعة القاهرة واختير بعد ذلك ليكون وزيراً للأوقاف ، ثم شيخاً للأزهر حيث وافاه الأجل المحتوم وهو في هذا المنصب .

• كان عالمنا رضي الخلق داعية إلى الرفق والمحبة والتسامح ، حريصاً على ايصال السعادة للآخرين . وكان له رأي هام في الفلسفة الاسلامية ، خالف فيه آراء الكثيرين من المستشرقين خاصة ، هذا الرأي يقوم على أن هذه الفلسفة لا

تقصد في كتابات من يسمونهم باسم فلاسفة الإسلام كالفارابي وابن سيناء وابن طفيل ، ولكنها تقصد في دراسات أصول الفقه بصورة خاصة لأنها تمثل اصالة منهج التفكير في الاسلام .

• خلف مصطفى عبد الرزاق عدداً من الآثار القيمة من أهمها : تمهيد في تاريخ الفلسفة الاسلامية .

رحمه الله : وأجزل له المثوبة .

obeikandl.com

- ٤٤ -

الاستاذ الرئيس : محمد كرد علي

(١٣٧٢ هـ)

• يعد محمد كرد علي الأستاذ الرئيس من أبرز رواد النهضة الإسلامية العربية الحديثة ، ومن أكبر المدافعين عن الإسلام والمسلمين ، ولد سنة ألف وثمانمائة وست وتسعين ميلادية ، من أصل عراقي كردي الجنسية ، عربي النشأة . شاميّ الموطن والولادة والوفاة ، اسلامي التفكير والمعتقد سلفي النزعة والاتجاه .

• بدأ دراسته في المدرسة الابتدائية ولم يتجاوز الخامسة من عمره بعد ، فتعلم فيها القراءة والكتابة ومبادىء العلوم وفق المناهج المتبعة يومذاك ، وتعلقت نفسه بالمطالعة وصحبة الكتب منذ نعومة أظفاره وكان كثيراً ما يشاهد مستغرقاً في القراءة حتى الهزيع الثاني من الليل ، ومع كثرة ما نصحه أهله بالتقليل من المطالعة والاعتدال فيها خوفاً على صحته وبصره ، إلا أنه كان يشعر أن الوقت لا يكفيه وأن العلم لا يحُصّل دون سهر الليالي وركوب الصعاب .

• قرأ القرآن الكريم ودرسه على اساليب مختلفة ، وتمثل بلاغته ، وطالع طرفاً واسعاً من كتب الحديث ، وحفظ المعلقات السبع بشروحها وعدداً من دواوين العرب ، وفي المدرسة الثانوية بدأ الشاب محمد كرد علي يساهم في العمل الصحفي والكتابة الأدبية ، لكن ذلك لم يصرفه عن تنمية ثقافته العربية والاسلامية . فقد مضى يرتشف من مناهل الأدب والعلم على يد زمرة صالحة من علماء عصره

وفي مقدمتهم الشيخ طاهر الجزائري والسيد سليم البخاري والشيخ محمد المبارك .

* وقد وصف لنا الأستاذ الرئيس حدود ثقافته ومدى قراءاته فقال : «وأهم ما أولعت بمطالعته بعد درس المطبوع من كتب الأدب العربي وجانب من المخطوط الذي عثرت عليه من كتب الفلاسفة وعلماء الاجتماع واحوال الشعوب ومدنياتهم وطالعتُ بالفرنسية أهم ما كتبه فولتير وروسو ومونتيسكيو وبنتام وسبنسر وسيمون ، وتدارست المجلات الفلسفية والاجتماعية والتاريخية والأدبية باللغة الفرنجية ، وجربت منذ نشأت على قاعدة مطردة لم أتخلف عنها قيد شبر ، وهي أن أقرأ أكثر مما أكتب ، وقلما دونتُ موضوعاً لم أدرسه في الجملة ولم تتشربه نفسي» .

* وحبّب اليه شيخه طاهر الجزائري أن يعيش مع التراث العربي والاسلامي وأن يعمل على بعثه ما أمكن له ذلك ، وقد عبّر الأستاذ الرئيس عن ذلك بقوله «تشبعت نفسي بكتب الغزالي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم ، وأخذت الشريعة من أصفى مصادرها وأحنيت جملة من علمائنا ، ودأبت زمناً أنظر فيما كتبوا ، ولما جاءت نوبة العمل كنت ادوّن ما علمت»

* ولم يقتصر الاستاذ محمد كرد علي على القراءة بكل أنواعها ، وانما أضاف الى نهمه للعلم والمعرفة ما اكمله بالأسفار ، فقصد الآستانة ومصر ، ورحل إلى اوروبا اربع رحلات ، كتب بعد إحدى رحلاته هذه مقالات ومحاضرات في وصف مـا وقف عليه بنفسه في الغرب من غرائب ، وصف فرنسا ومدارسها ، وزار علماء الاستشراق في بلجيكا وهولندا ، وزار مكتبة لندن المشهورة ، كما زار جامعتي كمبردج وأوكسفورد .

* وقد عمل الأستاذ الرئيس في الصحافة ، وبدأ ذلك في مصر حين زارها سنة ١٩٠١ وبقي فيها حتى سنة ١٩٠٨ ، وكانت أول مقالة نشرها في المقتطف عن أصل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فاتهمته السلطة هناك بأنه وهابي وكان هذا النعت يلصق بأصحاب الأفكار النيرة ومن يقول بالسلفية الاسلامية وكأنها جريمة منكرة يعاقب عليها من يدين بها أو يدعو اليها .

• وعندما عاد إلى سوريا اصدر جريدة المقتبس ، وهي أول صحيفة عربية يومية في دمشق ، وتعرض بسبب جرأة مقالاته الى مخاطر مهالك ومحاكمات عديدة ، وزاد في إحراجه أنه كان يحرر جريدته اثناء الحرب العالمية الأولى ، وللحرب نظرتها الخاصة الى الصحافة وأصحابها وكتابها .

• وحين قامت في سورية حكومة عربية برئاسة الملك فيصل بعد الانفصال عن الدولة العثمانية أسس ديواناً للترجمة والتأليف وادارة شؤون المعارف يضطلع بوضع المصطلحات اللغوية ، وابدال المفردات التركية بالعربية وتعريب لغة الدواوين وتقرير الكتب اللازمة للمدارس ، ثم أضيفت إلى الديوان المكتبة الظاهرية ، ثم بدل اسم الديوان منذ سنة ١٩١٩ وأصبح «المجمع العلمي العربي ، وكان الأستاذ محمد كرد علي رئيساً له منذ تأسيسه ، حتى توفي سنة ١٩٥٣ وكان لهذا المجمع ومجلته وما نشر من كتب وحقق من التراث فضله الكبير على الثقافة العربية الاسلامية الاصيلة .

• من أهم مؤلفاته : خطط الشام ، الاسلام والحضارة العربية ، الادارة الاسلامية في عز العرب ، أمراء البيان ، وغابر الأندلس وحاضرها ، عدا عن مقالاته ومذكراته وما حققه من تراث العرب والاسلام .

• رحم الله الاستاذ الرئيس ، فقد كان مثالاً رائعاً لمضاء العزيمة وخلوص النيّة وصدق العمل وحب الخير وارادة الاصلاح .

- ٤٥ -

عالم مجاهد : مصطفى السباعي
(١٣٧٣ هـ)

عَلَمٌ من أعلام الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر ، ورائد من رواد النهضة الإسلامية الحديثة .

• وُلد في حمص من سورية ، وتلقى فيها علومه الأولى ، ثم قصد الأزهر ليستكمل معرفته بالعلوم الإسلامية ، وكانت تبدو عليه منذ الصغر ملامح النجابة والذكاء ، حتى انه كان كثيراً ما يخطب المصلين في الجامع الكبير يوم الجمعة وهو بعد لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره .

• نال من مصر شهادة التخصص من الأزهر ، ثمّ نال العالمية أو الدكتوراه ، وكان البحث الذي قدمه لنيل إجازته ، عن السُّنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، مثال الدراسة الجادة الهادفة ، التي تدفع كيد الخصوم وتفضح مؤامراتهم على الإسلام وألاعيبهم ، وقد استطاع السباعي في كتابه هذا أن يدفع عن السنّة تخريصات المستشرقين ، وخاصة كبيرهم جولدتسهر اليهودي المشهور .

• قضى أستاذنا حياته مجاهداً مناضلاً لترسيخ أركان الحركة الإسلامية بوجهيها الفكري والحركي ، وكانت هذه الحياة على قصرها مليئة بأنواع من النشاط المتعدّد الجوانب والكفاح المترامي الأطراف الذي ينوء بحمله آلاف الرجال فكيف بالرجل الواحد .

* عمل في النضال الوطني ضد الاحتلال في سورية والبلاد العربية والإسلامية، وحقّق وحدة المسلمين في هذا الكفاح في شعورهم وعواطفهم وجهادهم، وهذا ما دعا سلطات الاحتلال في سورية لاعتقاله، وكذلك فعلت سلطات الاحتلال في مصر وفلسطين، فقضى شطراً مديداً من حياته النابضة بالقوّة، في معتقلات الاحتلال في فلسطين وحمص وبيروت والمية ومية وراشيّا.

* وحين نادى منادي الجهاد عام ١٩٤٨ للدفاع عن فلسطين والمسجد الأقصى كان على رأس كتائب الإيمان التي زحفت من كلّ حدب وصوب تدفع الرجس عن معراج الرسول خاتم الأنبياء حتّى اضطرّ هو وإخوانه أن يضع السلاح إلى حين.

* ثمّ عرفته البلاد العربية والإسلامية رائداً من روادها العظام ومؤسّساً لحركة إسلامية واسعة راسخة أقضت مضجع خصوم الإسلام، كما عرفته سياسيّاً نافذ النظرة، يقول كلمة الحق، ويعمل على وحدة العرب والمسلمين على هدي واضح من مبادىء الإسلام العظيمة.

* لكن هذا النشاط الذي يستغرق في العادة كلّ أوقات الناس لم يكن ليصرف أستاذنا الكبير عن المساهمة في الميدان الثقافي والعلمي، فقد عرفته المنابر خطيباً مفوّهاً ومحاضراً فذّاً سريع البديهة، جديد الفكرة، واسع الإحاطة، شامل النظرة، وعرفته الأوساط العلمية عاملاً على توضيح أسس الفكر الإسلامي الأصيل، لتنقيته مما أحاط به من شبهات، أو ألحق به من شوائب، أو نثر حوله من شائعات، أكثرها لغرض متحامل حاقد.

* ولتحقيق هذا عقد المؤتمرات العلمية أو شارك فيها، ونذر الجزء الأكبر من وقته في السنوات الأخيرة من حياته لتحقيق مشروعين هامين كانا أمنية العاملين المخلصين من رجال الإسلام وهما: كلية الشريعة في جامعة دمشق، وموسوعة الفقه الإسلامي، وقد أسعده الله تعالى وأقرّ عينه بأن أراه هذين المشروعين حقيقتين ثابتتين ومؤسّستين راسختين من مؤسّسات الإسلام العلمية الأصيلة.

* أما في ميدان التأليف فقد خلف أستاذنا ، رحمه الله ، ثروة نادرة من الكتب ، صدر منها فعلاً ما ينوف على العشرين كتاباً وما يزال عدد كبير من أبحاثه ينتظر طريقه للخروج إلى النور .

* جاءت مؤلفات الدكتور السباعي مفردة في بابها ، ومن أهم هذه المؤلفات : السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، والمرأة بين الفقه والقانون ، وشرح قانون الأحوال الشخصية ، وشرعية الإرث وأحكامه ، وأحكام الزواج وانحلاله ، وأحكام الأهلية والوصية ، والوصايا والفرائض ، وهكذا علمتني الحياة ، وأخلاقنا الاجتماعية ، ومن روائع حضارتنا ، موضوع حديثنا .

* رحمه الله وأرضاه .

* * *

* أما الكتاب فهو «من روائع حضارتنا» الذي يعدّ من أهمّ مؤلفات الدكتور مصطفى السباعي ، ولا نظن أحداً يستطيع أن يحدّد هدف هذا الكتاب بأفضل مما فعل مؤلفه في تقديمه له بعبارته المشرقة الناصعة إذ يقول : «ولسنا نقصد من عرض هذه الروائع الادعاء بأن كلّ ما في حضارتنا جميل ومشرق ، فليس في التاريخ حضارة ليست فيها هفوات ، وإنما القصد أيضاً أن نثبت أن الجوانب الإنسانية الخالدة في حضارتنا أقوى وأجمل ، وأن نردّ بذلك على افتراء الذين يزعمون لحضارتنا كلّ عيب ونقيصة ، ويتعمدون أن يحذفوها من قائمة الحضارات الأصيلة ، وأن نحبط بذلك كيد الذين يعملون على أن يصرفوا أنظار جيلنا الحديث عن روائع آثارنا الحضارية .

* ولا يقصد مؤلف الكتاب من عرض روائع هذه الحضارة ، الوقوف على الماضي للبكاء عليه والنحيب ، لأن ذلك — كما يقول — شغل الكسالى العاطلين ، إلاّ أن تجاهل هذا الماضي وازدراءه مع ما يفيض به من خير واسع ونور رحيب ، هو شأن الحاقدين أو الجاهلين ، لذا فإن من الخير أن نستفيد من كنوزنا في بناء نهضتنا العتيدة لتكون النهضة مأمونة العواقب غنية بما يمدها من أسباب النجاح

والبقاء ، واضحة الملامح فيما تهدف إليه من كرامة وهناء ، متصلة أمجادها بأمجاد الماضي لتتصل أمجاد المستقبل بأمجادها فيستمر الموكب وتنسجم الحلقة ويكتمل البناء .

« لقد كتب الكثيرون في موضوع الحضارة الإسلامية ، لكن ما ينفرد به مؤلّف هذا الكتاب عن كلّ ما سبقه انه يكتب منطلقاً من فكرة هامة وهي : ان الحضارة الغربية التي تمثل أرقى ما وصل إليه الإنسان من حياة مادية ، قصرت عن إسعاد الإنسان ، لذا كان لا بدّ من حضارة جديدة تتابع هذا الرقي المادي وتستمر فيه من جهة ، وتأخذ بالناس إلى حياة روحية وراقية من جهة أخرى ، بحيث تحفظ التوازن دائماً بين حياة المادة والروح ، ولا تسمح بطغيان إحداهما على الأخرى ، وقد استطاع الدكتور السباعي أن يثبت بالدليل الواضح ، والحجة الجلية ، ما يؤمن به من أنه ليس هناك من يستطيع أن يقوم بالدور الحضاري المرتقب ، إلاّ أمة واحدة ، هي أمتنا ، وانه لن يستطيع حمل اللواء لحضارة الغد ، غيرنا .

obeikandl.com

المصادر

القرآن الكريم

كتب الصحاح

كتب الفقه الإسلامي

دوائر المعارف ، وكتب الأعلام ، والتراجم والرجال ، ومعاجم الأدباء والبلدان .

الإسلام والحضارة الغربية	أبو الأعلى المودودي
الإسلام والجاهلية	أبو الأعلى المودودي
أسس الاقتصاد بين الإسلام والنظم المعاصرة	أبو الأعلى المودودي
الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية	أبو الأعلى المودودي
إلى الإسلام من جديد	أبو الحسن الندوي
الأموال	القاسم أبو عبيد بن سلا م
الإسلام والأوضاع الاقتصادية	محمد الغزالي
الإدارة الإسلامية في عز العرب	محمد كرد علي
الأحكام السلطانية	للماوردي
الأحكام السلطانية	لأبي يعلى القرار
أسواق العرب في الجاهلية والإسلام	سعيد الأفغاني
اقتصادنا	محمد باقر الصدر
الإنسان بين المادية والإسلام	محمد قطب
الإسلام	الدكتور أحمد شلبي
الاتجاهات الوطنية في الأدب العربي المعاصر	الدكتور محمد محمد حسين
الإسلام والصراط المستقيم	عدد من الباحثين
الإسلام بين جهل أبنائه وعجز علمائه	عبد القادر عودة

obeikandl.com

إحصاء العلوم	للفارابي
الإسلام تجاه التحديات المعاصرة	الدكتور حسن صعب
الإسلام في وجه الزحف الأحمر	محمد الغزالي
أثر العرب في الحضارة الأوروبية	الدكتور جلال مظهر
أثر العرب في الحضارة الأوروبية	عباس محمود العقاد
أخطر من النكسة	محمد جلال كشك
الإسلام والحضارة الغربية	الدكتور محمد محمد حسين
إحياء علوم الدين	أبو حامد الغزالي
الأبطال	كارليل ، تعريب محمد السباعي
الإسلام دين عام خالد	محمد فريد وجدي
الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها	جمال الدين رمادي
إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء	للحضري
الإسلام وتعدد الزوجات	أحمد مظهر العظمة
أم النبي	الدكتورة بنت الشاطىء
اشتراكيتكم وإسلامنا	بشير العوف
الإسلام ومشكلات الحضارة	سيد قطب
الإسلام دين الفطرة	عبد العزيز جاويش
الإسلام والإستبداد السياسي	عبد القادر عودة
الإنسان في القرآن	عباس محمود العقاد
الإسلام في القرن العشرين	» »
الله	» »
إبراهيم أبو الأنبياء	» »
أعلام من التاريخ	علي الطنطاوي
أبو بكر الصديق	» »
الإسلام عقيدة وشريعة	محمود شلتوت
أباطيل وأسماء	محمود شاكر
الإسلام بين أمسه وغده	محمود قاسم
الإسلام وحاجة الإنسان إليه	محمد يوسف موسى
الإسلام على مفترق الطرق	ليوبولد فايس
الإسلام والحياة	محمد يوسف موسى
الإسلامية والمذاهب الأدبية	نجيب الكيلاني
الإسلام دين العلم والمدنية	طاهر الطناحي
الأخلاق في الإسلام	محمد عبد الله دراز

الإسلام روح المدنية	مصطفى الغلا ييني
الإسلام ونظرته العامة إلى الكون	محمد المبارك
آيات الله في الآفاق	محمد أحمد العريك
آيات الخالق الكونية	رشيد رشدي
الإسلام وأوضاعنا القانونية	عبد القادر عودة
الإسلام وأوضاعنا السياسية	عبد القادر عودة
الإنسان ذلك المجهول	إلكسيس كاريل
أنتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى	حسن ابراهيم حسن
إظهار الحق	رحمة الله الهندي
أم القرى	عبد الرحمن الكواكبي
الإسلام والحضارة العربية	محمد كرد علي
إعجاز القرآن	مصطفى صادق الرافعي
البيروني	الدكتور جمال فندي
	والدكتور إمام إبراهيم أحمد
البنك اللاربوي في الإسلام	محمد باقر الصدر
بطل الأبطال	عبد الرحمن عزام
تذكرة دعاة الإسلام	أبو الأعلى المودودي
بين الدعوة القومية والرابطة الإسلامية	أبو الأعلى المودودي
التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية	أحمد شلبي
تذكرة الدعاة	البهي الخولي
التصوير الفني في القرآن	سيد قطب
التبشير والاستعمار	الدكتور عمر فروخ
	والدكتور مصطفى الخالدي
التطور والثبات في حياة البشرية	محمد قطب
تعليم الإناث وتربيتهن	الدكتور تقي الدين العلايلي
التكافل الاجتماعي في الإسلام	محمد أبو زهرة
التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن	حنفي أحمد
التعريف بالشريعة الإسلامية	محمد سلام مدكور
تاريخ التشريع الإسلامي	محمد الخضري
تاريخ الإسلام السياسي	حسن ابراهيم حسن
تحت راية القرآن	مصطفى صادق الرافعي
تراث الإسلام	مجموعة باحثين
تاريخ الشعوب الإسلامية	بروكلمان

تاريخ الحضارة الإسلامية	بارتولد ترجمة حمزة طاهر
التفكير الفلسفي في الإسلام	الدكتور عبد الحليم محمود
تفسير آيات الربا	سيد قطب
تثبيت دلائل النبوة	القاضي عبد الجبار الهمذاني
	تحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان
تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك	قدري حافظ طوقان
تاريخ حكماء الإسلام	للبيهقي
تاريخ الفلسفة في الإسلام	لدوبور ، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة
تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية	مصطفى عبد الرازق
تفسير ابن كثير	لابن كثير
تفسير الكشاف	للزمخشري
تاريخ الخلفاء	ابن قتيبة
تاريخ الخلفاء	للسيوطي
تجديد التفكير الديني في الإسلام	محمد إقبال
التوحيد الذي هو حق الله على العبيد	محمد بن عبد الوهاب
التفكير فريضة إسلامية	عباس محمود العقاد
تأملات في المجتمع العربي	مالك بن نبي.
التشريع الجنائي في الإسلام	عبد القادر عودة
الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة	جمع وتقديم محمد خلف الله
الثقافة الإسلامية	الدكتور عبد الكريم عثمان
جاهلية القرن العشرين	محمد قطب
الجهاد في سبيل الله	أبو الأعلى المودودي
الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي	الدكتور محمد البهي
جابر بن حيان	الدكتور زكي نجيب محمود
الحجاب	أبو الأعلى المودودي
حجاب المرأة المسلمة	ناصر الدين الألباني
الحياة بعد الموت	أبو الأعلى المودودي
الحضارة الإسلامية	أبو الأعلى المودودي
الحلال والحرام	يوسف القرضاوي
حقائق الإسلام وأباطيل خصومه	عباس محمود العقاد
حقوق الإنسان في الإسلام	الدكتور علي عبد الواحد وافي
أبو حنيفة	محمد أبو زهرة

obeikandl.com

ابن حنبل	محمد أبو زهرة
حياة محمد	محمد حسين هيكل
حياة محمد ورسالته	مولانا محمد علي
حديث في البناء الجديد	مالك بن نبي
حاضر العالم الإسلامي	ستيوارد تعليق شكيب أرسلان
	تعريب عجاج نويهض
حضارة العرب	غوستاف لوبون
حضارة الإسلام	جراونباوم
الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة في الشرق الإسلامي الحديث	الدكتور جمال الشيال
الحضارة العربية	محمد كرد علي
الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري	آدم متز ترجمة الدكتور
	عبد الهادي أبو ريدة
الحسبة في الإسلام	ابن تيمية
الحسبة والمحتسب في الإسلام	نقولا زيادة
الحسن بن الهيثم	مصطفى نظيف
حصوننا مهددة من داخلها	الدكتور محمد محمد حسين
حجة الله البالغة	شاه ولي الله الدهلوي
الخراج	أبو يوسف
خصائص التصور الإسلامي	سيد قطب
خلق المسلم	محمد الغزالي
خطوط رئيسية في الاقتصاد الإسلامي	محمود أبو السعود
خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية	عبد الله التل
دراسات إسلامية	سيد قطب
الدولة عند ابن تيمية	محمد المبارك
الدعوة الإسلامية في الهند	مسعود الندوي
الدعوة إلى الإسلام	توماس أرنولد ترجمة حسن
	ابراهيم حسن والنحراوي وعابدين
دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي	الدكتور عبد الرحمن بدوي
دولة الفكرة	محمد فتحي عثمان
دفاع عن الإسلام	لورافاغليري
درس النكبة الثانية	يوسف القرضاوي
دراسات في النفس الإنسانية	محمد قطب

oberkandl.com

الدين	محمد عبد الله دراز
الدين والعلم	أحمد عزت باشا ، ترجمةالدكتور عبد الوهاب عزام وحمزة طاهر
دلائل التوحيد	جمال الدين القاسمي
الدستور القرآني في شؤون الحياة	محمد عزت دروزة
الدين والوحي والإسلام	مصطفى عبد الرازق
الديموقراطية في الإسلام	عباس محمود العقاد
الدعوة إلى الإصلاح	محمد الخضر الحسين
الدين والعقل	الدكتور سليمان دنيا
ذاتية الإسلام	محمد المبارك
الربا	أبو الأعلى المودودي
الرسالة المحمدية	سليمان الندوي
الرد على الدهريين	جمال الدين الأفغاني
الرسالة الخالدة	عبد الرحمن عزام
رجال من التاريخ	علي الطنطاوي
روح الدين الإسلامي	عفيف طباره
الربا في الإسلام وفي النظريات الاقتصادية الحديثة	ندوة لعدد من الباحثين
الربا ودوره في استغلال موارد الشعوب	الدكتور عيسى عبده
رجال الفكر والدعوة في الإسلام	أبو الحسن الندوي
الرسالة	للامام الشافعي
روح الإسلام	سيد أمير علي
رسالة العقائد	حسن البنا
زاد المعاد في هدي خير العباد	ابن القيم
السلام العالمي في الإسلام	سيد قطب
السياسة الشرعية	ابن تيمية
السياسة المالية في الإسلام	عبد الكريم الخطيب،
سبل السلام	للصنعاني
السياسة والاقتصاد في التفكير الإسلامي	أحمد شلبي
سيرة ابن هشام	ابن هشام
السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي	مصطفى السباعي
شهداء الإسلام في عهد النبوة	علي سامي النشار
شروط النهضة	مالك بن نبي
الشافعي	محمد أبو زهرة

شبهات حول الإسلام	محمد قطب
شخصية المسلم كما يتصورها الإسلام	مصطفى عبد الواحد
الشورى في الإسلام	الدكتور محمود بابللي
الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية	أبو الحسن الندوي
الصديق أبو بكر	محمد حسين هيكل
صفة صلاة النبي كأنك تراها	ناصر الدين الألباني
الطريق إلى اتحاد إسلامي	نجيب كيلاني
طبقات الأطباء	ابن أبي أصيبعة
طبقات الأمم	صاعد الأندلسي
الظاهرة القرآنية	مالك بن نبي
العرب والإسلام	أبو الحسن الندوي
العقل المؤمن	عبد المنعم خلاف
عبقريات العقاد	العقاد
العلم يدعو للإيمان	موريسون ، محمد صالح الفلكي
عقيدة المسلم	محمد الغزالي
عمر بن الخطاب	علي الطنطاوي وناجي الطنطاوي
عثمان بن عفان	محمد حسين هيكل
العلوم عند العرب	قدري طوقان
العدالة الأجتماعية في الإسلام	سيد قطب
الغارة على العالم الإسلامي	شاتليه ، ترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي
الفلسفة القرآنية	عباس محمود العقاد
الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار	الدكتور محمد البهي
الفكر الإسلامي	م . شريف ترجمة أحمد شلبي
فقه السيرة	محمد الغزالي
في النفس والمجتمع	محمد قطب
الفاروق عمر	محمد حسين هيكل
فضل العرب على أوروبا	هونكيه ، ترجمة فؤاد حسنين علي
في ظلال القرآن	سيد قطب
الفصل في الملل والأهواء والنحل	ابن حزم
قصص القرآن	جاد المولى
قصص من التاريخ	علي الطنطاوي

obeikandl.com

القضاء في الإسلام	عارف النكدي
القضاء والقضاة	محمد شهير أرسلان
قادة فتح الشام ومصر	محمود شيت خطاب
قادة فتح بلاد فارس	» »
قادة فتح العراق	» »
كفاح دين	محمد الغزالي
كفاح المسلمين في تحرير الهند	عبد المنعم النمر
الكون العجيب	قدري طوقان
لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم	شكيب أرسلان
مبادىء الإسلام	أبو الأعلى المودودي
المصطلحات الأربعة في القرآن	» » »
ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين	أبو الحسن الندوي
المجتمع الإسلامي	أحمد شلبي
معضلات الاقتصاد وحلها في الإسلام	أبو الأعلى المودودي
ملكية الأرض في الإسلام	» » »
المستقبل لهذا الدين	سيد قطب
معالم في الطريق	» »
مرآة الإسلام	طه حسين
ما يقال عن الإسلام	عباس محمود العقاد
من روائع حضارتنا	الدكتور مصطفى السباعي
منهاج الإسلام في الحكم	محمد أسد
محاضرات في النصرانية	محمد أبو زهرة
مالك	» »
منهج الفن الإسلامي	محمد قطب
منهج التربية الإسلامية	» »
مجالي الإسلام	حيدر بامات
مفاتيح العلوم	الخوارزمي الكاتب الأديب
مقدمة ابن خلدون	ابن خلدون
مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام	يوسف القرضاوي
المجتمع الإسلامي والتيارات المعاصرة	عمر بهاء الأميري
المجتمع الإنساني في ظل الإسلام	محمد أبو زهرة
المجتمع الإسلامي	صلاح الدين المنجد

obeikandl.com

مدنية العرب في الجاهلية والإسلام	محمد رشدي
مقام العقل عند العرب	قدري طوقان
المرأة بين البيت والمجتمع	البهي الخولي
الماركسية والغزو الفكري	محمد جلال كشك
معركة التقاليد	محمد قطب
المسلمون والحرب الرابعة	زهدي الفاتح
محاضرات الدكتور عبد الله عربي عن الاقتصاد في الإسلام ، في معهد الدراسات الإسلامية ، بالقاهرة	
معركة الإسلام والرأسمالية	سيد قطب
موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول	ابن تيمية
موقف العقل والعلم والعالم من رب العالم	مصطفى صبري
محمد الرسالة والرسول	الدكتور نظمي لوقا
محمد المثل الكامل	محمد أحمد جاد المولى
المرأة في القرآن	عباس محمود العقاد
مناهج البحث عند مفكري الإسلام	علي سامي النشار
المرأة بين الفقه والقانون	الدكتور مصطفى السباعي
موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه	أبو الأعلى المودودي
من منهل الأدب الخالد	محمد المبارك
نظام الحياة في الإسلام	أبو الأعلى المودودي
نظرية الإسلام الخلقية	» »
نظرية الإسلام السياسية	» »
نحن والحضارة الغربية	» »
النبوة والأنبياء في سور القرآن	أبو الحسن الندوي
النبوة	سعدي ياسين
النبأ العظيم عن القرآن الكريم	محمد عبد الله دراز
نظام الحكم في الإسلام	محمد يوسف موسى
نظرات إسلامية في الاشتراكية الثورية	الدكتور معروف الدواليبي
نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام	علي سامي النشار
نظام الأسرة وحل مشكلاتها	الدكتور عبد الرحمن الصابوني
النظام السياسي في الإسلام	الدكتور عبد الكريم عثمان
نظام الحكم في الإسلام	محمد عبد الله عربي
نظام الإسلام (العقيدة والعبادة)	محمد المبارك
نظرية الإسلام وهديه	أبو الأعلى المودودي

النظم الإسلامية	الدكتور صبحي الصالح
» »	حسن ابراهيم حسن
نور اليقين	محمد الخضري
هذا الدين	سيد قطب
هل نحن مسلمون	محمد قطب
واقع المسلمون وحاضرهم وسبيل النهوض بهم	أبو الأعلى المودودي
واجب الشباب المسلم	» »
الوحي المحمدي	محمد رشيد رضا
وجهة العالم الإسلامي	مالك بن نبي
الوجود الحق	الدكتور حسن الهويدي
الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة	الدكتور محمد حميد الله الحيدرآبادي
يقظة العالم الإسلامي	فرنو ، ترجمة بهيج شعبان
لا شيوعية ولا استعمار	عباس محمود العقاد